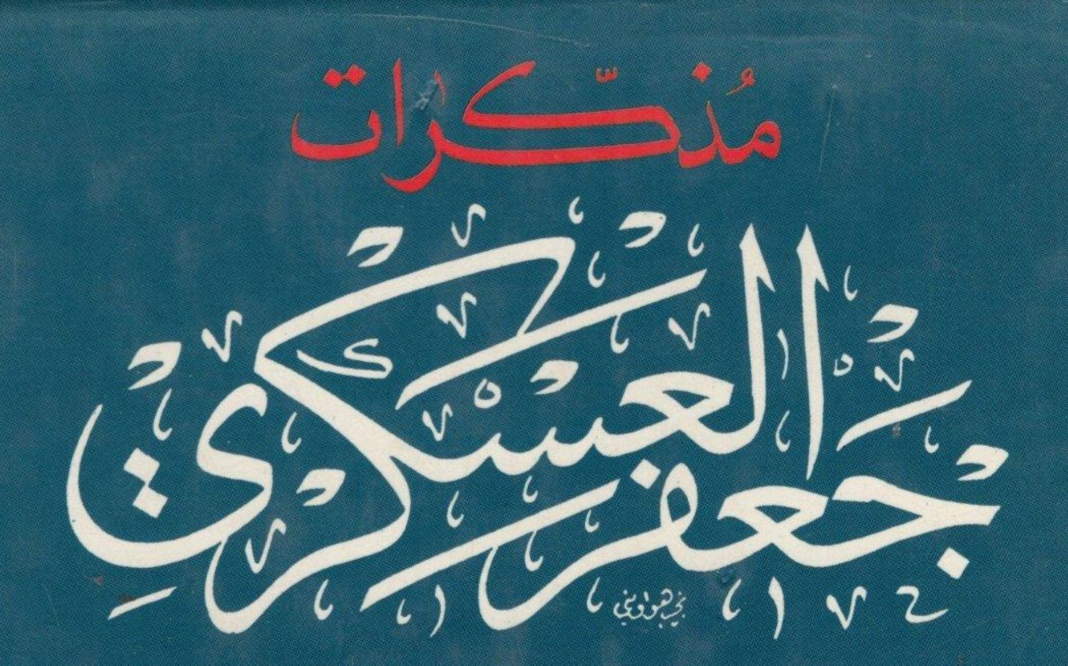


دار اللام

مذكرات



تحقيق وتقديم

نجدة فتحي صفوة



دار السلام لندن ١٩٨٨

المحتويات

مُقَدّمَة

نجدة فتحي صفوة

لا يعرف على وجه التحديد متى بدأ المغفور له جعفر العسكري بكتابة مذكراته، ولكن ذلك، على أي حال، كان بعد عودته إلى العراق، واستقرار الحكم الوطني فيه، حيث تمكن من الخلود إلى شيء من الراحة، والشعور بشيء من الاستقرار بعد فترة طويلة من الأسفار والحروب في القصيم والعراق والبلقان وليبيا ومصر والحجاز وسورية.

إن حياة جعفر العسكري، وما شهده من أحداث حاسمة وخطيرة في تاريخ العراق والأمة العربية تجعل مذكراته ذات قيمة تاريخية كبيرة. وسيرة جعفر العسكري نفسها حافلة بالأحداث والمخاطر التي رمى بنفسه إليها تحقيقاً لفكرة، وإيماناً بمبدأ، وهي تصلح أن تكون مادة لرواية مثيرة، ذات دروس وعبر، وقد انتهت نهاية مؤلمة حقاً، ولكنها مع ذلك قد تتسق بدرجة غريبة مع سيرته التي كانت كلها عبارة عن أحداث مثيرة ومغامرات جريئة، ومفاجآت. ولو شاء كاتب قصصي أن يكتب رواية عن شخصية خيالية، مرّ بها ما مرّ بجعفر العسكري من أحداث، لما استطاع أن يجد لقصته نهاية تتسق مع بدايتها، ولا خاتمة تكون أبلغ دلالة، ولا أروع إثارة، ولا أكثر إيلاماً، من الخاتمة التي انتهت بها حياة ذلك الرجل العظيم.

وقد فكر جعفر العسكري ـ فيما يبدو ـ بكتابة مذكراته ونشرها باللغتين العربية والانكليزية، وكتب منها فعلا الفصول التي نضعها بين أيدي القراء اليوم بعد وفاته باثنين وخمسين عاما، وكان يعهد بما ينجزه من فصولها إلى من يكتبها على الآلة الكاتبة، ثم يجري عليها تصحيحات، ويدخل عليها إضافات، فتطبع مرة ثانية

وثالثة. فاذا رضي عن صيغتها أخيراً عهد بها إلى عبد المسيح وزير، رئيس شعبة الترجمة في وزارة الدفاع العراقية، ليترجمها له إلى اللغة الانكليزية ترجمة مبدئية، ويراجعها العسكري، ويعاد طبعها على الآلة الكاتبة ثم يعاد.

وعلى الرغم من أن جعفر العسكري قد وجد شيئاً من الاستقرار الذهني بعد قيام دولة العراق، وتنصيب فيصل الأول ملكاً عليها، فان حياته مع ذلك تخللها كثير من التنقلات بين بغداد ولندن وكثير من المشاغل والمشاكل السياسية التي كان لا بد منها لدولة أسست حديثاً، وقد عين أول ممثل دبلوماسي للعراق في لندن، وتسنم هذا المنصب بعد ذلك أربع مرات، كان يستدعي خلالها إلى العراق ليصبح وزيراً، أو يؤلف وزارة، ثم يعود إلى لندن مرة أخرى، حتى بلغ مجموع المدة التي مثل العراق خلالها في لندن سبع سنوات تقريباً. وقد عاد إلى العراق للمرة الأخيرة ليصبح وزيراً للدفاع في وزارة ياسين الهاشمي الثانية التي تألفت في سنة ١٩٣٤. وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٦ وقع الانقلاب العسكري الذي قاده اللواء بكر صدقي، وقتل فيه جعفر العسكري في ظروف محزنة ومؤسفة للغاية، وبقيت مذكراته ناقصة بتراء.

وعلى الرغم من أهمية هذا القسم من سيرة جعفر العسكري، فان السنوات التالية من حياته لم تكن أقل أهمية، واحداثها لا تقل خطراً عن أحداث الفترات التي دوّن مذكراته عنها.

عاد جعفر العسكري إلى العراق بعد انهيار الحكم الوطني في سورية وعهد إليه بتمهيد الجو لانتخاب فيصل ملكاً للعراق، ثم أصبح وزيراً للدفاع في أول وزارة تألفت في عهد «الحكومة المؤقتة» برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب، وأسس الجيش العراقي، ورافق السر برسي كوكس إلى مؤتمر القاهرة الذي تقرر فيه تأسيس الدولة العراقية وترشيح فيصل لعرش العراق، ثم مثل العراق بصفة ممثل دبلوماسي ثم وزير مفوض، وشغل وزارتي الدفاع والخارجية أكثر من مرة، كما أنه أصبح رئيساً للوزراء مرتين، ولذلك فان جعفر العسكري لو أمتد به الأجل ولم يغالبه القدر المحتوم لكانت مذكراته أوفى مرجع عن تأسيس دولة العراق الحديثة، وأدق مصدر عن تاريخ العراق الحديث، لأنه كان على الدوام في قلب الأحداث، وعلى أوثق صلة بالملك فيصل الأول وجميع ساسة العراق ورجالاته الذين كانوا يجمعون على محبته واحترامه.

إضافة إلى ذلك فان جعفر العسكري كان متزوجاً من شقيقة نوري السعيد، كما أن زوجة نوري السعيد كانت شقيقة جعفر العسكري، ولذلك كانت العلاقة بين الرجلين وثيقة والصداقة متينة والتعاون دائماً، مما زاد جعفر اطلاعاً على شؤون العراق، وخفايا سياسته، كما زاده ذلك قوة ونفوذاً، فقد أصبح كل منهما سنداً للآخر. ولذلك كان مقتل جعفر العسكري صدمة كبيرة لنوري السعيد آلمته أشد الألم، وبقي يفتقده ويذكره إلى آخر يوم من حياته.

ويفهم من أوراق جعفر العسكري أنه كان قد اتفق مع احدى دور النشر البريطانية المهمة على نشر مذكراته باللغة الانكليزية فور الفراغ من اعدادها. واعتقد انه فكر في نشرها باللغة الانكليزية، إلى جانب طبعتها العربية، بسبب كثرة معارفه واصدقائه من البريطانيين الذين حاربهم في صفوف الجيش العثماني أولاً، ثم حارب العثمانيين إلى جانبهم خلال الثورة العربية، واشترك معهم في مؤتمر القاهرة، وتعامل معهم في العراق في عهدي الحكومة المؤقتة والانتداب، وبعد الاستقلال، واتصل بهم في لندن خلال المدة الطويلة التي قضاها في تمثيل العراق فيها، ونال ودهم واحترامهم.

ولما وقع الانقلاب العسكري في سنة ١٩٣٦، وأودى - فيما أودى به - بحياة جعفر العسكري، انتقلت اوراقه إلى نجله المرحوم طارق العسكري الذي تولى تنظيمها وتنقيحها. ويبدو أن المرحوم طارق العسكري لم يرتح لترجمة عبد المسيح وزير للمذكرات إلى اللغة الانكليزية. والواقع ان عبد المسيح وزير على الرغم من قدرته الفائقة في الترجمة، وعبارته العربية المتينة، وتضلعه من اللغة الانكليزية، لم يكن كاتباً باللغة الانكليزية، بل كان قديراً في الترجمة من الانكليزية إلى العربية، ولذلك قرر طارق العسكري اعادة ترجمة المذكرات، أو ما هو موجود منها إلى اللغة الانكليزية مرة أخرى[١].

---

(١) كان المرحوم طارق العسكري يجيد اللغة الانكليزية إجادة تامة وكانت دراسته الثانوية في لندن بسبب إقامة والده الطويلة فيها خلال تمثيله العراق في لندن، كما أنه تخرج من جامعة كمبردج ،وكان مولعاً بالأدب الانكليزي، وخاصة أدب شكسبير، واسع الإطلاع عليه، وهو أكبر انجال جعفر العسكري. أما الآخرون منهم زياد ونزار وقيس ولم يكن له بنات.

وبقيت أوراق جعفر العسكري لدى نجله طارق العسكري الذي كان يقيم في السنوات الأخيرة في لندن، وكان يعمل على انجازها دون استعجال ، وكلما توافر الوقت لذلك، ولكن الأقدار لعبت دورها مرة أخرى، وتوفي طارق العسكري فجأة بنوبة قلبية شديدة، وهو بكامل صحته ونشاطه وقوته.

وبعد وفاة المرحوم طارق العسكري بمدة قصيرة، عرض عليّ نجله الأكبر الاستاذ جعفر معان العسكري أن أقوم بتحقيق هذه المذكرات واعدادها للنشر باللغتين العربية والانكليزية، تحقيقاً لرغبة جدّه، واكمالاً للعمل الذي بدأ به والده، رحمهما الله. وقد وافقت على الاضطلاع بهذه المسؤولية التاريخية، مقدراً أهميتها، شاكراً له ولأسرة العسكري ثقتهم، عاقداً العزم على إنجاز هذه المذكرات بأقصى ما استطيعه من الدقة والأمانة والالتزام بالأصل.

وكانت كمية هائلة من الأوراق باللغتين العربية والانكليزية، وفيها كثير من المواد المكررة، والمراسلات المتنوعة، وقصاصات الصحف، وشتى الأوراق الشخصية والرسمية. وقد وجدت بين تلك الأوراق رسائل متبادلة بين جعفر العسكري ودار النشر التي كانت ستتولى نشر المذكرات باللغة الانكليزية، ثم رسالة إليها من طارق العسكري يعلمها فيها بوفاة والده، وبأن خاله نوري السعيد قد تعهد باكمال المذكرات التي بقيت ناقصة، وهنالك أيضاً رسائل من دار النشر المذكورة تستفسر فيها عن مصير المذكرات وموعد اكمالها من قبل السيد نوري السعيد. ولكن نوري السعيد كان في خضم الأحداث السياسية في العراق، أو بالأصح ممسكاً بدفتها طيلة السنوات التالية وحتى يومه الأخير، ومن الطبيعي أنه لم يجد الفرصة لانجاز ما لا بد أنه تعهد به بدافع من شعور المحبة والوفاء لجعفر العسكري، حتى لقي ربه هو أيضاً في بغداد يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ في انقلاب عسكري آخر.

وكنت أظن ان هذه المذكرات لم يطلع عليها أحد، ولكنني وجدت اشارة إليها في كتاب (الصراع الدولي في الشرق الأوسط) تأليف زين نور الدين زين الصادر في بيروت سنة ١٩٧١[٢]. ولم أتمكن من معرفة الكيفية التي اطلع بها زين نور الدين على

(٢) وردت في كتاب زين نور الدين زين الفقرة التالية:
«غير أن جعفر باشا العسكري ذكر في مذكراته (التي لم تنشر) أنه في يوم ما من سنة ١٩١٧، عندما كان في =

مخطوطة المذكرات، ومن الذي أطلعه عليها، وهي في حوزة المرحوم طارق العسكري الذي كان يفضل عدم التحدث عنها أو اطلاع أحد عليها قبل أن تكون جاهزة للنشر، ولعله استثنى الدكتور زين من ذلك لسبب خاص، والله أعلم.

وقد بدأت العمل باستخلاص نسخة كاملة مما أنجز من مذكرات العسكري بآخر صيغة من الصيغ العديدة التي مرت بها مسودة الكتاب. وكانت بين أيدينا منها نسختان، إحداهما بالعربية، والأخرى بالانكليزية. وكانت النسخة الانكليزية في صيغتين، أو مترجمة مرتين، إحداهما بقلم عبد المسيح وزير ـ في أغلب الظن ـ مع تعديلات أجراها عليها جعفر العسكري نفسه، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة، والأخرى بقلم طارق العسكري وبخط يده. وقد وجدنا الأخيرة أفضلهما أسلوباً، وسنعتمدها بصورة رئيسية في الطبعة الانكليزية من الكتاب انشاء الله، بعد اكمال نواقصها وملء فجواتها ومطابقتها بالنص العربي مرة أخرى.

***

ولد محمد جعفر العسكري في بغداد في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٥، وكان والده، مصطفى عبد الرحمن المدرس، ضابطاً في الجيش العثماني برتبة قائمقام (عقيد)، اشترك في الحرب الروسية ـ التركية سنة ١٨٧٧. وقد أنجب خمسة أبناء كان جعفر رابعهم.

ولم يكن لقب العسكري الذي لحق باسم جعفر باشا نسبة إلى مسلكه وان اختار العسكرية مسلكاً له فيما بعد، بل نسبة إلى قرية «عسكر» العراقية القريبة من مدينة كركوك، وقد انتقل إليها جده الأكبر عبدالله المدني من المدينة المنورة في القرن السادس عشر الميلادي.

= القاهرة، أراه كلايتون علماً قائلاً له: هذا علمكم العربي ذو الألوان الأربعة، وقد وضع تصميمه الشريف حسين ذاته (مخطوطة خواطر جعفر باشا العسكري ص (٨)». ولم يقتبس زين نور الدين زين من المذكرات في كتابه غير الفقرة المذكورة أعلاه. انظر: زين نور الدين زين: **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان**، دار النهار، بيروت، ١٩٧١، ص ٢١٥، وقد نقل عنه هذه الرواية الاستاذ سليمان موسى في كتابه **الحركة العربية** (ص ٣٨) وآخرون مشيرين إلى كتاب زين نور الدين زين.

ويبدو أن مصطفى العسكري، والد جعفر، انتقل إلى الموصل وسكنها بعد احالته على التقاعد. ولما أكمل جعفر دراسته الابتدائية قرر أبوه ارساله إلى بغداد مع أخيه «هادي» لادخاله المدرسة العسكرية فيها «لعدم وجود مدرسة عسكرية في الموصل»، وتوفي والده في الموصل، بعد سفر جعفر ببضعة أشهر.

وتبدأ مذكرات جعفر العسكري بمغادرته الموصل مع أخيه «هادي» وخادمها «جمعة» بواسطة نهرية بدائية كانت مستعملة في ذلك الوقت، وتسمى في العراق «كَلَكاً».

ويصف جعفر العسكري هذه السفرة وصفاً بديعاً. وربما كانت السفرة التي استغرقت سبعة أيام من الموصل إلى بغداد بداية المغامرات والمخاطر التي حفلت بها حياته.

ويمضي جعفر العسكري في مذكراته فيتحدث عن سفره إلى الاستانة (في سنة ١٩٠١) لدخول المدرسة الحربية فيها. وكانت السفرة في هذه المرة على ظهور البغال والخيل من بغداد إلى الاسكندرونة، ومنها إلى الاستانة بحراً. وقد استغرقت أربعة وأربعين يوماً. ويصف جعفر العسكري حياته في المدرسة الحربية في استانبول، والجو السائد في العاصمة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

وتخرج العسكري في المدرسة الحربية عام ١٩٠٤ برتبة ملازم ثان، فعيّن في الجيش السادس في بغداد. وحارب مع العثمانيين في حملة القصيم سنة ١٩٠٥، ولما عاد منها أُرسل مع الجيش السادس أيضاً في حملة لاخضاع بعض العشائر الثائرة من «بني لام» و «البو محمد» المنشقة على بعضها.

وعلى أثر إعلان الدستور العثماني في تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ قررت الحكومة العثمانية إدخال إصلاحات على جيشها، وارسال بعثات عسكرية من الضباط الذين يتم انتخابهم بطريقة المسابقة للتدريب والدراسة في المانية. وكان جعفر، الملازم الأول في فوج الأعظمية، بين أعضاء البعثة الأولى، وقد قضى السنوات ١٩١٠ و١٩١١ و١٩١٢ في برلين وكارلسروه، وفي الفصل الثاني من مذكراته سرد تفصيلي طريف لمشاهداته في المانية وانطباعاته عنها.

وفي أواخر سنة ١٩١٣ نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودول البلقان فتلقى الموفدون أمراً بالعودة إلى تركية فوراً للالتحاق بوحداتهم. ويتحدث جعفر في الفصل الثالث عن حرب البلقان، ومشاهداته فيها، والرجال الذين عمل معهم أو تعرف عليهم خلالها، وبينهم مصطفى كمال بك (الذي اتخذ اسم «آتاتورك» فيما بعد وأصبح رئيساً للجمهورية التركية) وعلي فتحي بك (الذي أصبح رئيساً للوزراء في تركية ثم سفيراً لتركية في لندن، حيث زامل جعفر العسكري الذي كان وزيراً مفوضاً للعراق فيها). وأنور بك (أنور باشا وزير الحربية فيما بعد) وصبيح نشأة وآخرون.

وعاد جعفر إلى استانبول في أواخر سنة ١٩١٣ على اثر اعلان السلم، ثم عين معلماً في مدرسة الضباط التي تأسست في حلب، وبعد ثمانية أشهر فاز في امتحان دخول مدرسة الأركان الحربية، فتوجه إلى الاستانة مرة ثانية. وفي تلك الأثناء اعلنت الحرب العالمية الأولى، ودخلتها الدولة العثمانية إلى جانب المانية. وفكرت الدولة العثمانية خلال الحرب في تقوية الجبهة السنوسية في ليبيا بقصد التضييق على الانكليز في مصر من الغرب، بينما كانت القوات الأخرى تهاجمها من فلسطين في الشرق.

وهنا تبدأ أروع مغامرات جعفر العسكري. وفي الفصل الرابع من مذكراته يصف السفرة البحرية إلى ليبيا عبر البحر المتوسط، الذي كان تحت سيطرة أساطيل الحلفاء، والطريق البحرية إلى مصر مقطوعة. وقد سافر أولا إلى اليونان وكانت لا تزال على الحياد، ومنها أبحر إلى الساحل الأفريقي على ظهر باخرة صغيرة. ورافقه في هذه السفرة (نوري باشا) شقيق أنور باشا، وزير الحربية، وآخرون.

ويصف جعفر العسكري هذه السفرة المحفوفة بالمخاطر، ووصوله إلى مضارب السنوسي، ثم يتحدث عن رجال السنوسيين وعاداتهم، وموقف السنوسي من الحرب، ثم اصراره على تزويده بالمال والسلاح لمواصلة عملياته ضد الانكليز، ويروي العسكري كيف تطوع للعودة إلى مصر متخفياً بزي أحد الاخوان السنوسيين، متظاهراً بالسفر إلى الحج، ثم يصف بقاءه في الاسكندرية لمدة عشرة أيام، واتصالاته بالانكليز خلال هذه المدة دون أن يعرفوا هويته الحقيقية، ثم مغادرته على ظهر باخرة ايطالية إلى المياه العثمانية في يافا، ثم إلى القدس، لمقابلة جمال باشا،

قائد الجيش الرابع، وتحميله الأسلحة المرسلة إلى السنوسي على سفينة شراعية، واقلاعه من بيروت مستصحباً معه ثمانية جنود من أبناء العرب في هذه الرحلة الحافلة بالأهوال، ووصوله سالماً إلى ميناء (بورت سليمان)، ومحاولاته لاثارة السنوسي على البريطانيين، وبدء المعارك والحركات العسكرية في ليبيا بينها وقعة وادي ماجد، ووقعة بئر تونس، وأخيراً وقعة العقاقير التي سقط فيها جريحاً فأسره الانكليز.

وفي فصل مثير آخر يروي جعفر العسكري كيف نقله الانكليز الى (سيدني براني)، ثم إلى مرسي مطروح، فالقاهرة، حيث أودع معتقل الأسرى في المعادي، ويصف اجتماعه بصديقه نوري السعيد في القاهرة، ثم نقله إلى القلعة، ومحاولته الهرب من المعتقل بعد قلع قضبان الحديد من أحد شبابيك القلعة، ونزوله متعلقاً بالبطانيات التي عقدها ببعضها، ثم سقوطه خلال ذلك بعد ان انفرط عقدها، واصابته برضوض وجروح عديدة، والقاء القبض عليه في منتصف الليل، وارساله إلى المعادي مرة أخرى.

ويصف جعفر العسكري في الفصل التالي الذي وضع له عنوان: (نور جديد) المفاوضات التي بدأت بين الشريف حسين أمير مكة، والبريطانيين، واتصالات الدكتور عبد الرحمن شهبندر، وما شعر به من ألم حين سمع باعدام جمال باشا (الذي لقب بالسفاح) عدداً من رجالات العرب، بينهم صديقه (سليم الجزائري) الذي بكاه بكاءً مُراً. ثم يذكر وساطة لورنس، واتصالاته به، ونقله إلى دار خاصة في المعادي. ثم سفر نوري السعيد وعزيز علي المصري إلى الحجاز والتحاقهما بجيش الثورة العربية وتمهيد السبيل لانضمامه إلى الجيش العربي، وتردد الشريف حسين في ذلك، وأخيراً الدعوة التي وجهها إليه (الأمير) فيصل للاشتراك معه في العمليات العسكرية ضد الأتراك.

ومن أهم ما ذكره جعفر العسكري في هذا الصدد أنه حينما قابل الجنرال كلايتن في القاهرة أخبره الجنرال « **إن الحكومة البريطانية اتفقت مع الملك حسين على أن يكون للعرب كيان سياسي، وان جميع البلاد التي يدخلها العرب ستكون لهم على أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم** » كما أنه أراه مخطط العلم العربي الذي وضعه الشريف حسين نفسه بألوانه الأربعة.

سافر جعفر العسكري من مصر إلى الحجاز في اوائل سنة ١٩١٧ . وهو يصف في الفصل الحادي عشر من مذكراته لقاءه الأول مع (الأمير) فيصل الذي قدر له فيما بعد أن يكون من أقرب رجاله وأخلص اصدقائه، كما يذكر زملاءه من الضباط العرب الذين لقيهم هناك وكيف عهد إليه فيصل بانشاء قيادة عسكرية لتنظيم خطط الحركات للجيش، وذهابه في حملة لنجدة الجيش الثاني الذي كان مرابطاً في وادي العيس بقيادة (الأمير) عبدالله إلى ذلك الموقع مع (الأمير) فيصل ومولود مخلص، وما مروا به في الصحراء من أهوال، وما عانوه من عذاب العطش.

ثم ينتقل جعفر إلى الغارة على «زمرد»، وتخريب خطوط المواصلات بين المدينة المنورة والشام، والمغادرة إلى بئر الفقيه ثم إلى زمرد، وأخيراً الذهاب من الوجه إلى العقبة على ظهر باخرة صغيرة على أثر أمر تلقوه من الأمير فيصل. ثم ينتقل إلى وصف المعسكر العربي في المريغة والنظام الذي أدخله على القوات التي كانت تسودها الفوضى ثم احتلال (أبي الأسل)، والهجوم على (الجردونة) ثم على موقع (سمنة) بقيادة مولود مخلص الذي جرح في هذه المعركة جرحاً بليغاً.

وفي أواخر سنة ١٩١٧ ، بينما كانت الحرب العالمية على أشدها، والثورة العربية تجتاز أدق مراحلها قامت في روسية (ثورة اكتوبر) التي أسفرت عن استيلاء البلاشفة على الحكم. وعلى أثر ذلك قام تروتسكي، قوميسار الشؤون الخارجية، بنشر نصوص جميع المعاهدات السرية التي ارتبطت بها روسية القيصرية والتي كانت محفوظة في وزارة الخارجية، وبين هذه المعاهدات اتفاقية سايكس ـ بيكو التي كانت روسية طرفاً فيها ـ والتي اتفق فيها الحلفاء سرّاً على اقتسام أراضي الدولة العثمانية بعد الحرب، في الوقت الذي كان فيه السر هنري ماكماهون يراسل الشريف ويقطع له العهود باسم بريطانية بمنح العرب استقلالهم بعد الحرب، إذا انضموا إلى جانب الحلفاء.

وقد أرادت الدولة العثمانية اغتنام الفرصة ونقلت نبأ هذه الاتفاقية المشينة إلى العرب، وعرضت الصلح عليهم بهذه المناسبة. وقد جاء ذلك في رسائل ثلاث بعث بها جمال باشا إلى الأمير فيصل، وجعفر العسكري، والأمير عبدالله، كما أن جمال باشا أعلن عن هذه الاتفاقية في خطاب ألقاه في بيروت في ذلك الوقت. وقد أرسل جمال باشا رسالته إلى فيصل وجعفر العسكري مع رسول سري مستعجل إلى مقر قيادة

الجيش الشمالي في العقبة. وأرسل فيصل هذه الرسالة إلى والده طالباً تعليماته بشأنها فأمره بتجاهلها وعدم الرد عليها.

وكانت رسالة جمال باشا إلى جعفر العسكري مؤرخة بالتاريخ الرومي ١٣ تشرين الثاني ١٣٣٣ (الذي يوافق ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٧)، وقد استهلها جمال بتذكير جعفر بما أبداه من حماسة في قيادة المجاهدين ضد الانكليز في مصر، ثم أعرب عن اسفه لوقوفه الآن، وبعد أعماله البطولية ضد العدّو، مع الجيش العربي الذي أدت عملياته إلى نجاح الجنرال اللنبي واستيلاء الانكليز على فلسطين التي دافع صلاح الدين عنها. وأضاف جمال انه يعتقد باخلاص جعفر وطيبة عنصره ولذلك فانه يود ان يعرف رأيه في هذه القضية، وأن يجتمع به شخصياً، وأقسم بشرفه أن يمهد لجعفر سبيل العودة سالماً ومكرماً إلى الموضع الذي يأتي منه بعد اجتماعهما.[٣]

ومن الغريب أن جعفر العسكري لم يشر إلى هذه الرسالة في مذكراته على الرغم من أهميتها الكبرى، على أن اهتمام جمال باشا بارسال كتاب خاص إلى جعفر العسكري، إلى جانب كتابيه إلى فيصل وعبدالله، دليل على المكانة المهمة التي كان يحتلها جعفر في الحركة العربية، وعلى علم جمال باشا بذلك، كما أن جعفر العسكري لم يتطرق في مذكراته إلى (تصريح بلفور) الذي صدر في السنة نفسها، وكان له أثره البالغ في زعزعة معنويات الضباط العرب الذين كانوا يحاربون الدولة العثمانية إلى جانب بريطانية وبالتعاون معها.

ويروي جعفر العسكري في فصل آخر عمليات الهجوم على معان، ومحاصرتها، ومرض نوري السعيد الذي كان رئيساً لأركان الجيش وارساله إلى مصر للمعالجة وسفره هو إلى مصر باجازة، ومقابلاته للجنرال اللنبي قائد الحملة البريطانية ـ المصرية في فلسطين، ودعوته إلى بئر سالم لزيارة الجبهة الحربية، وتقليده وسام فارس القديسين ميخائيل وجورج (C. M. G.) وكان جعفر العسكري قد

---

(٣) الترجمة الانكليزية لهذه الرسائل في وثائق وزارة الخارجية البريطانية (الملف رقم F. O. 686/38) وقد نشر الاستاذ سليمان موسى ترجمتها العربية في كتابه المراسلات التاريخية، الجزء الأول، عمان، ١٩٧٤، ص.

حصل في سنة ١٩١٥ على وسام الصليب الحديدي الألماني، فلما منح هذا الوسام ربما كان الشخص الوحيد في التاريخ الذي حصل على هذين الوسامين في وقت واحد.

ثم يصف العسكري حادثة مهمة لا تزال أسبابها غير واضحة تماماً، ولا يمكن تفسيرها إلاّ على سبيل الاستنتاج، وهي اصدار الشريف حسين بياناً في جريدة (القبلة) الناطقة بلسان الثورة العربية بأن « الشيخ جعفر » ليس قائداً عاماً للجيش العربي، بل « أحد رؤساء الأجناد في المعسكر الشمالي الهاشمي، وان اطلاق لقب (القائد العام) عليه مخالف للحقيقة». (٤)

وقد أدى نشر هذا البيان إلى انزعاج فيصل واستقالته كما استقال معه الأمير زيد وحدث نوع من الاعتصاب بين الضباط. أما جعفر العسكري فقد علم بهذا الحادث وهو في طريقه إلى العقبة بعد مغادرته مصر، فأبرق إلى الأمير فيصل عارضاً خدمته بأي صفة كانت لأن الرتب والألقاب ليست من أهدافه.

وقد حدثت هذه الحادثة في الوقت الذي كانت فيه خطط الجنرال اللنبي مستندة إلى حركات الجيش العربي وقطع هذا الجيش السكة الحديد الوحيدة التي تموّن الجيش العثماني في جبهة فلسطين، ولذلك أدت إلى قلق كبير لدى القيادة البريطانية، فتدخل الانكليز لدى الملك حسين للعدول عن هذا القرار، وبعد اتصالات طويلة نشرت (القبلة) بياناً آخر يحمل معنى الغاء البيان الأول، وتسلم جعفر العسكري قيادة الجيش كالسابق.

ويفسر جعفر العسكري هذا العمل من جانب الملك حسين قائلاً: « وأغلب الظن أن بعض الأفاقين تمكنوا من الدس والوشاية عليّ عند جلالته لعدم تمكنهم من الحصول على ما كانوا يبغونه على الملك فيصل ».

واضافة إلى ذلك يبدو أن الحسين كان يتشكك من الضباط بصورة عامة، لما رسخ في ذهنه حول الضباط الاتحاديين الذين قاموا بانقلاب ضد السلطان عبد

---

(٤) أنظر نص البيان في الهامش رقم (٧) من الفصل الثالث عشر من الكتاب.

الحميد، فلما قلد اللنبي الوسام لجعفر وبلغ ذلك اسماع الحسين داخله الغيظ ، ولعله كان يتوقع ان يتم ذلك بعد الاستئذان منه .

وفي الفصل الرابع عشر يتحدث جعفر العسكري عن التحاق عدد من الشبان الوطنيين بمعسكر الأمير فيصل في أبي الأسل قادمين من سورية عبر جبل الدروز(٥) واحتلال معان وانهيار الجيش العثماني. وقد كانت بطولة جعفر العسكري في معارك معان التي انتهت باحتلالها من أهم اعماله ومن أعز ذكرياته. ولذلك فان نجله الأكبر طارق العسكري عندما رزق بولده البكر سماه جعفر معان تخليداً لذكرى والده والمعركة الفاصلة التي قادها في معان.

ومن المعروف أن جعفر العسكري كان يتمتع بشخصية محبوبة، وبروح مرحة وانه كان يحبّ النكتة ويطرب لسماعها. ولذلك لم يفته أن يخصص فصلاً من مذكراته لرواية بعض الأحداث الطريفة والنوادر التي كانت تحدث أثناء العمليات الحربية.

ولما دخلت القوات العربية دمشق تسلّم جعفر العسكري منطقة عمان من الجيش البريطاني ورفع عليها العلم العربي، ثم سافر إلى دمشق، وكان فيها الأمير زيد نائباً عن أخيه فيصل الذي كان قد سافر إلى اوربا لحضور مؤتمر الصلح في باريس، وعين جعفر مفتشاً عاماً للجيش العربي السوري ثم نقل إلى حلب حاكماً عسكرياً بديلاً عن شكري باشا الأيوبي الذي نقلته الحكومة على اثر الاضطرابات التي ثارت بين سكان حلب المسلمين والأرمن، ويصف جعفر العسكري في الفصل السادس عشر من ذكرياته، إقامته في حلب، ونجاحه في تهدئة الأحوال في هذه المدينة السورية الكبيرة، وعلاقاته بسكانها العرب والأرمن، وكذلك بعشائرها المختلفة ورؤسائها.

وبهذا الفصل تنقطع مع الأسف مذكرات جعفر العسكري ولكن أعماله

---

(٥) كان بين هؤلاء المتطوعين الدكتور أحمد قدري، وأخوه تحسين قدري، ورستم حيدر، ورفيق التميمي، وخليل السكاكيني، وسعيد الباني، وسليم عبد الرحمن وغيرهم. وقد وصف أحمد قدري كيفية التحاقهم في مذكراته (أحمد قدري: **مذكراتي عن الثورة العربية**، دمشق، ١٩٥٦)، كما وصفها رستم حيدر في مذكراته التي حققها كاتب هذه السطور والتي ستصدر في بيروت قريباً.

وخدماته للأمة العربية ولوطنه لم تنقطع بل أن حياته امتدت سبعة عشر عاماً أخرى، حافلة بالعطاء، بقي خلالها جعفر العسكري في قلب الأحداث، وكان من أبرز الشخصيات العربية والدولية، ومن أهم مؤسسي دولة العراق الحديثة ومن أبرز صانعي تاريخ العراق الحديث.

ولا شك أن هذه المذكرات، وما تحتويه من معلومات وتفاصيل، وما تسجله من خواطر صاحبها وآرائه وذكرياته، تعطي صورة واضحة عن نشأة فكرة القومية العربية وتطوّرها، ومراحل انتقال مشاعر الشبان العرب ـ المدنيين منهم والعسكريين ـ من الارتباط بالدولة العثمانية، والاخلاص لها، والقتال في صفوف جيشها، إلى الثورة عليها، والانفصال عنها، والعمل لأجل كيان عربي موحّد مستقل في ظل ملك عربي، بعد أن وجدوا قوميتهم مهددة ولغتهم مهملة وتراثهم ضائعاً.

وقد تبدو الأفكار التي أعرب عنها جعفر العسكري في مذكراته للقراء من جيلنا هذا مبسّطة نوعاً ما، وربما ساذجة في بعض الأحيان، بعد أن تطوّر مفهوم القومية العربية من حال إلى أحوال، وتعددت قضاياها وتشابكت مشاكلها ونظرياتها خلال نصف القرن الذي مضى على تدوين هذه المذكرات. ولكن الحكم على أي كتاب من هذا النوع يجب أن يكون على ضوء الزمن الذي كتب فيه والظروف التي كانت سائدة في ذلك الزمن. وقد كان جعفر العسكري يمثل أنموذجاً للشباب العربي الواعي، المثقف، ذي الحسّ المرهف، الذي غامر بمستقبله، وربما بحياته، من أجل فكرة آمن بها، ومثل أعلى اتخذه وسعى إليه. وإذا كان الشباب العربي اليوم قد نشأ على الأفكار والمبادىء القومية والوطنية التي فتح عينيه عليها، ووجدها قائمة منذ نشوئه، كما وجد مدارس فكرية غنيّة بالأدبيات والأبحاث والصحف التي هي في متناوله، ولقّن مبادئها في مقاعد الدراسة وفي محيطه بصورة عامة، فان جيل جعفر العسكري الذي نشأ في ظل الدولة العثمانية، وفي جوّ تركيّ خالص تقريباً، هو الذي توصل باجتهاده إلى الأفكار التي آمن بها وعمل لأجلها بنتيجة شعوره بقوميته، وتعلقه بأمّته وتراثها، ولذلك فانّه كان جيلاً رائداً ومؤسساً، فتح في تاريخ أمّته صفحة جديدة.

ولا يزال هنالك بعض الذين يلومون رجال الثورة العربية على انتفاضهم على الدولة العثمانية ويتهمونهم بخيانتها والتعاون مع أعدائها في ساعة ضعفها خلال

الحرب العالمية الأولى، وكأنّ المفروض أن يثوروا عليها في ساعة قوّتها. إن أولئك الرجال الذين عملوا لأجل استقلال العرب كانوا في البداية مخلصين اخلاصاً تاماً لدولتهم التي جمعت الرابطة العثمانية بين قومياتها المتعددة. وكانوا يدركون ما للدولة العثمانية من فضل المحافظة على الاسلام وكيان المسلمين في المنطقة لعدة قرون ضد المطامع الاستعمارية والحملات التبشيرية، ولم يحملوا أية نوايا انفصالية إلّا بعد أن استولى الاتحاديون على الحكم في أواخر عهد الدولة العثمانية ونادوا بفكرة القومية التركية، إذ شعر أبناء القوميات الأخرى عندئذ أنهم يجب أن يطالبوا بحقوقهم القومية أيضاً.

أما تعاونهم مع دولة أجنبية من أجل تحقيق استقلالهم فقد كان في إطار ستراتيجية مفهومة ومرحليّة، وليس بداع من تفضيل الانكليز على الأتراك. وفي التاريخ أمثلة كثيرة لحركات قومية واستقلالية استعانت في بعض مراحلها بقوى خارجية لتحقيق أهدافها. فالثورة الامريكية والحرب التي شنتها الولايات المتحدة على بريطانية لأجل استقلالها قبل مائتي عام تلقت معونة فرنسية كبيرة كان لها دورها المادي والمعنوي في تحقيق استقلال الولايات المتحدة، ولم يذهب أحد إلى أن الأمريكيين أرادوا إحلال الاستعمار الفرنسي محل الاستعمار الأنكليزي. والثورة البلشفية التي قامت في روسية لم يكن يقدّر لها النجاح أو لعلها كانت تتأخر كثيراً لولا المعونة الأجنبية التي تلقتها في ساعاتها الحرجة. فقد عاد لينين في سنة ١٩١٧ إلى روسية من سويسرة التي كان لاجئاً فيها بقطار مغلق عبر المانية بمعونة الحكومة الألمانية، وحصل البلاشفة منذ ذلك الوقت حتى اغتيال السفير الألماني في روسية عام ١٩١٨ معونة مالية كبيرة من الحكومة الالمانية للانتفاض على الحكومة المؤقتة التي كان يرأسها كيرينسكي. بل ان مصطفى كمال (آتاتورك فيما بعد) عندما تزعّم الحركات الاستقلالية ضد اليونان بعد الحرب العالمية الأولى ساعدت روسية تلك الحركات بالأسلحة والذهب، ثم ساعدتها ايطالية وفرنسة ضد انكلترة بشتّى الوسائل، تارة بصورة سرّية وأخرى بصورة رسمية علنيّة. وإذا ما استعانت احدى الحركات التحررية اليوم بتعضيد الاتحاد السوفييتي أو حصلت على أسلحة أمريكية أو صينية، فلا يدل ذلك على رغبتها في أن تكون خاضعة لهذه الدولة أو تلك، وانما هي تستعين في وقت الشدة بأية جهة تجد لديها استعداداً لمساعدتها.

أما أن حلفاء العرب تنكروا لوعودهم وأخلّوا بعهودهم فتلك مسألة أخرى، وحسابها بين العرب وبينهم، وهي ان دلّت على أخطاء في الحساب والتقدير، ومبالغة في الثقة دون الحصول على الضمانات الكافية، فانها لا تشكّل مطعناً في الهدف الذي قامت الثورة لأجل تحقيقه.

***

وقد وجدت بين أوراق جعفر العسكري بحثاً كتبه بعنوان «النهضة العربية والعوامل التي تقدّمتها» وهو يشكل جزءاً متمماً لمذكرات العسكري، عرض فيه تطور الحركة العربية منذ بدايتها، وشرح أهدافها، والظروف التي حملت العرب على الثورة، وموقف الاتحاديين منهم، ودور الجمعيات السرّية العربية، وتفاصيل مهمة عن تأسيس جمعية العهد، إضافةً إلى آرائه في الفكرة القومية العربية بصورة عامة. ولذلك أضفت هذا البحث إلى آخر الكتاب إكمالاً للفائدة.

ورأيت من المفيد أيضاً، وقد انقطعت مذكرات العسكري تاركة مرحلة طويلة ومهمة من حياته دون أن تدوّن، أن ألحقها بسرد موجز لسيرته منذ الوقت الذي توقفت عنده، وهو سنة ١٩١٩ حينما كان حاكماً عسكرياً في حلب، حتى مصرعه بيد رجال بكر صدقي في سنة ١٩٣٦ إكمالاً لقصة حياته الحافلة، وذلك اعتقاداً منّي بأن القارىء الذي تابع هذه المذكرات سيرغب حتماً في معرفة بقية أعماله وصفحات حياته حتى نهايتها. وقد راعيت الاختصار في تدوين هذا العرض لأن سيرة جعفر العسكري التالية، على الرغم من أنها لا تقلّ في أهميتها وعطائها عن مراحلها الأولى، وردت بتفاصيل وافية في كتب عديدة أخرى، بينها أطروحة جامعية نشرت في بغداد[٦]، اضافة إلى معلومات وافية تضمنتها كتب ودراسات كثيرة صدرت خلال نصف القرن الماضي[٧]. ولا شكّ أن نشر مذكرات جعفر العسكري التي دوّنها بنفسه سيكون

---

(٦) علاء جاسم محمد، **جعفر العسكري ودوره السياسي والعسكري في تاريخ العراق حتى عام ١٩٣٦**، بغداد، ١٩٨٧.

(٧) ومن أحفلها بالمعلومات عن جعفر العسكري **شخصيات عراقية** لخيري العمري (بغداد، ١٩٥٥)، **وتاريخ الوزارات العراقية** لعبد الرزاق الحسني (الأجزاء الأربعة الأولى، بيروت ١٩٨٢)، **وخواطر وأحاديث في** =

اضافة مهمة بل مصدراً رئيسياً عن سيرته في الفترة المبكرة من حياته، وعن الثورة العربية، يحتوي على معلومات جديدة وصور حيّة.

إن المسودات التي تركها جعفر العسكري لم تكن فيها أية هوامش، وجميع الهوامش التي يجدها القارىء أضافها كاتب هذه السطور، وهو المسؤول عن المعلومات التي تتضمنها، ومعظمها تعريف بالشخصيات التي يرد ذكرها في المذكرات، وهي شخصيات كانت معروفة في زمانها ولكن بعضها لم يعد كذلك، وخاصة بالنسبة للقراء من الأجيال التالية. ولذلك وجدنا من المفيد تقديم نبذة عن أهمها تسهيلاً لمتابعة الموضوع.

وأضفنا إلى المذكرات أيضاً بضعة ملاحق وأدناها جديرة بالنشر معها، أولها جواب جعفر العسكري عن المذكرة التي كتبها الملك فيصل الأول وسجل فيها آراءه وأفكاره عن أحوال العراق ومستقبله بمناسبة عقد المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٣٠ وقرب انتهاء العراق إلى «عصبة الأمم». وقد أعطى الملك فيصل نسخاً من هذه المذكرة إلى عدد محدود من الساسة والوزراء طالباً إليهم إبداء ملاحظاتهم عليها بصراحة. ولما كانت مذكرة العسكري الجوابية تتضمن بطبيعة الحال إشارات إلى مذكرة الملك بحيث لا يمكن فهمها تماماً دون الرجوع إليها، وجدنا من المفيد نشر مذكرة الملك مع جواب العسكري ـ على الرغم من أنها منشورة في كتب أخرى ـ تسهيلاً للقارىء. أما جواب العسكري فينشر في كتاب للمرة الأولى.

أما الملحق الثاني، فهو كتاب شخصي من الملك فيصل إلى جعفر العسكري أرسله من لندن بتاريخ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٧. وكان جعفر في ذلك الوقت رئيساً للوزراء، وقد سافر إلى لندن مع الملك للمذاكرة مع الحكومة البريطانية، بشأن

= **التاريخ** لكاتب هذه السطور (بغداد ١٩٨٣)، **وأعلام السياسة في العراق الحديث** لمير بصري (لندن، ١٩٨٧)، **وجوه عراقية** لتوفيق السويدي (لندن ١٩٨٨)، **والحركة العربية** لسليمان موسى (بيروت ١٩٧٠)، وكذلك مذكرات الساسة العراقيين. وبالانكليزية **أعمدة الحكمة السبعة** للورنس، **و رسائل غيرترود بل**. والواقع أن جميع المؤلفات الصادرة عن الثورة العربية وتاريخ العراق الحديث وسيرة الملك فيصل الأول تتضمن معلومات وفيرة عن جعفر العسكري وإشارات كثيرة إليه.

تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية والاتفاقيات الملحقة بها، وقد تناولت المفاوضات موضوع عضوية العراق في عصبة الأمم، واطلاق يد العراق في ادخال نظام التجنيد الاجباري، وغيرها من المسائل المعلقة. وكان فيصل متمسكاً بالنص على مبدأ «الاستقلال التام» في المعاهدة الجديدة في حين أن الوفد البريطاني كان يرفض المقترحات العراقية. وبعد مفاوضات دامت شهرين تقريباً وجد الوفد العراقي أنها لن تصل إلى نتيجة، فقطعها وغادر رئيس الوزراء جعفر العسكري لندن عائداً إلى العراق، ولكنه تلقى وهو في العراق برقية من الملك يدعوه فيها إلى العودة في الحال. ولما وصل إلى بورت سعيد وجد مع البرقية كتاباً أملاه الملك فيصل على رستم حيدر يعلمه فيه بالتطورات التي حصلت بعد مغادرته، ويطلب إليه توقيع المعاهدة حسب النص الذي اتفق عليه مع الجانب البريطاني ويتضمن هذا الملحق صورة الكتاب الأصلي بخط رستم حيدر وتوقيع فيصل، وهو يدل على مدى الثقة والمودة اللتين كان يحظى بهما جعفر العسكري من الملك.

والملحق الثالث يحتوي على وثيقة بريطانية، وهي مذكرة أعدت في وزارة الخارجية قبل مقابلة جعفر العسكري مع وزير الخارجية البريطاني لتوديعه عند استدعائه إلى بغداد للمرة الأخيرة، حيث عيّن عضوا في مجلس الأعيان، ثم اشترك في وزارة ياسين الهاشمي الثانية وزيراً للدفاع. وقد أعدّ المذكرة المستر جورج رندل، مدير الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية، وضمّنها نبذة عن حياة جعفز العسكري لاطلاع وزير الخارجية. وتتضمن الوثيقة أيضاً خلاصة لما دار خلال زيارة العسكري للمستر رندل نفسه فيما بعد. وقد نشرنا أصل الوثيقة البريطانية مع ترجمتها العربية.

أما الملحق الأخير فهو صورة النعي الذي نشرته جريدة التايمس اللندنية الصادرة بتاريخ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ لجعفر العسكري مع ترجمته العربية أيضاً، فيه عرض عام لسيرته وتقييم لأعماله.

***

وأرى من واجبي أخيراً أن أكرر شكري وامتناني للأستاذ جعفر طارق العسكري على اتاحته لي هذه الفرصة لتحقيق هذا الكتاب واعداده للنشر، ثم على ما

أبداه من آراء وملاحظات مفيدة في كافة مراحل العمل. وكان ذلك دليلاً على مدى تقديره لأهمية هذه المذكرات، اضافة الى ما فيه من آيات الوفاء لذكرى جدّه، وحرصه على تخليدها بما تستحقه من عناية.

وكذلك أسجل شكري للمؤرخ الكبير الأستاذ سليمان موسى الذي تفضل بقراءة مسودة المذكرات وجزء من مقدمتها بكل اهتمام، وأبدى عليها ملاحظات قيّمة وتصحيحات مهمّة أزالت كثيراً من شوائبها.

ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه المساعدات الكريمة، فإن ما تبقّى في الكتاب من هفوات أو نواقص، تقع تبعتها على كاتب هذه السطور وحده.

وانني أزجي هذه المذكرات وكلّي ثقة ورجاء بأنها ستضيف الى المكتبة العربية كتاباً فيه كثير من المتعة والفائدة للباحث المتخصص والقارىء العام على السواء، وتكون وسيلة لتخليد ذكرى شخصية فريدة في تاريخنا الحديث، ورجل قدّم لأمّته وبلاده خدمات لا تنسى.

الفصل الأوّل
مغادرة الموصل

في صبيحة يوم غائم ماطر ركبنا أنا وأخي هادي وخادمنا جمعة «كَلَكاً»[1] من مدينة الموصل، أمّ الربيعين، كان الناس هناك يترقبونه بفارغ الصبر لأن القيعان في شمالي العراق أراض «ديم» يتوقف ريّها على الغيث الذي تجود به السماء في مواسم معينة صالحة لسقي المزروعات، مصدر حاصلات البلاد وسبب رزق السكان. لذلك إذا صادف أن انحبس المطر في سنة من السنين عن موعد هطوله خرج الناس على اختلاف مللهم ونحلهم إلى خارج المدن والقرى يبتهلون إلى الله عزّ وجلّ ليرفق بهم فينزل شآبيب أمطاره عليهم، لاحياء موات الأرض، ودفع غائلة القحط والجوع عنهم.

ومع شعورنا نحن الثلاثة بشدة حاجة الأرض إلى ماء يرويها كنا متذمرين من نزول المطر، وقلقين بعض القلق، خوفاً من الخطر الذي يحتمل أن يداهمنا إذا اشتدّ هطول الأمطار وزادت مياه دجلة الطاغي الذي لا يُركن إلى ركوب متنه القوي في ذلك الموسم، ونحن على «كلك» صغير لا يُعتمد على قرباته المنفوخة العائم عليها، لأن متانتها لم تكن على ما يرام. لذلك كانت عين جمعة الخادم الأمين ساهرة علينا سهر أم حنون على رضيعها، فلم يغفل عن مراقبة «الكلك» وما حولنا لحظة.

وجمعة هذا جندي قديم محنّك اشترك مع المرحوم والدي في الحرب الروسية ـ التركية سنة ١٨٧٧، وظل مقيماً على خدمة والدي مخلصاً له منذ ذلك الحين.

---

(١) هو «الرمث» المعروف بهذا الإسم في العراق.

تركت مدينة الموصل وأبي طريح الفراش فيها يقاسي آلاماً مبرحة من إصابته بالدملة الخبيثة المعروفة بفرخ الجمرة[٢] (أو «الشيرينجه» على ما يسميها العراقيون نقلاً عن الفارسية) حتى انتهى به ذلك الداء العضال إلى الانتقال إلى رحمته تعالى بعد بضعة أشهر بيد حلّاق كان يجري العمليات الجراحية يومئذ في مدينة الموصل.

إن قسوة الطبيعة المقترنة بالحزن الشديد لفراق الوالدين العزيزين جعلتني أنظر إلى كل شيء حولي في وحشة تلك السفرة الشاقة بعين سوداء ملؤها الغم والكمد، وأشعر بنفس يساورها الهم والقلق فأرسل الحسرات الحرىّ من آونة إلى أخرى، ومع ان جمال الطبيعة الذي يتجلى في فصل الربيع في وادي دجلة بين الموصل وبغداد مما يبهج النظر ويملأ الصدر جذلاً وحبوراً، ومناظر القرى المنتشرة على ضفّتي دجلة المكتسيتين حلة خضراء قشيبة تزيّنها أزهار جميلة في مختلف الوان الطبيعة. هذا وان منظر الكهوف الصغيرة المطلة على النهر السريع في جريانه، كأنها جبابرة من الجان فاغرة فاها لتحسو ماء دجلة العظيم، لمما يحمل المرء إلى عالم آخر غير عالمه، فيشعر بالخيالات الجميلة والصور تمر أمام عينه مرّ الصور السينمائية الخاطف.

كان السبب الذي حمل المرحوم والدي على إرسالنا إلى بغداد إدخالنا المدرسة العسكرية هناك لعدم وجود مدرسة عسكرية في الموصل.

ابتعدنا عن المدينة على ظهر «كلكنا» المنساب مع تيار دجلة فوصلنا إلى نواحي «حمام العليل» المشهور بمياهه المعدنية الكبريتية والزفتية، والمتخذ محلاً لاستشفاء المصابين بالأمراض الجلدية والعصبية.

ويؤم هذا الحمام المشهور الوارد والشارد على اختلاف الطبقة والمسلك، أملاً في الشفاء، مهما كان نوع الداء، ولكن عدم الانتظام، والشروط غير الصحية السائدة هناك، كانت تجعل خطر انتقال الأمراض أكبر من الفائدة المنتظرة من الاستشفاء في الحمام.

وكانت سلوانا الوحيدة في الطريق محادثة جمعة والاصغاء إلى حكاياته عن

---

(٢) فرخ الجمرة: مرض جرثوميّ يصيب الماشية ومنها ينتقل إلى الإنسان وإسمه بالانكليزية: .Anthrax

الحرب الروسية، والأساطير والقصص التي كان يرويها لنا من حين إلى آخر لقتل الوقت وترويح النفس من عناء السفر. ومن حسن الحظ أن «الكلك» كان يحمل كمية من الفواكه اليابسة اللذيذة التي ترسل عادة من الموصل إلى بغداد بهذه الواسطة النقلية البدائية. أما الكلك نفسه فهو مؤلف من المواد التالية:

قرب منفوخة، ومربوط بعضها ببعض، بحيث تكون سطحاً مستوياً طوله على الغالب نحو ٨ أمتار، وعرضه ٦ أمتار، وتوضع على طبقة القرب أعواد طولها بطول الكلك وقطرها نحو أربع أو خمس عقد. وتوضع على هذه الأعواد أغصان شجر يابسة أو ألواح من الخشب، فتوضع عليها أكياس القمح الذي يكثر محصوله غالباً في مدينة الموصل. وتكدس على أكياس القمح أكياس الفستق والجوز والكشمش والزبيب والتين اليابس وغيرها. وكانت هذه الحمولة أيضاً تلهينا لأنني، أنا وأخي، كنا نلتقط أحياناً الفواكه التي تخرج من بين نسيج الأكياس الواهي.

استغرقت سفرتنا نحو سبعة أيام، إلى أن وصلنا إلى بغداد مارّين بالشرقاط المشهورة بينابيع النفط، حيث تجري فضلاته إلى دجلة، والحكومة العثمانية غافلة عنها لا تعرف قيمة هذه الثروة الطائلة المخزونة. وقبل وصولنا إلى تكريت بتنا ليلة بالقرب من كهف مطل على دجلة، وكان الظلام دامساً، فأحببنا أنا وهادي أن نذهب لمشاهدة ذلك الغار، ولكن المياه كانت غامرة مدخل الكهف، فطفق جمعة حينئذ يقص علينا قصة الكهف وما جرى في سالف الزمن. وذلك أن رجلاً يسمى «حسين النمنم» كان يتجول بجوار الكهف، فأختطفته السعلاة المسماة «بنت البحر» وعاشت معه في الغار مدة من الزمن، فولد لهما أولاد. وفي فرصة سانحة تمكن حسين النمنم من النجاة من هذا السجن الغرامي المفروض عليه فرضاً رغم أنفه. وبعد ذلك غضبت السعلاة فقتلت الأولاد، وهجرت ذلك الكهف إلى الأبد، ولما فرغ جمعة من حكايته كان ملاحو الكلك أحضروا لنا العشاء، فتعشينا ونمنا في الفرش الصغير المهيأ لنا في الكلك، ونحن نحلم بالسعلاة وأولادها ضحايا غرامها.

السفر إلى الاستانة ودخول المدرسة الحربية

دخلت المدرسة العسكرية في بغداد. ثم انتقلت إلى المدرسة الحربية في الاستانة فتخرجت منها ضابطاً في سنة ١٩٠٤ وكنت بلغت حينئذ من العمر تسع عشرة سنة.

كان السفر من بغداد إلى الأستانة في ذلك الزمن شاقاً جداً، ذلك لأننا كنا نسافر على ظهور البغال والخيل آخذين معنا كل ما نحتاج إليه في السفر من الزاد والخيم. وكان الطريق ممتداً على طوار[٣] نهر الفرات، وكانت المرحلة الواحدة تستغرق من ثماني ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة، وهي مسيرة كل يوم. وبعد ذلك السفر المضني الممل وصلنا إلى ميناء اسكندرونة حيث يكون السفر منها بحراً إلى الاستانة. ومع أن سفرتنا استغرقت أربعة وأربعين يوماً فأننا لم نسترح سوى أيام قلائل في حلب. والحقّ أن هذه السفرة كانت ذات فائدة كبيرة إذ مهّدت لنا السبيل للتعود على احتمال المشاق العسكرية قبل دخولنا المدرسة الحربية، وهي تجربة لا بأس بها. وفي خلال هذه السفرة اطلعنا على جوانب لا يستهان بها من أحوال البلاد العثمانية دون ان نتكبد لأجلها نفقات خاصة.

ومما لفت نظري في هذه السياحة نواعير هيت[٤] العالية التي تسقي البساتين بأساليب بدائية بالطاقة المستمدة من قوة جريان الماء. والناعور دولاب كبير تربط به أكواز فخار يسع الواحد منها لترين من الماء تقريباً، وبقوة الجريان يدور الدولاب فتمتلىء هذه الأكواز ماء، فيرفع ذلك الماء إلى المستوى اللازم، ويصب في قناة مرتفعة تجري إلى الأماكن المطلوبة.

وصلنا الاستانة ودخلنا «المدرسة الحربية»، وكانت الرقابة على الطلاب شديدة جداً، والرقباء هم جواسيس السلطان عبد الحميد. وكان من شدة تلك الرقابة أن قراءة الصحف اليومية كانت تعدّ جريمة كافية لطرد الطالب من المدرسة.

وكنا مدة بقائنا هناك نتدرب تدريباً عسكرياً لا يتيح للطالب اكتساب جميع صفات القيادة. وكان الرمي الحقيقي بالبندقيات ممنوعاً. فكنا نتعلم التصويب والتسديد ببندقيات قديمة. وكانت إدارة المدرسة، بسبب كثرة الوقت المتيسر لنا، تفرض علينا دراسة موضوعات لا علاقة لها بالثقافة العسكرية على الاطلاق مثل علوم

---

(٣) الطوار: ما كان بحذاء الشيء وعلى حذّه.

(٤) «هيت»: مدينة عراقية قديمة في لواء الدليم (محافظة الأنبار حالياً) على نهر الفرات، تبعد عن بغداد حوالي ١٨٥ كيلومتراً، اشتهرت بنواعيرها وعيون «القار» المحيطة بها والمعروفة منذ أيام البابليين.

الفصل، والعقائد الدينية، وعلم الكلام وما شابه ذلك من العلوم التي كانت تضيع وقت معظم الطلبة دون أن يفهموا شيئاً منها البتة، لأن الأساتذة أنفسهم كانوا من الضباط العسكريين، وكان تصديهم لتدريس مثل هذه الموضوعات تطفلاً منهم، أكثر منه تخصصاً فيها. ومع ذلك كانت المعلومات النظرية العسكرية التي نتلقاها لا بأس بها على العموم. ولكن عند انخراطنا في سلك الوحدات العسكرية في الجيش كان الكثيرون منا يدخلون الحياة العملية العسكرية ويتحملون قسوة المعاملة، وضنك العيش، ومشاق الحروب الصغرى المستمرة طيلة حياتهم عهدئذ. ولا سيما في «روم إيلي» (الولايات العثمانية الأوروبية) وفي الولايات والمناطق العربية والكردية.

سوء الإدارة الحميدية

كانت تلك الايالات العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في اضطراب مستمر، وما كان في ميسور الحكومة جباية الضرائب في كل سنة دون تجريد حملة عسكرية. وكان الفقر شاملاً الجميع بسبب سوء الإدارة والإهمال، ذلك لأن السلطان عبد الحميد كان يفكر في صيانة حياته من الاعتداء، ويتوسل بجميع الوسائل لتقوية نفوذه وماليته الخاصة فقط. وكانت الرواتب والمعاشات لا تدفع إلاّ في شهور قليلة من السنة. وأتذكر جيداً أنه بعد خدمة أربع سنوات في الجيش العثماني. وإلى قبيل إعلان الدستور، تراكمت لي رواتب ثلاثين شهراً من ثمانية وأربعين شهراً. ولم تكن الرشوة معدودة من الرذائل والمخازي يومئذ. فكان الضابط يتوسل إلى آمريه في المناطق الإدارية التي تجرد عادة حملات عسكرية لجمع الضرائب، طالباً تعيينه في تلك الحملات ليتمكن من جمع المال الكافي من الأهلين، وذلك نظراً لتأخير بيت المال في دفع الرواتب. وكان الضباط يرددون هذه العبارة فيقولون للآمر: «لقد تأخر الراتب، وفي الدار أولاد وعيال، والعيد على الأبواب، فنرجو تعييننا في الحملة المسافرة إلى المحل الفلاني».

واشتركت في أحدى هذه الحملات بنفسي، وأرسلت إلى قضاء «السماوة» مع فوجي، فأعطاني مدير مال القضاء قائمة بأسماء المدينين من عشيرة الصفران، وهي رسوم أغنام متأخرة بناء على دعوى مأمور المال. فذهبت إلى رئيس العشيرة ومعي خمسون جندياً، وطلبت إليه أن يسلم الضرائب المتأخرة. فكان جوابه أن ذلك ليس

ميسوراً لأن العشيرة مضربة عن دفع الضرائب، ولكنه لا يتأخر عن مساعدتي إذا أردت جمع المال بنفسي توّا. فقبلت ما عرضه عليّ ووزعت الجنود على أفخاذ العشيرة. وأعطيت كل ضابط صف قائمة بالضريبة المستحقة على كل فخذ من الأفخاذ. أما أنا فقد أخذت معي عشرة جنود، وذهبت إلى ضفة النهر لأبيت ليلتي هناك، ولأجمع ما أتمكن جمعه من الضرائب من أهل «الكرود»[٥]. فبتنا في كرد هناك في ضيافة صاحبه. فذبح لنا ذبيحة وأضافنا بما تيسر له. وفي الصباح طلبت إليه أن يدفع الضريبة من عشرة نعاج لم يدفعها في العام الماضي. فأكد لي أن ليس عنده سوى الحَمَل الذي ذبحه لنا ليلة أمس، وأنه مستعد لمقابلتي بالسلاح مع أبنائه الأربعة، فاما أن يهلك ويخلص، وأما أن يهلكنا فيتخلص منا. فأثر ذلك تأثيراً شديداً في نفسي، ولم أتأخر لحظة عن الإرسال في طلب المفارز الصغيرة التي وزعتها على أفخاذ العشيرة، ورجعت من فوري إلى دار الشيخ، وطلبت منه أن يبين لي كيف يجرأ بعرض أسماء أشخاص على الحكومة وهم غير مدينين لها. وبعد التهديد والوعيد والكلام الطويل صرح لي بأن العادة جرت بأن يطلب مأمورو المال من الشيوخ أموالاً كثيرة بحجة تقديمها إلى المتصرفين والولاة، ويدّعي هؤلاء بدورهم أنهم يقدمونها إلى الاستانة، وبغير ذلك لا يستطيع أن يلتزم مقاطعة من الدولة. فدهشت لتصريحه هذا لأنني لم أعلم بذلك من قبل. وهذا أول اختباري في الحياة العملية بعد تخرجي من المدرسة الحربية بسنة واحدة. وكان قائد القوات العسكرية يوسف باشا رجلاً شريف النفس عفيفها، وكان يمتّ إلى المرحوم والدي بصلة صداقة قديمة، ويبدي من حين لآخر عطفاً عليّ. وكان مقرّه في السماوة يومئذ. فذهبت إليه توا، ورويت له الحادثة بحذافيرها. فابتسم وقال لي: «لا تدهش ولا تغضب لأني سأعاقب مأمور المال عقاباً شديداً على عمله هذا» وفعلاً كف يد مأمور المال عن الوظيفة.

وقبل مغادرتي السماوة وقع لي حادث غريب في بابه يدل على نظرة أصحاب المصالح إلى موظفي الدولة. ذلك أن الأوامر صدرت إليّ بأن أجمع عدةسفن شراعية لنقل مدّخرات الجيش إلى الجنوب. فتمكنت من جمع خمس «مهيلات»[٦]. فجاءني

---

(٥) الكرود: جمع «كرد» وهو وسيلة بدائية لنقل المياه من النهر وإيصالها إلى البساتين والمزارع.

(٦) المهيلات: جمع مهيلة، وهي سفن شراعية عراقية كبيرة.

صاحب إحدى هذه السفن، وأراد أن يكلمني على انفراد، وقبل البدء بالحديث مد يده اليّ ليناولني صرّة صغيرة، ففتحتها فوجدتها محتوية على خمسة مجيديات[٧] فسألته «ما هذا؟» فأجابني «نرجو أن تعفينا لأن لنا عقوداً مستعجلة لنقل الطعام، وهذه هدية نهديها إليكم لتطلقوا سراحنا. والسفن كثيرة يا محفوظ».

فأرجعت النقود إليه وقلت له «هذا شيء لا يمكن قبوله لأنه مخالف للقانون» فرأيته مستغرباً كلامي. فعاد بالدراهم ورجع إليّ بعد هنيهة حاملاً ضعفها. فغضبت عليه ودفعته بيدي وهددته بقولي: إذهب وإلا حبستك وأهنتك إهانة شديدة». فقال «لا ألومك يا بك لأنك شاب وقليل الخبرة في الحياة. فنحن دائماً نتخلص من السخرة بربع هذا المبلغ».

إن امثال هذه الأمور كانت تجعل الموظفين قليلي النزاهة، وتجعل الأهلين قليلي الثقة بأولي الأمر الذين يديرون شؤونهم، ولم أبق في السماوة بعد ذلك سوى بضعة أسابيع رجعت بعدها إلى بغداد، حيث عينت معلماً في المدرسة العسكرية.

حملة القصيم

ولا بد لي هنا من ذكر حملة القصيم التي اشتركت في قسم منها مع وحدتي.

وفي سنة ١٩٠٥ نشب القتال بين ابن سعود أمير الرياض، وابن رشيد أمير القصيم. فطلب أمير القصيم مساعدة الدولة العثمانية على خصمه أمير الرياض. فجردت الحكومة حملة عسكرية من بغداد بقيادة الزعيم[٨] (الميرآلاي) شكري بك. ولكن الحملة نكبت بخسارة فادحة. وقتل أمير القصيم عبد العزيز الرشيد في وقعة من الوقائع التي نشبت بينه وبين خصمه، وعلى أثر هذا الحادث أمر الباب العالي بتجريد حملة قوية بقيادة المشير أحمد فيضي باشا التتري، وكانت الحملة مؤلفة من ستة أفواج مشاة، وبطرية مدفعية، وكتيبة خيالة. وكان المشير أحمد فيضي باشا ذا شخصية

---

(٧) هي الليرة الذهبية التي صدرت في عهد السلطان العثماني عبد المجيد وتحمل طرته.

(٨) الزعيم: الرتبة العسكرية المستعملة في الجيشين العراقي والسوري قبل تغييرها إلى «عميد» والتي تقابل رتبة (Brigadier) باللغة الانكليزية.

خطيرة وكان له صيت عظيم في ولاية اليمن بسبب توغله في الحروب الأهلية ضد اليمانيين سنين طوالاً. وكان اليمانيون يلقبونه بأبي فاطمة رمزاً إلى شجاعته ونفوذه.

تحشد الجيش في النجف الأشرف في أواخر سنة ١٩٠٥، وبدأ المشير يطلب الأمراء والقادة واحداً تلو الآخر ويأمرهم بالتهيوء للسفر معه. ولم يكتف بذلك. بل كثيراً ما كان يطلب من أصحاب النفوذ والأغنياء مرافقته في تلك الحملة التي جردها، ولكن بعد مدة قليلة تمكن جميع أولئك من التملص بأساليب شتى، فمنهم من تخلص بتقديم الهدايا، ومنهم من تبرع بالمال لإعانة الجيش، وعاد جلب أولئك الأشخاص بفائدة لا تنكر على جيبه وعلى جيشه معاً. وكان بعض الضباط الكبار قد تأخر عن اللحاق بالمشير في النجف، فاضطر إلى مرافقة الجيش حتى آبار «واقصة» التي تبعد ست مراحل عن النجف، وموقعها بين النجف وحائل على طريق الحج المعروف بطريق زبيدة.

وفي واقصة رأيت أحد أولئك الضباط، وكان برتبة زعيم (ميرآلاي) جاعلاً خيمته دكاناً يبيع فيه زاده الخاص للطريق، كالفاصوليا واللحم المقدد والزبيب والجوز والتمر والسمن الخ باسعار جداً فاحشة. ولما انتهى من البيع قال «ان ما دفعته إلى المشير كان أقل من ربحي في هذه الصفقة». وعند تقدم الجيش في زحفه إلى القصيم رجع صاحبنا الزعيم الميرآلاي البقال ظافراً إلى الوراء.

كانت القبائل الرّحل من الضفير في ذلك الحين غير موالية للدولة العثمانية على ما يظهر. ولما كانت آبار واقصة من المراكز التي يؤمّها البدو بلا انقطاع، اضطر المشير إلى ان يترك فوج مشاة وكتيبة خيالة هناك، بقيادة أمير اللواء يوسف باشا الجركسي، وزحف متقدماً إلى القصيم مع باقي قوته.

وفي أثناء اقامتنا في واقصة كنا نحتطب بجوار المعسكر للحصول على وقود للجيش، وفي ذات يوم كنت مع ثلاثين جندياً من سريّتي على مسافة عشرة كيلومترات من المعسكر، وإذا بأربعة من فرسان البدو، تجدّ في أثرهم كوكبة فرسان يقدر عددهم بعشرة على مسافة كيلومترين تقريباً، مسرعين نحونا. ولما اقترب الفرسان الأربعة على مسافة مائة متر تقريباً أوقفتهم بإشارة فأتاني واحد منهم وقال «أنا دخيل الدولة»

فسألته: «من أنت يا هذا؟» فأجاب بأنه «متعب بن فهد الهذال»، وأن قسماً من خصومه الضفير جادون في أثره ليفتكوا به. فقلت له أنت في أمان. وبعد أن اقترب السرب منا على مسافة أربعمائة متر تقريباً. أمرت الجنود باتخاذ وضع الرمي. فلما رأى أولئك المغيرون حركتنا قفلوا راجعين عنا. وأتينا بمتعب وجماعته إلى المعسكر. فاستضافه القائد يوسف باشا. وفي الليل تسلل مع جماعته إلى عشيرته.

وبعد وصول المشير إلى حائل رجعت جماعة ابن سعود إلى محلاتها، فهدأت الحال بعض الهدوء في القصيم.

ودعي المشير [أحمد فيضي باشا] إلى السفر إلى اليمن مرة أخرى بسبب اضطراب الأمور في ذلك القطر العربي. وبعد ستة أشهر صدر إلينا الأمر بالرجوع إلى النجف والسفر إلى الدغارة[٩]، نظراً لتمرد بعض العشائر هناك.

وصلنا إلى النجف ونحن في حالة يرثى لها من الضعف والفاقة وقلة الغذاء. وبعد مدة قصيرة غادرنا إلى الديوانية، ومنها إلى الدغارة، حيث عسكرنا. وكان ذلك سبباً لإعادة العشائر إلى السكينة. وكانت حركة الجيش تجري بسرعة حقاً. مع أن وسائط النقل المنظمة لم تكن متوفرة لدينا فمثلاً: عند ذهابنا إلى القصيم أعطي كل جنديين جملاً واحداً، وبعد ستة أشهر لم يبق عندنا سوى خمسين جملاً للفوج كله، وذلك نظراً إلى عدم العناية بها وقلة غذائها، لأن الوسائل كانت ناقصة، وكنا نديرها بصورة مؤقتة.

* * *

وبقيت في المدرسة العسكرية مدة سنة ونصف تقريباً، ثم رجعت إلى وحدتي الجديدة في العمارة حيث اجتمع جانب كبير من الجيش السادس أيضاً بقيادة يوسف باشا. لاخضاع القسم الثائر من «بني لام» و «البو محمد» المنشقين على بعضهم، متنازعين من أجل الرئاسة والتزام الأراضي الأميرية. فاستغرقت الحركات العسكرية

---

(٩) «الدغارة»: ناحية في لواء (محافظة) الديوانية تابعة لقضاء «عفك» وهي تبعد عن النجف بحوالي ٧٠ كيلومتراً.

مدة من الزمن، وكانت الحرب سجالاً بيننا وبين العشائر التي كانت تارة تتغلب علينا وطوراً تتغلب عليها. وكان الجنود أشد قسوة من العشائر حين الظفر. وهذا مما يظهر لنا طبائع العشائر، فإنها كانت دائماً تهاب الدولة ولا تريد أن تكون سبباً لإثارة عاطفة الانتقام في نفوس رجال الجيش. ولما كانت معدات العشائر غير كافية للاستمرار على القتال مدة طويلة فقد اضطرت إلى التسليم بعد انهزام رؤسائها إلى أماكن مجهولة. فأحلت الحكومة محل أولئك الرؤساء رؤساء جدداً من أبناء عمهم، فكان نصب رؤساء بني لام والبو محمد الجدد، وخلع أبناء عمهم موافقاً ليوم خلع السلطان عبد الحميد ونصب السلطان محمد رشاد في الاستانة، على أثر حادثة نيسان سنة ١٩٠٩[١٠].

(١٠) حادثة نيسان: على أثر قيام الحركة الرجعية المناوئة للدستور في استانبول، زحف من سلانيك قائد الجيش الثالث، محمود شوكت باشا ـ العراقي في الأصل ـ على رأس جيشه، ودخل العاصمة في ٢٤ نيسان ١٩٠٩، وأنقذ الدستور، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني (أنظر نبذة عن محمود شوكت باشا في الصفحة ٤٨).

الفَصْلُ الثّاني

في المانيّة

على أثر إعلان الدستور في تموز ١٩٠٨ انتظمت شؤون الأمبراطورية العثمانية بعض الانتظام، فبدأت الحكومة بدفع الرواتب والمخصصات في مواعيدها وتحسنت حالة الجيش تحسناً محسوساً، وعين ناظم باشا قائداً للجيش ووالياً على بغداد، واستصحب معه إلى العراق هيئة عسكرية راقية لتنظيم الجيش والإدارة. وكان محمود شوكت باشا حينئذ وزيراً للحربية في الاستانة، وهو الذي بدأ بإصلاح الجيش من جميع الوجوه. سواء أكان ذلك بإكمال المعدات والتجهيزات أم في مجال التدريب والتعليم، وأرسلت بعثات عسكرية من الضباط الذين اختيروا بطريقة المسابقة إلى المانية، وكنت أنا في جملة اعضاء البعثة الأولى التي أوفدت إلى تلك البلاد سنة ١٩١٠، وكنت يومئذ ملازماً أول في فوج الأعظمية. وفي الوقت ذاته فاز الملازم نوري السعيد الذي كان في الفوج عينه في مسابقة دخول مدرسة الأركان الحربية في الاستانة.

أمضيت سني ١٩١٠ و ١٩١١ و ١٩١٢ في المانية، فقضيت بضعة أشهر في برلين، ثم في كردوس[1] «الغرينادير» في (كارلسروه) عاصمة (بادن). ولا حاجة إلى ذكر ما كان عليه الجيش الالماني حينئذ من هيبة وصيت بين جيوش العالم، فقد

---

(١) كردوس: وحدة عسكرية تقابل (Regiment) وكان هذا الإسم مستعملاً في بداية تأسيس الجيش العراقي وإدخال المصطلحات العسكرية العربية ثم أهمل واستعمل بدله مصطلح (كتيبة).

كانت البعثات العسكرية توفد من جميع الحكومات تقريباً إلى الجيش الالماني للاستفادة من رقيه العسكري.

وصلنا إلى برلين فكان في استقبالنا أنور بك (الذي أصبح بعد ذلك أنور باشا وزير الحربية العثمانية وقائد الجيش العثماني إبان الحرب الكبرى)[٢] الملحق العسكري في سفارة برلين، فبين لنا السلوك الذي يجب أن نسلكه مدة بقائنا في عاصمة المانية، وكان خير مرشد لنا في الأمور التي كنا نستشيره فيها. وغني عن البيان أننا شعرنا في هذه العاصمة الكبيرة بأعجاب كبير بما شاهدناه فيها من النظام والنظافة وانصراف الناس إلى أعمالهم وأشغالهم كل حسب مسلكه دون التعرض لشؤون الغير، وأخذهم جميع الأمور التي يعنون بها مأخذ الجد، مع اتقان العمل.

ومن الغريب انني، وأنا من بلاد بابل، ما كنت أعلم شيئاً عن بابل سوى اسمها. ولكنني لما دخلت متحف (فريديرك) شاهدت الآثار البابلية معروضة هناك عرضاً يبين ما كان للبابليين القدماء من عظمة ومجد في عهد عزهم. فكان في المتحف جدار عظيم منقول آجره من بابل، وكان على ذلك الجدار العظيم، الذي يحمل النقوش والرسوم البابلية المشهورة، لوح كتب عايه: «هذا الجدار هدية من السلطان عبد الحميد». فجميع خزائن البلاد الثمينة والتي تعدّ من مفاخر الأجيال الغابرة كنا نحرم منها في بلادنا فتنتقل إلى أيدي غيرنا بلا علم منا. ومع اعترافي بأن عرض آثارنا القديمة في بلاد راقية كالأقطار الأوروبية يفيدنا من حيث التنويه بشهرة حضارتنا السالفة، إلاّ أن حرماننا من استثمار هذه الثروة هو من آثار عصور دامية خرّبت

---

(٢) أنور باشا (١٨٨١ ـ ١٩٢٢) من أقوى رجال حزب الاتحاد والترقي. تخرّج في المدرسة الحربية وخاض غمار السياسة في سن مبكرة جداً. ترأس عصابة اعتصمت بالجبال وأعلن العصيان على استبداد عبد الحميد وأجبره على اعلان الدستور بعد حكم مطلق دام حوالي ٣٣ سنة. وعاد أنور إلى استانبول محمولاً على الأكتاف بطلاً من أبطال الحرّية. أصبح وزيراً للحربية في سنة ١٩١٣ وتزوّج إحدى الأميرات. كان أنور الشخص الذي قام بالدور الأكبر في زجّ تركية في الحرب العالمية الأولى إلى جانب المانية. وبعد انتهاء الحرب بخسارتها غادر تركية سرّاً في سنة ١٩١٨ مع طلعت وجمال. وفي سنة ١٩٢٢ انضمّ إلى حرب عصاة ضدّ البلاشفة، وقتل في بخارى في الثانية والأربعين من عمره، عرف بشجاعته العظيمة.

البلاد، ودمرت معالمها، وجعلتنا فريسة الغزاة الهدّامين، مما أدّى إلى ضعفنا وحرماننا كنوزنا الموروثة.

أعجبني من الألمان درسهم واتقانهم الشيء اتقاناً يكاد يبلغ حد الكمال، مع مراعاة البساطة والعناية بالجوهر دون العَرَض. وأهم ما يعنون به متانة ما يصنعونه أو ما يفكرون به، بقطع النظر عن الاعتبارات الأخرى. ورأيت حب الموسيقى والغناء متغلغلاً في نفوسهم أكثر منه في نفس أي شعب آخر. فكنت وأنا أسير في المدن والقرى أسمع عزف الآلات الموسيقية حتى في أبسط الدور، وكثيراً ما كنت أرى الناس يجتمعون في المقاهي ويغنون أجواقاً، وكل منهم بيده كتاب أناشيد بعلاماته الموسيقية.

لما دخلت كردوس مشاة (الكرينادير) في (كارلسروه) جابهت حياة عسكرية لم أعهدها في الجيش العثماني من جميع الوجوه. ولمّا قابلت مساعد الكردوس في مكتبه زودني بالوصايا المتعلقة بواجباتي العسكرية والاجتماعية. وقدم إليّ قائمة مطبوعة بعناوين جميع الضباط والقادة والأمراء الموجودين في (كارلسروه) التي كانت مقر قيادة الفيلق الرابع عشر، وذلك لأقوم بزيارتهم على الأصول المرعية. كما أنه قدمني إلى آمر الكردوس «الأوبرست» (الزعيم) (فون التروك). وكان هذا الزعيم رجلاً طويل القامة جميل الطلعة طليّ الحديث، فرحب بي وأمر بإنضمامي إلى السرية السادسة، وطلب مني أن أقوم بواجباتي حسب أوامر آمر السرية «الهويتمان» (الرئيس) (فون رتبرك).

وكنت دائماً أرى في الزعيم (التروك) خير مرشد أستنير بنصائحه وأفيد من علمه العسكري الغزير. لأنه كان أكمل دروسه العسكرية العالية في مدرسة الأركان، وكان كاتباً مجيداً في التاريخ العسكري والتعبئة. وكان عند سنوح الفرص يلقي المحاضرات على ضباط الكردوس وينورهم بشؤون مسلكهم، وكان كثير العناية بشؤون الطيران، وتأثيره في الحروب المقبلة، وكان يثقل عليّ أنه عندما يريد بحث موضوع خطير، يشير إليّ بأن أخرج من قاعة المحاضرة لأن الموضوع يختص بالجيش الالماني وحده. ولكن تكرر هذا الأمر جعلني أتعوّده فلم يعد يزعجني كثيراً.

ان الحياة في الكردوس بين الضباط كانت كحياة أفراد أسرة كبيرة يعيشون معاً، والجميع يودون بعضهم بعضاً وداداً صميماً، وكان من الضروري أن يتعشى أو يتغدى الضباط العزاب في كل يوم معاً في «الكازينو»، وهو المحل المعدّ لاجتماع الضباط وتمضية أوقات الفراغ، وكان بمنزلة ناد لأسرة الكردوس، وكان يحتوي على غرف للأستقبال، وبهو للرقص، وقاعة للطعام، وغرف للاستراحة وللعب البليارد والورق والموسيقى، ومكتبة وافية بالمرام تحتوي على أنواع الكتب العسكرية والاجتماعية والتاريخية والعلمية، مع غرفة كبيرة فيها شتى أنواع الصحف والمجلات اليومية والدورية. وكان حتماً على الضباط المتزوجين أن يشاركونا العشاء في كل يوم سبت، وكانت تقام حفلات راقصة تدعي إليها أسر الضباط وأقاربهم وضباط الوحدات الأخرى الموجودين في تلك الحامية. ولا حاجة إلى وصف ما كان عليه الضباط من الحشمة والوقار في جميع أنحاء المانية. إذ كان ينتمي إلى الجيش أبناء الأسر العليا (الارستقراطية) فيعدّون الانتماء إلى الجيش أكبر شرف لهم في الحياة، لأن خدمة العلم تعد من أقدس الخدمات في المانية وأشدها أنطواء على ما يثير العواطف، وذلك ليس من حيث حب الوطن والدفاع عن كيانه فقط، بل من حيث الرعاية والاحترام اللذين كان الضباط يلقونهما من الشعب، يضاف إلى ذلك البزّات الرسمية الجذابة التي كانت تخلب عقول الشبان والشابات معاً

وكان الضبط والنظام بالغين غايتهما في الجيش الألماني إلى حد أن أقل إهمال أو أتفه حركة مخلّة بالنظام كانت تظهر في أقبح مظهر فتزعج الجميع، وكأنها آلة دقيقة وحساسة تتأثر فوراً بأقل مؤثر. وكانت سيطرة القيصر غليوم الثاني ونفوذه عظيمين للغاية. فكان يشترك في المناورات العسكرية بلا استثناء، ويختلط بجيشه ويستعرضه في كل فرصة سانحة. وكان يتولى القيادة في المناورات الكبيرة أيضاً. ومع كل هذه العناية والعطف العام على الجيش كانت الدعاية الاشتراكية لا تفتأ عن الانتشار والتفشي بين مختلف مراتب الجيش، وكان شغل القيادات العليا الشاغل مكافحة هذه الدعاية القوية. والمساعي الجمة تبذل في اتخاذ شتى وسائل الوقاية وأنواعها لدرء خطر الاشتراكية عن الجيش. وخير علاج أرتأوه لذلك الداء اشغال الجيش دائماً بالتمارين والمناورات وإنهاك قواه بحيث لا يتسع له مجال من الوقت للتفكير والاشتغال بأمور أخرى.

كانت الحياة العسكرية مثالاً للنشاط والعمل في جميع أدوار السنة ما عدا أيام العطل الصيفية، وهذه كانت قصيرة لا تزيد على الشهر الواحد في السنة. وكان تدريب المستخدمين يبدأ في أوائل الشتاء، وتعقبه تمارين السرّية والفوج، وتمارين الرمي، فتمارين الوحدات الكبرى، إلى أن تنتهي التمارين بالمناورات في شهر أيلول (سبتمبر)، وفي خلال هذه التمارين تستمر المسيرات العسكرية مبتدئة من ثلاثين كيلو متراً في اليوم الواحد إلى أن تبلغ سبعين كيلومتراً في اليوم الواحد.

يشغل رئيس العرفاء مكانة خطيرة في السرية، وهو بمنزلة المنفّذ لجميع التعاليم والوصايا والأوامر التي يتلقاها من الآمر، ويدير مكتب السرية حسب رغبة الآمر بكل مهارة واتقان. ويليه في ادارة السرية الداخلية ضباط الصف. وفي الحقيقة ان ضباط الصف في الجيش الالماني يعدّون مرآة للنظام والمظهر الحسن الذي يظهر به الجيش. فضابط الصف يخدم في الجيش ما يقارب الاثنتي عشرة سنة بعد اكمال خدمة العلم، وهو يتطوع لهذه الخدمة، ويهيأ له منزل متصل بالثكنة لسكناه مع عياله، كما أنه يعيّن في وظيفة مناسبة في ادارة البريد أو السكك الحديد أو ما شابهها من المصالح الحكومية براتب لا بأس به بعد إكماله خدمة الجيش. واحتكاك الضباط بالجنود قليل بالنسبة إلى احتكاك ضباط الصف بهم، وهذا بالطبع يمكّن الضابط من التفرغ للمطالعة وتوسيع معلوماته دون أن يخشى انحلال النظام والضبط في وحدته. ومع ذلك يتحتم على جميع الضباط المنتمين إلى السريّة أن يكونوا في ميدان العرض في كل يوم. ولا تقل ساعات العرض والدروس النظرية والرياضة البدنية والألعاب عن ثماني ساعات في اليوم. ومعظم هذه الاشغال ينجز قبل الظهر، ما عدا التمارين الليلية التي تدوم إلى ما بعد منتصف الليل وأحياناً إلى الصباح، ولا سيما تمارين الكردوس والفوج. وأهم ما يُعنى به في التمارين الليلية الارتباط بين الوحدات، وتبليغ الأوامر، وحفر الخنادق، وقطع الأسلاك الشائكة، والتقرب إلى العدو بلا جلبة ولا صوت. وكذلك الرمي الثابت واستعمال وسائل التنوير الكهربائي والناري.

***

ومن أجمل المناظر التي لا تزال صورتها مطبوعة في ذهني غابات المانية، ووديانها الجميلة، وطرقها المنظمة، وقراها الصحية، وأهاليها الوادعون الذين يحفظون

لجيشهم حباً شديداً. فالنساء كن يقفن على طوار الطريق حين مرورنا بقرية ما، حاملات أنواع الفواكه والأطعمة ليقدمنها هدية إلى الجنود.

ولا تسل عمّا كنا نلقاه من ضروب الحفاوة والاكرام في المناورات خلال مبيتنا في القرى وقصور الأشراف في الأرياف. وكثيراً ما كانت هذه الظروف تنشيء العلاقات الودية بين رجال الجيش من ضباط وجنود من جهة، وكان الجيش يعوض عن كل خسارة تقع في الحقول والبساتين والأملاك الخاصة من جراء التمارين والمناورات. وفي أحيان كثيرة كان آمرو الوحدات يتحاشون تخريب الحقول بعدم السماح للجنود والعجلات بالمرور فيها فتأتي التمارين غير طبيعية، لأن مفتشي التعويض، وهم الضباط الذين تعينهم القيادة العامة، يكونون قريبين من الوحدة، فيشلون حركات آمر الوحدة بنظراتهم المريبة ، حتى أن إحدى السرايا ظلت ذات يوم أمام حقل وهي تتردد في معرفة ما إذا كان الحقل مزروعاً بالبطاطس أو غير ذلك. فظل آمر تلك السرية متردداً مدة من الزمن إلى ان التفّ الفريق المخاصم حول جناح فريق آمر تلك السرية وكان سبباً لخسران المعركة في تلك المناورة. وحين تقييم المناورة قال آمر الفرقة إن النصر كان حليف ضابط التعويض لا غير.

وكان الألمان في ذلك الوقت يعنون عناية شديدة باعداد ضباط الأركان لجعلهم قادة ماهرين، وذلك بايفادهم إلى الوحدات لتسلم زمام قيادتها من حين إلى آخر، وبهذه الواسطة كان الضباط يختلطون بالجيش فيقفون على جميع التفاصيل التي يجب أن يقف عليها الآمر ليتمكن من تسيير أعمال الوحدة عن علم وثقة.

وتسلم قيادة الفوج الذي كنت فيه الماجور (المقدم) «فون زيكت»، وكان من ضباط الركن المعروفين بذكائهم وسعة اطلاعهم على الفنون العسكرية والشؤون العامة. وقد أفدت كثيراً من آرائه العسكرية خلال محاضراته، أو حينما كنا نتجاذب أطراف حديث خاص، نظراً إلى أواصر الصداقة التي تمكنت فيما بيننا. وكان ذا ميل خاص إلى الشرقيين. ولا غرابة في ترقي هذا الضابط النابه إلى أن بلغ أعلى مقام في الجيش الالماني بعد الحرب العامة، إذ أصبح من الرجال البارزين في المانية، حتى دار البحث في أمر ترشيحه لرئاسة الجمهورية بعد هندنبرغ، وهو أمير الجيش (الجنرال) فون زيكت المشهور.

وتمارين الرمي من أخطر الأمور التي يعني بها الجيش الالماني. فكان محتما على الضباط الأعوان، فضلاً عن الجنود وضباط الصف، أن يرموا خلال التمارين السنوية. وكانت تجري عدة مسابقات بين الضباط والمراتب الأخرى في الرمي، فتوزع على الفائزين جوائز لا بأس بها. وكان القيصر يهدي سيفاً في كل سنة إلى أمهر رام من الضباط. وكانت العناية أيضاً شديدة بتمارين المبارزة بالحراب التي كانت أخطر قسم من الرياضة البدنية. وهذا لا يعني أنهم يهملون باقي فروع التمارين العسكرية ولكنهم كانوا يسعون سعياً خاصاً لجعل الجنود قادرين على استعمال البندقية والحربة بمهارة فائقة، إذ لا فائدة بغيرهما من حشد الجنود إذا كانوا غير قادرين على استعمال سلاحهم في دار الحرب.

ومن غريب ما كان يخالج صدور الضباط والأمراء من طبقة الأشراف أن قيادتهم للشعب هبة من الله، كما أن القيصر كان يدّعي بأن رسالته من الله. وكان معظم ضباط الجيش يحملون «لقب شرف» مثل (فون) أو (فرايهر) أو (غراف). وكثيراً ما كان الجنود المستجدون يدعوني «فون عسكري» ظناً منهم أن الضابط لا بد أن يكون ذا لقب. وكان تمسك أولئك الناس بالألقاب شديداً، ولا سيما في المقابلات الرسمية. فلما كنت أحياناً أتحدث عن بعضهم دون أن أردف اسماءهم بألقاب الاصالة، كانت الاحتجاجات تنهال عليّ من كل صوب، فكنت اعتذر اليهم قائلاً «اننا عندما نحب الانسان كثيراً نجرده من كل لقب، وهذه عادة العرب، فاعذروني إذا لم أتمكن من التلبس بعاداتكم بسهولة». وكنا ننهي الاحتجاج بالمزاح.

لا أنكر الصنع الجميل والمعاملة الحسنة اللذين لقيتهما من جميع الضباط الألمان على اختلاف رتبهم مدة بقائي بين ظهرانيهم، ولكنني لا أنسى ما تعرضت له من الشدة والصرامة في أثناء التدريب والمناورات. وكنت أتميز غيظاً من هذه المعاملة، حتى أنني كنت أحياناً أصاب بالحمى من شدة تأثري من المعاملة القاسية، ولكن تلك المعاملة لم تكن لغير تنبيهي إلى الهفوات التي كنت ارتكبها. وكان يجابه ذلك عادة كل ضابط يقع في مثل غلطاتي.

ففي ذات يوم كنا في التدريب الاجمالي وكنت متولياً قيادة فصيل. فتقدم الفصيل دون أن يستفيد من رابية أمامنا لاخفاء تقدمنا عن الخصم. فاذا بي أشاهد آمر

الفرقة وآمر الكردوس والكثيرين من ضباط الركن هاجمين عليّ هجوماً شديداً بخيلهم كأننا أمسينا إزاء هجوم شديد من خيالة العدو، وطفق آمر الفرقة يرغي ويزبد ويعربد عليّ بصوت خشن وكلمات جارحة بقوله إن حركتي هذه لا تطبق في الحروب الأوربية، وان كانت عادتكم هذه في وقائع البوادي، ونحن هنا لسنا في الصحراء. ولم يكتف الفريق كروزك ـ الذي كان من أبرز الأمراء في الجيش الألماني وانتحر بعد سنة ملقياً بنفسه أمام قطار السكة الحديدية غاضباً لعدم ترقيته وترجيح غيره عليه ـ بهذا التوبيخ، بل أعاد الكرة على فريسته (وهي أنا) في اثناء الانتقاد، وسرد القصة من جديد، وشهرّ بي وكأنني ارتكبت جناية لا تغتفر، قائلاً إن حركتي هذه لا تسبب إتلاف الفصيل وحده، بل تسبب خسارة الحرب. ولا تسل عن الغيظ الذي استولى عليّ في ذلك الحين لأنني كنت الضابط الأجنبي الوحيد بين الضباط، مع كوني كنت مرتدياً البزّة الألمانية، وحاملاً رتبة عسكرية من القيصر ولهلم، وحالفاً اليمين القانونية بأنني مدة بقائي في الجيش الألماني لا آتي بحركة ما أو أنشر ما يضر بالجيش الألماني. ولكن كما سبق القول إن هذه التوبيخات تنحصر في محلها فلا يتكلم عنها أحد بعد حدوثها لأنها عادة جارية، حتى ان الفريق فون كروزيك قال لي بلهجة فكهة أنه مديون لي في هذه الحركة التي جعلته يتناول موضوعاً واسعاً للانتقاد ويجعل الضباط يراجعون كتاب التدريب، ويطالعون الفصول الباحثة في التقدم.

أما حياتي الخاصة مع ضباط الكردوس الذي كنت فيه، والناس الذين تعرفت عليهم، فكانت على صفاء ووداد، ولا سيما مع الملازمين فون بوكمان، وفون باير. وكان بوكمان يتقد نشاطاً وذكاء ويشار إليه بالبنان بين الضباط، والكل يتحدث عن المستقبل الباهر المخبأ لذلك الشاب وكان لطيف المعشر، ولا يخلو حديثه من نكات مضحكة.

***

من عادة الألمان أن يحيوا بعض الليالي إلى ساعة متأخرة وكانت تدعى ليالي البيرة، ويجتمع خلالها العزّاب من الضباط، ويتفكهون بالأحاديث والنكات المضحكة والأغاني، إلى ان يستنزفوا البيرة كلها من البراميل. وفي ساعة متأخرة من احدى هذه الليالي أتاني كتاب من آمر الكردوس يأمرني فيه أن أحضر إلى «الكازينو»

لأمر خطير يتعلق بمبارزة ضابطين لأكون شاهداً لأحدهما. فأرتديت بزّتي العسكرية من فوري وقصدت المحل المعين. ماذا رأيت؟ شاهدت «فون بوكمان» وباقي الضباط واقفين أمام باب «الكازينو» وعند دنوي منهم خطفوني وأدخلوني الغرفة المعدّة لاحياء ليلة البيرة والتي يسمونها «غرفة الجرمن القدماء»، وكانت مزيّنة بجماجم الحيوانات والطيور والأسماك وجلودها على أنواعها، ومؤثثة على الطراز الجرماني القديم، والأثاث تحوت بسيطة ملتصقة بالجدران، أو مناضد ثقيلة ضخمة، وكراسي هي أيضاً من نوعها. وخلاصة القول أنه لا يخشى على شيء أن يكسر أو يتلف خلال العربدات. وبعد أن فرغ الخطباء من القاء خطبهم ووصلوا إلى أواخر البرميل الموضوع على إحدى المناضد، طلبوا اليّ بالحاح أن أخطب فيهم عما شعرت به في تلك الليلة الساهرة. فطفقت أدمدم عليهم، ولا سيما على بوكمان، لإقلاقهم راحتي في الوقت الذي كنت فيه غريقاً في أجمل الأحلام وألذها، لأنني كنت في حفلة راقصة مع أجمل الغواني الفاتنات في بهو «متروبول بالاس». ولما رأيت الجندي قادماً بالأمر المكتوب المزور، انقلبت افراحي اشجاناً، على ما تنم عليه ملامح وجهي. وأخذت أصف كل فرد منهم بما يتفق ومظهره وذكائه. فقارنت بعضهم بالأسماك والحيوانات المعلقة في القاعة، فجاء الوصف مطابقاً للموصوف، فبدأت أصوات الاستحسان تعلو من كل صوب ممزوجة باحتجاجات بعضهم على تشبيهي اياهم بحيوانات لا يروقهم أن يتشبهوا بها، وأنا لا أبالي بذلك، بل بقيت مستمراً على وصفي، إلى أن هجم بعضهم على منصة الخطابة فأنخسفت بنا، وانتهى الأمر بهرج ومرج، فرجعنا إلى مخادعنا في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، وكان موعد حضور ساحة العرض الساعة السادسة صباحاً. وفي خلال هاتين الساعتين لم اتمكن من الاستراحة إلاّ ساعة من الزمن، وكان تصرف الضباط في تلك الليلة المشهودة دليلاً على حسن معشرهم وألفتهم في الحياة الخاصة.

الفَصْلُ الثَّالِث

الحَرْبُ البَلقَانيَّة

في أواخر سنة ١٩١٣ اشتبكت الدولة العثمانية في حرب مع دول البلقان، فأبلغتنا السفارة العثمانية في برلين بوجوب عودتنا الى تركية فوراً لالتحاق كل منا بوحدته. وعند وصولي إلى الاستانة التحقت باحدى الوحدات المرابطة بجوار (قرق كليسه) والمختصة بكردوس المشاة الحادي عشر. وكانت حالة الجيش العثماني حينئذ مضطربة جداً إذا اختلط فيه الحابل بالنابل، لأن سياسة الحزبين المتخاصمين ـ الاتحادي والائتلافي ـ[1] كانت تمثل أدواراً خطيرة مضرة بالجيش. وكان معظم

(١) «الاتحاد والترقي» هو الحزب الذي ألّفته جماعة «تركية الفتاة» وهم المثقفون الأتراك الذين غادروا تركية هرباً من استبداد السلطان عبد الحميد الثاني ومارسوا نشاطهم في أوروبا ومصر، وتأثروا بالأفكار الأوروبية المتحررة وطالبوا بحكومة دستورية. وقد تمكن هؤلاء من تأليف جمعية سياسية باسم «الاتحاد والترقي» ـ واصبحت حزباً سياسياً فيما بعد ـ وقام هذا الحزب بدعاية فعالة خاصة بين الموظفين والضباط الأتراك في القسم الأوروبي من تركية، وهرّبوا صحفهم ومطبوعاتهم إلى تركية على نطاق واسع. وكان بينهم عدد من الماسونيين واليهود المرتدين (دونمه). وفي تموز سنة ١٩٠٨ قاموا بثورة في «سلانيك» و «مناستر» فحاول السلطان عبد الحميد احتواءها ووعد باستئناف العمل بدستور سنة ١٨٧٦ وإعادة البرلمان، ومع ذلك فإن الحزب لم يتول الحكم مباشرة في هذه المرحلة. وقد حاول عبد الحميد بعد ذلك في سنة ١٩٠٩ فضّ البرلمان بالقوة مرة أخرى، فزحف محمود شوكت باشا على استانبول على رأس الجيش الثالث وخلع السلطان عبد الحميد ونصب بمحله أخاه محمد رشاد، وأقيم نظام برلماني اسميّ وتولى الاتحاديون الحكم ولكن حكومة الاتحاديين أصبحت هي أيضاً دكتاتورية وخرجت عن أهدافها وقمعت المعارضة بعنف وأقامت عهداً من الارهاب السياسي والفكري ثم زجّت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وبقيت في الحكم حتى انهيارها في نهاية الحرب، فحلّ الحزب نفسه وهرب زعماؤه إلى الخارج.

أما «الائتلاف» فالمقصود به حزب «الحرية والائتلاف» الذي أسسه وترأسه صادق بك(١٨٦٠ـ١٩٤٠)، =



الضباط منتمين إلى حزب الاتحاد والترقي، في حين كانت الحكومة من حزب الائتلاف. فبدأت دعاية السوء تفعل فعلها بين ضباط الجيش الواحد، وتحرضهم على الامتناع عن القتال. وكان الجنود في حالة يرثى لها من حيث الصحة والملابس والطعام، ولم يكن أمر التموين والاعاشة منظماً، وكان الجانب الأعظم من العساكر من جنود الرديف والاحتياط الذين لم يتدربوا قط التدريب الحديث، حتى أنهم كانوا يجهلون حشو البندقية. فكنا نوزع البندقيات عليهم من الصناديق في الميدان وكان كل يخرج تكة تبّانة[٢]، أو حبلاً يعثر عليه لتعليق البندقية على كتفه. ورأيت بعض الجنود يحاول ادخال الطلقة من فوهة السبطانة، وكان معظمهم لا يفهم ما يخاطب به، لأنهم من القرى النائية في قلب الأناضول ولهم لهجة خاصة يتكلمون بها.

وكانت وسائط النقل مؤلفة من عجلات يجرها البقر، ولم تكن صالحة للسير على الطرق الوعرة، يضاف إلى ذلك أن غزارة الأمطار وتكاثف الأوحال، مما جعل سير المشاة شاقاً للغاية.

ولا أريد الخوض هنا في تفاصيل كثيرة بل أقتصر على مشاهداتي فقط. وجل غايتي المتوخاة من نشر هذه المذكرات منحصر في التعبير عما شاهدته وشعرت به، ولا أبغي النقل عن مؤلفات غيري وكتبهم، لأن كل ما فيها يعرفه القراء، فلا حاجة إلى تكراره.

كان الفيلقان الثاني والثالث يزحفان إلى الحدود، وكانت كتيبتنا (كردوسنا) منتمية إلى الفيلق الثاني بقيادة الفريق شوكت طورغود باشا. وكان الزحف بين «قرق

= وهو عميد (ميرالاي) في الجيش العثماني وأحد زعماء حزب الاتحاد والترقي، وقد ضمّ كل المعارضين لسياسة حزب الاتحاد والترقي وأعماله الذين أدركوا مخاطر الصهيونية والماسونية على البلاد، وكان كثيرون من أعضائه نواباً في مجلس المبعوثان، فشكلوا معارضة نشيطة حوّلت اتجاه الرأي العام في العاصمة ضد الاتحاديين الذين سارعوا إلى حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة وجهوها حسب أهوائهم، ثم عطلوا حزب الحرية والائتلاف.

(٢) التبّان: سراويل قصيرة مما يلبسه المصارعون، ويقصد بها المؤلف السراويل الداخلية، وكانت في السابق، قبل انتشار المطاط، تربط حول الخصر بشريط مضفور يسمّى «تكّة» (أو: تِجّة، بلغة بغداد العاميّة).

كليسة»[٣] و «ادرنه»[٤] وهما الموقعان المحصنان. وبتنا ليلتنا في العراء، وكان ذلك في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٢. ووقعت بعض المناوشات الطفيفة بين جنودنا في الصفوف الأمامية، والعصابات البلغارية، وبعض دورياتهم من الجند الراكبة. وكانت القرى في داخل الحدود غير موالية للجيش، وكان السكان قد تركوا قراهم وتطوع رجالهم في الجيش البلغاري. وفي صباح اليوم التالي صدر الأمر بالرجوع نحو قرق كليسة، وكانت الارتال البلغارية تعقّب أرتالنا على مسافة اربعة أو خمسة كيلو مترات. واشتبك الفيلق الثالث بقيادة حلمي باشا بالقتال في مرتفعات «اكريبولوس»، وكنا نشاهد المبارزة المدفعية، ونحن سائرون في طريقنا إلى «قرق كليسة»، والمطر ينهمر علينا غزيراً. ولما اجتمع الجيش ليلاً في منطقة تبعد أربعة كيلو مترات عن «قرق كليسة» خيل إليّ وصف يوم الحشر، لأن الجنود كانوا يرتجفون من البرد، والحيوانات تكبو في الأطيان. وكانت دواب جر المدافع غاطسة إلى صدورها في الأوحال والجنود، يصرخون تفتيشاً عن وحداتهم كثغاء الحملان التي تفتش عن أمهاتها في قطيع من الغنم.

وبتنا تلك الليلة ، أنا وآمر الفوج ثروت بك، والرئيس ممدوح بك، تحت قطعة من الخيام التي يستعملها الجنود، مغطين بها رؤوسنا، ونحن جالسون فوق صناديق العتاد على قارعة الطريق. ولا شك في أن هذه الأمطار أعاقت تقدم العدو فجعلتنا في مأمن من المباغتة في تلك الليلة الليلاء. وفي الصباح شاهدت لهيب النيران يتصاعد بجوار محطة قرق كليسة. ولما نظرت إلى المشهد بالناظور رأيت أنها أكوام أسلحة يحرقها الجيش العثماني على أثر الأمر الصادر إليه بالانسحاب من قرق كليسة، وترك الموقع المحصن بلا دفاع، لأن العدو استولى على اخطر قلاعه، ولم يتمكن المدافعون من صده. فكان انسحاب الفيلقين الثاني والثالث نحو «لوله برغاس»[٥] وهناك اضطررنا الى احتلال المواقع الملائمة لأن الجيش البلغاري الذي كان بقيادة الجنرال ديمتريف ضايقنا كثيراً.

---

(٣) «قرق كليسة»: مدينة في القسم الأوروبي من تركية، ومعنى الإسم باللغة التركية: «أربعون كنيسة».

(٤) «ادرنه» أكبر مدينة في القسم الأوروبي من تركية بعد استانبول.

(٥) «لوله برغاس» مدينة في القسم الأوروبي من تركية قريبة من استانبول.

وكانت كتيبتنا (كردوسنا) محتلة الخط المرتفع بجوار قرية «قرة آغاج». فحفرنا حُفراً غير منظمة برؤوس الحراب وبأدوات الاستحكامات البسيطة التي كانت معنا، فلم تحم تلك الحفر سوى الرؤوس لأنها في الحقيقة لم تكن خنادق حقيقية. وكانت مدفعية العدو تصوب قذائفها تصويباً دقيقاً مدمراً، الأمر الذي جعل الجنود خلال نصف ساعة يعمقون في الخنادق ليتمكنوا من الاختفاء فيها. وكانت مدفعيتنا أيضاً تؤثر في زحف مشاة العدو، فاضطرتهم إلى الالتجاء إلى بعض الموانع الطبيعية الموجودة في ساحة القتال، وترك الزحف المنظم، كل وحدة في جبهتها المعينة. وكانت الجنود البلغارية مدربة تدريباً لا بأس به، وكان ضباطهم مسيطرين على الجنود وعلى الموقف. وتقدم البلغار الى قلب جبهة الفرقة الرابعة التي كنا منتمين اليها، وارغموا الفوج الذي كان يحمي المدفعية الى التقهقر، واستولوا على كتيبة (آلاي) المدفعية بعد استشهاد قائدها رجب بك المشهور بمقدرته وكفاءته العلمية. فأضطررنا الى الانسحاب تحت جنح الظلام على مسافة قصيرة من قرة آغاج ولم يطاردنا العدو.

وبلغنا ان الفيلق الثالث أيضاً اشتبك في القتال مع العدو فأبلى بلاء حسناً واضطر العدو الى التوقف، الأمر الذي مكّن الفيلق الثاني من لمّ شعثه. وفي عصر ٢٢ تشرين الأول أصدرت القيادة العليا أمرها بالتقدم. وكنت أقود سريتي بنفسي، ولما أرغمنا المشاة البلغاريين الذين أمامنا على التقهقر أصبت برصاصة رشاشة في ساقي، فأرغمت على إنابة أحد ضباط الصف عني لأن ضابطي السرية كانا قد سقطا قبلي ببضع دقائق. وعلى أثر ذلك نقلوني الى المستشفى في الاستانة. ومن حسن حظي أن المستشفى كان بادارة إحدى لجان الصليب الأحمر الألمانية، فأعتنوا بي العناية المطلوبة، لأنني فضلاً عن جرحي أصبت أيضاً بحمى الملاريا في هذه السفرة الشاقة.

ولا اريد وصف ما كان مستولياً على سكان العاصمة من الدهشة والخوف من جراء انكسار الجيش بهذه السرعة، وكان معظم الناس يرحل إلى الجهة الأسيوية من الاستانة.

قضيت ثلاثة اسابيع في المستشفى ثم انتقلت الى مقر أركان حرب الفيلق العاشر الذي كان على وشك التأليف، وتقلد رئاسة أركان حرب الفيلق القائمقام أنور

بك (أنور باشا المشهور)[٦] على اثر رجوعه من طرابلس الغرب. وكان رجوعه سبباً للقيل والقال والاختلاف السياسي الكبير بين وزراء الدولة، لأن كامل باشا [٧] الذي كان صدراً أعظم يومئذ، أوجس خيفة من قدومه، وطلب إلى وزير الحربية ناظم باشا أن يتخذ التدابير المقتضية لمنع أنور من دخول الاستانة. أما ناظم باشا فلم يكترث لذلك وأستخف بنصيحة الصدر الأعظم. فبدأ أنور بك عند وصوله الى الاستانة على ما سبق ذكره يعمل بجدّ على تأليف قوة قادرة على العمل لتقاوم الهاجمين على البلاد. وكانت الجبهة الحربية قد ترصّنت بخط «جتالجه» ازاء هجمات الجيش البلغاري العنيفة، وقد زادت الأمطار والأوحال هذا الخط مناعة.

أجل، ان ذلك كان مضرّاً أيضاً بالجيش المدافع، إلا أن الوطأة كانت أشد على المهاجمين، الأمر الذي ادى الى تقوية خط «جتالجه» بصورة محكمة، فزال القلق بعض الزوال عن سكان العاصمة. ومن غرائب الاتفاق أن اعضاء الأركان الحربية في الفيلق العاشر كانوا عراقيين، ومن جملتهم المرحومان توفيق بك كركوكلي المعروف، وصبيح بك نشأت[٨].

---

(٦) أنور باشا: أنظر تعريفاً به في الصفحة ٣٤

(٧) كامل باشا: هو محمد كامل باشا القبرصيّ (١٨٣٢ - ١٩١٢) من أبرز السياسيين في أواخر عهد الدولة العثمانية. ولد في قبرص ودرس في القاهرة، وكان يجيد عدة لغات أجنبية. تولى مناصب عديدة، وكان والياً على عدّة ولايات منها حلب وأزمير، ووزيراً في عدة وزارات. أصبح رئيساً للوزراء (صدرا أعظم) أربع مرات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني آخرها في سنة ١٩١١، وكان معروفاً بصلاته الوثيقة مع الانكليز، استقال بعد اندحار تركية في حرب البلقان وعاد إلى قبرص وتوفي فيها.

(٨) صبيح نشأت (١٨٨٢ - ١٩٢٩): أحد الرجال البارزين في بداية تأسيس الدولة العراقية. تخرّج في المدرسة العسكرية ببغداد وكلية الأركان في استانبول واشترك في حرب البلقان ثم عين قائداً للجندرمة في بيروت. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى كان من كبار الضباط في الجيش الرابع في سورية بقيادة جمال باشا. ولما عاد إلى العراق بعد الحرب اختير وزيراً للمواصلات والأشغال سنة ١٩٢٢ وشغل هذه الوزارة أكثر من مرة كما شغل وزارة الدفاع والمالية ثم عيّن أول وزير مفوّض للعراق في تركية في سنة ١٩٢٨ ولكنه توفي فجأة في انقرة وهو في السادسة والأربعين من عمره. وكان رجلاً شغوفاً بالثقافة العامة ويجيد عدة لغات أوروبية وتربطه بجعفر العسكري رابطة قوية من الصداقة والتشابه في الميل إلى الثقافة وخفّة الروح. وقد ترأس صبيح نشأت الوفد العراقي المفاوض في «مؤتمر العقير» لرسم الحدود بين العراق ونجد. وهو الذي اقترح إطلاق التسمية المشهورة «منطقة البقلاوة» على المنطقة المحايدة بين القطرين.

التفّ الاتحاديون حول أنور الذي كان يقضي معظم أوقاته في المؤامرات السياسية مع أقطاب حزب الاتحاد والترقي، وذلك سعياً لقلب الحكومة وجعلها اتحادية. وفي ذات يوم عقب الهدنة البلقانية كان مجلس النظّار مجتمعاً، فتجمهر حول الباب العالي جمهور كبير بينهم أنور وممتاز، من رجال الاتحاديين الفدائيين، وفي ذلك الوقت نفسه، تمكنوا من قطع جميع خطوط التلفون الموصلة بين الباب العالي والثكنات ومراكز الشرطة، وكان جمال باشا محافظ استانبول أيضاً متفقاً معهم في هذه المؤامرة. فلما بدأت الضوضاء خرج ناظم باشا وزير الحربية لتفريق الجمهور، فأطلقت عليه عيارات نارية من جهات مختلفة فأردته قتيلاً، كما أن مرافق ناظم باشا قتل الشاب الذي كان يصوّب مسدسه نحوهم، فانتهت المعركة باحتلال أنور وجماعته الباب العالي، وصدور الارادة السنية بعد مدة قصيرة من ذلك اليوم بتولية محمود شوكت باشا[٩] منصب الصدارة العظمى. فتألفت وزارة اتحادية، ولقي ناظم حتفه لعدم أخذه بنصيحة كامل باشا، الشيخ الجليل الذي كان ملمّا بأحوال تركية الماما تامًا.

وبعد هذا الانقلاب الفجائي الذي اقتطف الاتحاديون ثماره، اضطرّت الحكومة الى مواصلة الحرب، لأن حجّة الاتحاديين فيما قاموا به، هي أن الحكومة التي كانت على دست الحكم كانت مستسلمة لدول البلقان، وهو أمر لم يكن من مصلحة تركية في نظرهم. فبدأت الفعالية في مقرّ الفيلق العاشر أكثر من كل محل آخر نظراً إلى وجود أنور فيه. فأقنع انور القيادة العامة باخراج الفيلق العاشر إلى ساحة «شاركوى» الواقعة وراء الجيش البلغاري المرابط في خط «جتالجه»، وبهذه الوسيلة يجعل

---

(٩) محمود شوكت باشا (١٨٥٦ ـ ١٩١٣) من كبار القادة ورجال الدولة في العهد العثماني. ولد في العراق، وهو ابن سليمان بك متصرف البصرة (وشقيق حكمت سليمان، من رؤساء الوزارات في العهد الملكي) تخرّج في المدرسة العسكرية في استانبول، وقضى حوالي تسع سنوات في المانيا وخدم في الجيش الألماني ثم عيّن والياً لولاية (قوصوة) في عهد الثورة. أنيطت به قيادة الجيش الثالث الذي كان مقرّه في (سلانيك). ولما قامت ثورة سنة ١٩٠٩ دخل إلى الآستانة بجيشه وخلع السلطان عبد الحميد وأصبح على أثر ذلك أقوى شخصية في البلاد. وعلى الرغم من أنه لم ينتم إلى حزب «الاتحاد والترقي» فانه كان يؤيد سياسته وبقي خلال حكم الاتحاديين وزيراً للحربية مدة من الزمن، ثم أصبح رئيساً للوزراء. وفي سنة ١٩١٣ دبّر له خصوم الاتحاديين مؤامرة فاغتالوه وهو في عربته يتّجه إلى مقرّ رئاسة الوزراء، وكان في السابعة والخمسين من عمره.

البلغاريين مضطرين إلى التراجع عن خط «جتالجه». وفي الوقت نفسه تقرر أن تهجم القوة المرابطة في استحكامات «بولاير» على القوة البلغارية الواقعة أمامها. وبالفعل نزل الفيلق العاشر في «شاركوي» بعد مقاتلة القوات المكدونيّة المتطوعة في الجيش البلغاري بضع ساعات، وكان أولئك المتطوعون من أشد رجال العصابات البلغارية التي كانت الشغل الشاغل للجيش العثماني بعد أن كبدها خسائر فادحة واحتلّ المرتفعات المجاورة لقرية «شاركوي»، فقضينا ليلتنا في اتخاذ التدابير للتقدم نحو «بولاير» براً لطرد القوة البلغارية المحصّنة في قمّة «اكساميل» وجوارها، ولكن لسوء الحظ لم تتمكن قوة «بولاير» بقيادة الفريق فخر الدين باشا، والمؤلفة من الفرقة الرابعة والفرقة (٢٧) من تطبيق الخطة المتفق عليها نظراً إلى قلة القوة المتيسرة لها، ومناعة الخط البلغاري المحصّن بطبيعة الأرض.

وكان في رئاسة الأركان علي فتحي بك[١٠]، وكان مصطفى كمال بك (رئيس الجمهورية التركية الحالي)[١١] مديراً لشعبة الحركات في تلك القوة. وعلى أثر ذلك توقف جيش «بولاير» وجّه البلغاريون احتياطهم نحو «شاركوي»، فأضطررنا في اليوم التالي الى الانسحاب تدريجياً من منطقة شاركوي والعدو يضايق قوات الفيلق العاشر المنتشرة بشكل نصف دائرة تحيط بمحل النزول على بعد خمسة كيلو مترات عن الساحل، فلولا حماية الأسطول بمدافعه لتعسّر على القيادة سحب الجنود واركابهم في المراكب بلا أضرار فادحة.

وقد وقعت لي حادثة فظيعة ومفزعة في آن واحد في يوم الانسحاب من

---

(١٠) علي فتحي بك (أوقيار) (١٨٨٠ ـ ١٩٤٣) عسكري وسياسي ورجل دولة تركي، انتمى إلى حزب الاتحاد والترقي وعيّن ملحقاً عسكرياً في باريس بعد ثورة سنة ١٩٠٨، ثم ذهب إلى ليبيا في الحرب التركية ـ الايطالية. عيّن وزيراً مفوضاً لتركية في بلغاريا سنة ١٩١٥ حيث كان مصطفى كمال (آتاتورك) ملحقاً عسكرياً بمعيّته، وبعد ذلك انتخب نائباً في مجلس المبعوثان. وبعد الحرب العالمية الأولى كان عضواً فعالاً في الحركة الكمالية ومن المقربين إلى مصطفى كمال. عيّن وزيراً للداخلية في سنة ١٩٢٣ ثم رئيساً للوزراء (١٩٢٤ ـ ١٩٢٥) وسفيراً لتركية في باريس. أسس (الحزب الحرّ) ثم عيّن سفيراً في لندن (١٩٣٤) وأصبح وزيراً للعدل سنة ١٩٣٩.

(١١) كان مصطفى كمال (آتاتورك) رئيساً للجمهورية التركية في الوقت الذي كتبت فيه هذه السطور.

شاركوي، لا بأس من ذكرها هنا، وهي أن رئيس أركان الفيلق أنور بك أمرني صباحاً أن أبلغ آمر الفوج المرابط مع فوجه في شمال شرقي شاركوي بالبقاء في محله إلى أن تنسحب القوات الاستطلاعية التي ارسلت شمالاً قبل ذلك بيوم واحد، فركبت فوراً فرساً مجرياً مستجداً فذهب بي بسرعة هائلة فأجتزت الفريق وقطعت خط أشلاء البلغاريين، ولم أر نفسي إلاّ تحت وابل من رصاص العدو من الجهة التي كان الجواد يجري بي نحوها كالبرق الخاطف. ولم تمر برهة وجيزة حتى جفل الجواد وارتد بسرعة قوية إلى اليمين، ورأيت نفسي أمام الخط الذي احتله جنودنا في اليوم السابق، وهنا أيضاً رحبّت بنا طلقات البنادق، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ انقطع بعد أن عرفوا من هيئتي اني لست من الجيش البلغاري. وبعد جواب انور أنه وان لم يفرّط بي في هذه المرة فيجب أن استعد لذلك في فرصة اخرى، وهكذا ضحكنا وانتهى الأمر بدون وقوع ضرر يذكر. فانسحب الفيلق العاشر من شاركوي بعد ان بات ليلتين متعاقبتين في تلك المنطقة، ولم تذكر الخسارة التي تكبدناها، ولكن البلغاريين تكبدوا خسارة في النفوس واضطراباً في خططهم الحربية دام مدة طويلة. ولا شك في أن هذه العملية خفّفت بعض التضييق عن خط جتالجة وخط بولاير.

وبعد مدة قصيرة تحرك الفيلق العاشر بقيادة خورشيد باشا إلى الجناح الأيسر من خط جتالجه، وذلك في اوائل سنة ١٩١٣، فاحتل منطقة قاليقراطية، وكانت القوات البلغارية عاقدة العزم على الهجوم على هذه المنطقة. وكان القتال على أشده بين آونة واخرى، إذ حاول البلغاريون مراراً كثيرة اقتحام هذا الخط، فكانوا يردون على اعقابهم في كل مرة بخسارة فادحة.

وفي ربيع هذه السنة نشأ خلاف بين الدول البلقانية، فاضطرت بلغارية الى مخاصمة حلفائها. فسحبت جيوشها المرابطة أمام «جتالجه» بصورة تدريجية، فانتهز الجيش العثماني هذه الفرصة وتقدم إلى الأمام، معقباً فلول الجيش البلغاري، وكان التقدم سريعاً جداً، وقطع لواء الخيالة المؤلف من ست كتائب مسافة مائة وخمسة وعشرين كيلو متراً في خلال اربع وعشرين ساعة من «جورلي» الى «ادرنه» ويعود الفضل في التقدم بهذه السرعة الى مساعي انور بك الشخصية، فهو الذي أخذ على عاتقه تبعة القيام بهذه الحركة الجريئة أمام القيادة العامة. فتقدم الجيش ودخلت بعض

وحدات المدفعية والخيالة داخل الحدود البلغارية، ولكنها اضطرت الى التوقف على اثر تهديد روسيا للباب العالي. فانتقم الجيش العثماني لنفسه انتقاماً جزئياً بهذه الحركة، مع أنها كانت مقتصرة على قسم قليل من ساحة الحرب. ولا ينكر ان مفاوضات الصلح جرت بطريقة اقل قسوة مما كنا نتوقعه، وأنقذت «تراقية» من البلغاريين. فقضينا الصيف والخريف في ادرنه وجوارها، واسترد الجيش الأسلحة والتجهيزات المتروكة في ادرنه، وغنمنا كثيراً من الاسلحة والتجهيزات والأدوات الطبية البلغارية أيضاً، وكان الجانب الأعظم من تلك الذخائر قادماً من روسية وفرنسة وايطالية.



الفَصْلُ الرَّابع
الحَرْبُ العَالمِيَّة

الاستعداد لسفرة بحرية خطرة

رجعت إلى استانبول في أواخر ١٩١٣ بعد انحلال القيادات الحربية على أثر اعلان السلم، وعُيِّنت معلماً في مدرسة الضباط التي تأسست في حلب بقيادة الميرآلاي (الزعيم) «وايتمان»، فاشتغلنا بتدريب الضباط الموفدين من الفيالق الموجودة في سورية والعراق.

وكانت طريقة التعليم في هذا المعهد عملية أكثر منها نظرية بناء على احتياج الضباط إلى التعليم العملي احتياجاً ملموساً ولا سيما بعد أن رأينا ضعف الضباط في الأمور العملية في حرب البلقان.

ولم يمض على اشتغالي هناك أكثر من ثمانية أشهر حتى فزت في إمتحانات دخول مدرسة الأركان الحربية فتوجهت إلى الآستانة. وفي تلك الأثناء أعلنت الحرب العامة فاضطرت الامبراطورية إلى اعلان النفير العام استعداداً للطوارىء. وفي الحقيقة أن الحرب البلقانية كانت قد أنهكت قوانا، فلم نكن مستعدين لخوض غمار حرب أخرى بهذه السرعة. ولا يخفى أن أخطر المعدات، وزبدة الجيوش، استهلكتها الحرب البلقانية، فشرعت وزارة الحربية بإعادة تنظيم المضايق وتحكيمها بكل سرعة وجد. وكانت دول الحلفاء تتوقع من الدولة العثمانية المحافظة على الحياد. وكان الألمان يرون ضرورة انحياز العثمانيين إلى جانبهم بالنظر إلى وضع الدولة العثمانية الجغرافي، واعتبار المطامع الامبراطورية الروسية منذ زمن بعيد، ولاعتبارات أخرى

خطيرة الشأن في نظر الألمان. فتمكن الألمان في خلال بضعة أشهر من إقناع رجال تركية العسكريين، وعلى رأسهم أنور باشا، بالانحياز إلى جانبهم، رغم معارضة جاويد بك[١] وزير المالية، وجمال باشا[٢] وزير البحريّة، وبالطبع كان الأمير سعيد حليم[٣] مسيّراً بإرادة طلعت[٤] وأنور المسيطرين على مجلس النظّار[٥]، وبواسطة حزب الاتحاد والترقي، على المملكة أيضاً.

وكما سبق ذكره كانت صلاتي الشخصية بأنور باشا صلات صداقة وثقة شخصية،

---

(١) أحمد جاويد (١٨٧٨ ـ ١٩٢٦): من أبرز أعضاء حزب الاتحاد والترقي ووزير المالية خلال حكمهم، وهو ابن تاجر من سلانيك يقال إنه من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام في تركية (دونمه) تخرج في المدرسة الملكية الشاهانية وشغل وظائف مختلفة فأظهر كفاءة عالية وبرز سريعاً، فأصبح نائباً ثم وزيراً للمالية. اتهم في سنة ١٩٢٦ بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال فحوكم وشنق.

(٢) أحمد جمال باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢): وزير البحرية في عهد الاتحاديين. تخرج في المدرسة وانتمى إلى حزب الاتحاد والترقي وقام بدور فعال في تهيئة انقلاب المشروطية الثاني سنة ١٩٠٨ فأصبح من أكثر رجال الحزب نفوذاً. عيّن والياً عسكرياً في آطنة سنة ١٩٠٩، وبغداد سنة ١٩١١ ثم استانبول، عيّن وزيراً للبحرية، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى عيّن قائداً للجيش الرابع ووالياً عسكرياً في سورية، وهناك نكل بأحرار العرب، وأعدم عدداً كبيراً منهم. ولقّب بالسفّاح. عاد إلى تركية، ولما انتهت الحرب بخسارة المانية وتركية هرب على باخرة المانية (مع طلعت وأنور) وفي سنة ١٩٢٢ قتله شخص أرمني في تفليس.

(٣) سعيد حليم باشا (١٨٦٣ ـ ١٩٢١) حفيد محمد علي باشا الكبير والي مصر. ولد في القاهرة ودرس في أوروبا وعين عضواً في «مجلس شورى الدولة» في استانبول ثم عضواً في مجلس الأعيان العثماني. أصبح سكرتيراً عاماً لحزب «الاتحاد والترقي» (١٩١٣) ووزيراً للخارجية في وزارة محمود شوكت باشا. وعلى أثر اغتيال الأخير في تلك السنة خلفه في رئاسة الوزارة، ولكنه استقال لمعارضته في دخول تركية الحرب العالمية الأولى، فألحّ عليه الاتحاديون بالبقاء في منصبه، ففعل ولكنه عاد فاستقال أخيراً في مطلع سنة ١٩١٦ ليخلفه طلعت باشا. وبعد الهدنة كان ضمن السياسيين الذين اعتقلهم الحلفاء ونفي إلى جزيرة مالطة، ثم اطلق سبيله فذهب إلى روما، وهناك اغتاله أحد الأرمن، فنقل جثمانه إلى استانبول ودفن فيها. كان سعيد حليم باشا معروفاً بثقافته الواسعة وحجته الدامغة، وله كتب ورسائل سياسية واجتماعية عديدة باللغة التركية.

(٤) طلعت باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٢١) أهم أعضاء حزب الاتحاد والترقي، وآخر رئيس للوزراء في عهد الاتحاديين، والشخص الذي تحكم في مقاليد الأمور في تركية لعدة سنوات. ولد في (ادرنة) وتدرج في وظائف الدولة وبعد انقلاب المشروطية أصبح نائباً في مجلس المبعوثان. وفي سنة ١٩٠٩ عين وزيراً للداخلية ثم وزيراً للبريد والبرق في عدة وزارات، وعلى أثر استقالة سعيد حليم باشا في سنة ١٩١٦ عين صدرا أعظم. ولما عقدت الهدنة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى هرب الى اوروبا مع أنور وجمال وفي سنة ١٩٢١ اغتاله شاب أرمني في برلين.

(٥) مجلس النظار: مجلس الوزراء، وكان الوزير في الدولة العثمانية يسمى (ناظر).

بالنظر إلى اشتراكنا في الأعمال الرسمية في المانية وحرب البلقان وفي أوائل الحرب العظمى، وقد إزداد اعتماده عليّ بناء على ما بلغه من كبار قواد الألمان عني من الشهادات الحسنة. فكان يباحثني في ضرورة تقوية الجبهة السنوسية والاستفادة من تلك القوة لتشتيت قوات الحلفاء بقدر المستطاع. كما أني رأيت أخاه نوري بك ـ الذي كان أيضاً من الضباط النشيطين في الجيش العثماني ـ راغباً في الذهاب إلى شمالي أفريقية بناء على طلب السنوسي. وهكذا عقدنا النية على الذهاب إلى السنوسي مهما كلفنا الأمر، مع علمنا بإنقطاع المواصلات وعدم إمكان الوصول بسهولة، لأن البحار كانت كلها تحت سيطرة الحلفاء، والطرق البرية المؤدية إلى مصر منقطعة أيضاً بواسطة ترعة السويس والقوات الانكليزية المرابطة عليها. ان محاولة القيام بمثل هذا العمل كانت محفوفة بالخطر والخيبة الأكيدة. ولذلك كنا نفكر في الطريقة المثلى التي توصلنا إلى غايتنا، وقررنا أن نسافر إلى بلاد اليونان التي كانت حينئذ على الحياد ومائلة بعض الميل إلى الجانب الألماني بسبب نفوذ ملكها قسطنطين، صهر القيصر ولهلم الثاني. فتجهزنا أنا ونوري بك بالمعدات الضرورية من كتب رسمية ونقود كافية، وغادرنا الاستانة في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني (ديسمبر) سنة ١٩١٥ قاصدين آثينة بصفة سعاة ديبلوماسيين (Courier Diplomatique) إلى المفوضية العثمانية في آثينة عاصمة اليونان لكي لا يطلع أحد من رجال الكمارك البلغارية واليونانية على الوثائق والنقود التي نحملها، فلما وصلنا آثينة قابلنا المفوض العثماني هناك، فساعدنا في انجاز مهمتنا مساعدة يشكر عليها. ثم اتصلنا بالقنصل العثماني في «بيرة» وتم الاتفاق مع أحد مهربي السلاح من أهل بيروت، واسمه محيي الدين شاتيلا، وهو أخو سعد الدين شاتيلا على شراء باخرة صغيرة منه بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهباً على أن يوصلنا إلى الساحل الافريقي بشرط أن تعود ملكية الباخرة مكافأة له.

في مضارب السنوسي

في خلال المدة التي أمضيناها في بلاد اليونان تمكنا من شراء مقدار من الأسلحة

---

(٦) ذكر لورنس في «اعمدة الحكمة السبعة» ما كان شائعاً من أن جعفر العسكري سافر إلى ليبيا بواسطة غواصة، ويظهر مما دونه جعفر العسكري نفسه أن ذلك لم يكن صحيحاً.

(T. E Lawrence, **Seven Pillars of Wisdom,** Jonathan Cape, London 1935, p. 166)

والعتاد بثمن بخس جداً. لأن تلك الأسلحة كانت من سلاح الجيش العثماني الذي استولى عليه اليونانيون في حرب البلقان. وأخذنا نشحن الباخرة ليلاً بالأمتعة والبضائع التي كنا محتاجين إليها في الطريق وفي محلنا المقصود، ولم يزعجنا أحد من رجال الكمارك. وبعد شحن الباخرة ركبناها فأقلعت بنا نحو جزيرة كريت، ومنها إلى نقطة بين طبرق والسلوم. فأضطرنا هياج البحر إلى الالتجاء مدة أسبوع تقريباً إلى جزيرة صغيرة مهجورة بالقرب من جزيرة كريت. وكان برفقتنا في هذه السفرة محمد بك الجباني من أشراف بنغازى الذي كانت له خدمات جليلة في حرب طرابلس الغرب لما كان أنور باشا نفسه هناك، وكذلك كان معنا الحاج كامل أفندي البندقي، أحد أصدقاء نوري بك الذي تطوع معنا أيضاً في هذه المهمة.

وصلنا إلى ساحل دفنة في نقطة واقعة على مسافة عشرين ميلاً تقريباً إلى غربي السلوم، وحللنا ضيوفاً على قبيلة المنفة التي نصبت خيامها في تلك المنطقة. وأوفدنا ساعياً إلى «السيد أحمد السنوسي الكبير»[٧] ننبئه بوصولنا وبعد انتظار يومين توجهنا إلى بئر واعر التي تبعد عن السلوم مسافة ثلاثة أميال. وكانت بئر واعر مستودعاً لمعسكر

---

(٧) السيد أحمد الشريف السنوسي (١٨٦٧ - ١٩٢٣): حفيد السنوسي الكبير محمد بن علي الخطابي الأدريسي ولد في جغبوب، وعلى أثر وفاة عمه السيد محمد المهدي سنة ١٩٠٢ تولى رئاسة الطريقة السنوسية بصورة مؤقتة إلى أن يبلغ ابن عمه، السيد محمد أدريس، سن الرشد. وقد حارب السيد أحمد الشريف الايطاليين إلى جانب الترك، واستمر على محاربة الغزاة بعد عقد الصلح بين الطرفين. ولما نشبت الحرب العظمى أعلنت إيطالية الحرب على المانيا وتركية سنة ١٩١٥، فشد الأتراك أزر السيد أحمد الشريف فأوفدوا إليه نورى بك وجعفر باشا العسكري، وهاجموا حدود مصر الغربية، واستولوا على واحة السلوم. وانسحب البريطانيين إلى مرسي مطروح ثم أعادوا الهجوم وطاردوا السنوسيين وأسروا جعفر باشا في شباط سنة ١٩١٦ على نحو ما يرويه في هذه المذكرات، ورجع السيد أحمد الشريف إلى سيوه وفيها هزم في شباط ١٩١٧.

ونقل السيد أحمد الشريف إلى الاستانة في غواصة وتولى تقليد السلطان وحيد الدين السادس السيف عند ارتقائه العرش، وانعم عليه برتبة الوزارة، ولما قامت حركة مصطفى كمال بعد الحرب أيدها السيد أحمد الشريف، وأقام في مرسين. ثم أخرج من تركية لاتصاله ببعض أعضاء الاسرة المالكة العثمانية فقصد دمشق، ورحل منها إلى الحجاز حيث أكرمه الملك عبد العزيز بن سعود، وأقام في المدينة المنورة وتوفي فيها.

أما السيد محمد ادريس (١٨٩٠ - ١٩٨٣) فقد تولى رئاسة الحركة السنوسية بعد ابن عمه السيد احمد الشريف، وأصبح فيها بعد أميراً ثم ملكاً على ليبيا في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ وخلع في أول أيلول في ثورة العقيد معمر القذافي.

السيد أحمد السنوسي الضارب خيامه على مسافة ميل من قلعة سلوم. وكانت لقاءاتنا بالسيد أحمد السنوسي تتم تحت جنح الظلام خوفاً من تسرب الخبر إلى الانكليز، لأن السيد أحمد كان متصلاً بقواد الحدود المصرية، ولم يكن راغباً في قطع علاقته بهم خوفاً من انقطاع المسابلة بينه وبين مصر التي كانت المنبع الوحيد الذي يمون منه جيوشه، لأن الطليان من جهة، والفرنسيين في حدود واداي، وتقاتل الطليان على طول الساحل الأفريقي الشمالي من السلوم إلى حدود تونس. كما أنه لم يرغب أن يخاطر بفناء جيشه وحرمانه القوت قبل أن يتحقق من درجة المساعدة التي تسديها إليه الحكومة العثمانية في الحرب ليحقق مقاصده السياسية عند النجاح، مع أن (الكولونيل) سنو، و (الكابتن) رويال، من ضباط خفر السواحل المصري، ومعهما الضابط المصري أديب أفندي، كانوا يترددون دائماً على السيد أحمد، وكانت الحكومة الانكليزية، على ما بلغني، باذلة جهودها بواسطة ممثليها في مصر للمحافظة على الود والصداقة مع السنوسي، والتوسط لابعاد الضباط العثمانيين عن حاشيته.

وكان في ذلك الحين في معية السنوسي ضباط وجنود من أبناء العرب والترك متطوعين في خدمته، ما عدا القبائل والعشائر من سكان شمالي افريقية. وكان في مقدمة هؤلاء نوري باشا أخو أنور باشا والزعيم (الميرآلاي) موسى بك اليماني والعقيد (القائمقام) وصفي بك والعقيد (القائمقام) أحمد بك، وكثير من الضباط الذين تتراوح رتبهم بين ملازم ومقدم (بيكباشي) وكان عدد هؤلاء الضباط عشرين، وكان هنالك، ما عدا ذلك، معمل صغير لإصلاح البندقيات، وملء الخراطيش، في بئر واعر، بإشراف محمد بشير صالح التونسي.

وكان الجيش السنوسي منظّماً على أساس تقسيم القبائل، ولم تكن ثمة تقسيمات عسكرية على النمط المألوف. فاشتغلنا ونوري باشا في تأليف قوة عسكرية، وتنظيم الجيش تنظيماً يسهّل قيادته. فكلفني نوري باشا بعد الحصول على موافقة السيد أحمد السنوسي بأن أتسلم قيادة القوات النظامية والقبائل ما عدا بعض الوحدات الخاصة مثل فوج (طابور) الطلبة المحافظين، وكانوا جميعاً يعدون أربعمائة من طلبة العلم وحفظة القرآن، وكانوا مسلحين بأحدث الأسلحة ووظيفتهم المحافظة على حياة السنوسي وإقامة الحرس في أطراف الزاوية السنوسية. وكانوا يرتلون القرآن بصوت

جهوري مدة الحراسة، ولم يخل ذلك من التأثير العظيم في كل من يشهد ذلك الخشوع والإجلال. وما عدا هذا الفوج (الطابور) تألف فوج آخر في بئر واعر من ألف جندي، وكان قائد هذه الوحدة وجانب من ضباطها من الضباط الترك. وكانت بقية القوة المؤلفة من فوج النموذج (نمونة طابوري) وأفواج تسمى بإسم القبيلة التي ينتمي إليها أفرادها، وقوة المدفعية والرشاشات مرابطة أيضاً بجوار زاوية السيد أحمد السنوسي. وكانت التمارين العسكرية تجري على أصول تدريب الجيش التركي، وكانت الايعازات أيضاً باللغة التركية. وما عدا فوج النمونة الذي كان معظم ضباطه، وقسم قليل من جنوده، من الترك، كانت القوة كلها من سكان تلك البلاد، وكان يقود الوحدات بعض الضباط ورؤساء القبائل أو أبناؤهم الذين تدربوا تدريباً عسكرياً بما حصلوا عليه من الممارسة منذ اعتداء الطليان على بلادهم سنة ١٩١١ . وكانت القوة مؤلفة على الوجه التالي:

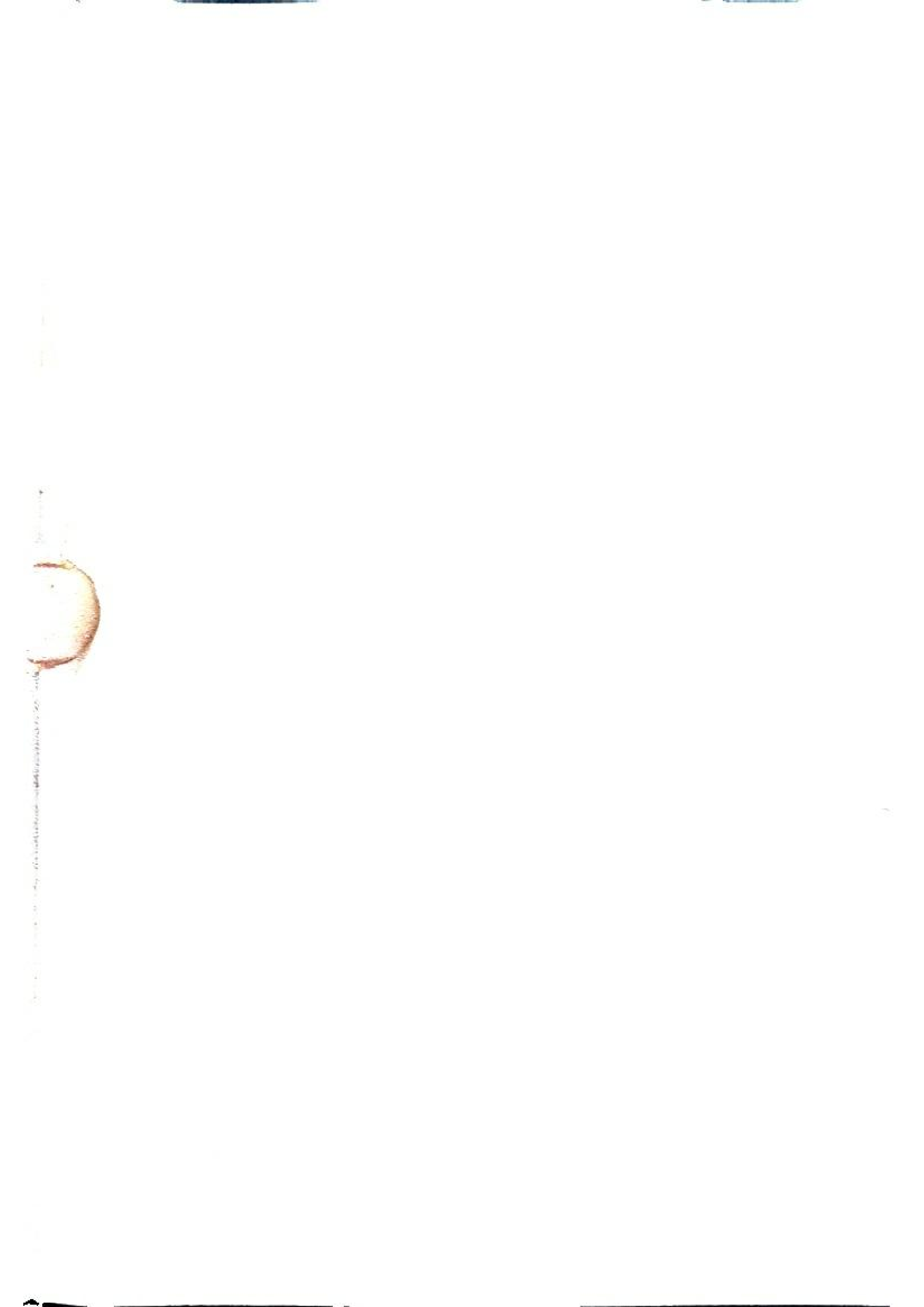
المقر
فوج النمونة (الفوج النموذجي)
فوج البراعصة
فوج المنفة
فوج العوافير
فوج الحراسة والمدرسة
فوج طوارق وتبو
مفرزة الرشاشات
مفرزة المدفعية
مفرزة الخيالة
نقلية الجيش

وكانت قوة كل فوج من هذه الأفواج تتراوح بين ٣٠٠ و ١٠٠٠ جندي حسب الموسم والحاجة والموقف.

وبالطبع كان تموين هذه القوة وإعاشتها محتاجين إلى مصادر أمينة ومال كاف. ولما كانت الطريق المؤدية إلى طرابلس الغرب وإلى الجنوب مسدودة في وجه القوات

السنوسية لذلك كان المورد مصر وحدها. فكانت هذه الحالة تجعل السنوسي دائماً مضطراً إلى مماشاة الانكليز ليتمكن من سدّ حاجاته، وكان الوضع يقضي بأن يداري جهتين متناقضتين ـ الانكليز والعثمانيين ـ وكان في قلبه يميل إلى الدولة العثمانية، وهذا مما لا ريب فيه.

وفي اجتماعاتنا السرية ليلاً مع السنوسي كنت أدير الحديث مع نوري باشا في موضوعات شتى لاراحة بال السنوسي، ولكن السنوسي كان دائماً يرتاب في الأمر ويخاف عواقبه.



الفَصْلُ الخَامِسْ

العَودة في طَلَب المَال والذَخيرة

في ذات يوم بعد وصولنا إلى بئر واعر بمدة شهرين تقريباً أصرّ السنوسي، على حمل الحكومة العثمانية على إمداده بالمساعدة المالية والعسكرية، وإلّا تعذر عليه القيام بحركة ما، ولا سيما على انكلترة، فكان الموقف يستوجب إنباء أنور باشا بذلك فوراً، لأن الذي فهمناه، أن بعض الضباط الطرابلسيين، مثل الدكتور عبد السلام، كاد يقنع السنوسي بتسليم نوري باشا والضباط الترك الآخرين إلى الانكليز. وكان الموقف حرجاً للغاية. وبعد المداولة الطويلة مع نوري باشا لا يفاد ضابط إلى تركية يحمل هذه الأنباء ويصل إلى نتيجة حازمة مع الحكومة العثمانية بتعيين الموقف مع السنوسي، لم نتمكن من إيجاد أحد، فتطوعت أنا بنفسي للقيام بهذه المهمة الخطرة التي كنت أرى وجوب إنجازها بلا تأخير. فرتبنا مع السنوسي أن يزودني بوثيقة تنبيء بأنني أحد الاخوان السنوسيين في كفرة، وانني قاصد أداء فريضة الحج مع شخصين آخرين سمي أحدهما السيد محمد، والآخر السيد مصطفى المدني، وكان كلاهما في الحقيقة قاصداً الحج. وعند وصولنا إلى الاسكندرية بفضل السنوسي استقبلنا هناك السيد محمد الهاني، وهو وكيل السنوسي في مصر، ونزلنا في نزل بلدي حقير لكي لا نثير ريبة في أمرنا. وكنت دائماً أرافق رفقائي وانا مرتدٍ ملابسي السنوسية، وهي عمامة بيضاء، وملابس عربية اعتيادية. مع جرد أبيض ـ وهو إحرام كبير من صوف يقي شر الحر والبرد معاً ـ وكان لباسنا في النهار وفراشنا ليلاً.

بقينا في الاسكندرية مدة عشرة أيام قابلنا خلالها مدير شرطة الاسكندرية المقدم (الميجر) انغرام الذي نمّت ملامحه على أن بعض الشك يخامره في أمري، ولكن

صديقنا السيد محمد الهاني تلافى الأمر وبيّن له بأنني لم أترك كفرة طول حياتي، وأنني اشتغل دائماً في الدرس والتدريس، وكنت أحاول دائماً أن أقلّ من الكلام، وأجهد نفسي أن تكون كلماتي «سيبويهية» بقدر الاستطاعة. ومن حظي الحسن أن لهجتي فاتت المقدم (الميجر) أنغرام، لأنه كان يتقن العربية المصرية العامية فقط. فكنت أتظاهر كثيراً بأنني لا أفهم ما يقوله لي، فأطلب من رفيقي السيد محمد الهاني أن يفسر معنى كلامه. وفي الحقيقة أن موقفي كان حرجاً للغاية. وبعد أن دقق الوثيقة التي بيدي، والتي كانت بمثابة جواز سفر لي. ومذكور فيها أن «وفيّنا السيد محمد المدني قاصد البلاد الحجازية لأداء فريضة الحج فالرجاء مساعدته في حلّه وترحاله» وكانت ممضاة بإمضاء السيد أحمد السنوسي ومختومة بالختم الكبير المحفورة فيه عبارة «الحكومة السنوسية».

انتظرنا في الاسكندرية مدة عشرة أيام إلى أن تيسرت لنا باخرة إيطالية تسافر إلى المياه العثمانية فركبناها ووصلنا إلى يافا بعد أربع وعشرين ساعة، فنزلنا في يافا ومنها سافرنا إلى القدس حيث فارقت الأخوان السنوسيين في القدس لمقابلة جمال باشا آمر الجيش الرابع العثماني في مقره، وعرضت عليه موقفنا مع السنوسي، فأجابني بأن تلك المنطقة ليست تحت إمرته، واستغرب كثيراً هذه الحركة وقال «لماذا كل هذه الحركات العويصة؟» فقلت له: «ذلك لتخفيف الوطأة عن جيشكم لتحتلوا مصر». فأجابني بأنه مشغول بفتح سورية. وبعد أن يكمل مهمته هذه ويطهر البلاد من الخونة، سوف ينظر في احتلال مصر. ورجوت إليه أن ينبيء القيادة العامة بوصولي مفصلاً لهم مشكلاتنا. وبعد يومين أتته الوصايا بمساعدتي بقدر المستطاع وبتسهيل مهمتي، وإذا أمكن أن أحضر بنفسي إلى الآستانة لمقابلة انور باشا، فأخبرته بأن الوقت ضيق ولا بدّ من الاسراع لئلا تحدث أمور تجعل الضباط والجنود العثمانين الموجودين لدى السنوسي في مأزق خطر. فقال لي «ما هي الواسطة لإرسال الذخائر والتجهيزات والنقود إلى شمالي افريقية؟» فأجبته «بأن الوسيلة الوحيدة هي تحميلها في مركب بخاري صغير أو سفينة شراعية. فضحك وقال «لا يوجد تحت إمرتي مجانين يأخذون هذه المهمة على عاتقهم». فأجبته بأن ليس من الضروري أن يكون الضابط الذي يأخذ على القيام بهذه المهمة مجنوناً. بل أن هذه المهمة هي في نظري أسهل كثيراً من مهمة آمر فصيل يهجم على رشاشة عدو بفصيله. فأغتاظ من جوابي هذا لأنه كان

سريع الغضب، واعتبرها سخرية مني، فتداركت الأمر وقلت له «أنني ذهبت بنفسي مع نوري باشا (أخي أنور) من بلاد اليونان إلى السنوسي حاملين ذخائر ونقوداً فوصلنا إلى هدفنا سالمين، كما أنني أنا نفسي، أتيت من السنوسي بطريق مصر إلى هنا بسلامة، وأنني أقدم نفسي للقيام بهذه المهمة». فانقلب غضبه إلى سرور وأصدر الأوامر إليّ وإلى حلب جلال بك، ووالي بيروت بكر سامي بك. وإلى قيادة المستودعات، بتجهيزي بما أطلبه من التجهيزات والذخائر والوسائل النقلية والنقود. فذهبت إلى حلب وقابلت الوالي فتمكنا من أخذ حوالة نقدية من بعض التجار الحلبيين إلى بعض التجار في الاسكندرية، كما أنني حملت القسم الباقي من النقود وسافرت إلى بيروت، وهناك قابلت بكر سامي بك، ولحسن حظي كان مرافقه علي صائب بك الذي هو الآن نائب «أورفه» في المجلس الوطني التركي، والمتهم بالتآمر على حياة الغازي أتاتورك، فسهل مهمتي كثيراً مع الدوائر ذات الشأن في بيروت. فأشتريت سفينة شراعية حمولتها مائتان وخمسون طنا بواسطة أحمد باشا الشرقاوي، وخليل باشا عبد العال، وأرسلت الأسلحة والذخائر مع مقدار من الأطعمة اليابسة إلينا من الشام، فوضعناها في المركب الشراعي، وبقينا نتحيّن الفرص للاقلاع من مرفأ بيروت، لأن كثيراً من المراكب الحربية الانكليزية والروسية كانت تتجول على سواحل سورية. وفي ذات ليلة من أواسط شهر حزيران سنة ١٩١٥، الذي صادف اشتراك إيطاليا في الحرب بجانب الحلفاء، ودّعني صديقاي الأمير عادل أرسلان، وناجي بك الأصيل، ونحن ننشر شراعنا للاقلاع من بيروت، وتمكنت من استصحاب ضابط مع ثمانية جنود من أبناء العرب في هذه الرحلة. وكان طاقم السفينة مؤلفاً من رئيس واحد وأربعة نوتية، وكانوا جميعاً من الشبان الطيبين، ولكن خبرة رئيس البحرية لم تكن أوسع من خبرتي أنا في سلك الأخير، وهنا خطرت ببالي ملحوظة جمال باشا بهذا الصدد.

كانت الليلة قمراء، والنسيم عليلاً، فخرجنا من ميناء بيروت متوجهين شمالاً مع مهب الريح فوصلنا بعد يومين إلى بلدة «علائية» على شاطيء الاناضول الجنوبي، وبقينا مدة يومين، ثم أقلعنا متوجهين جنوباً تاركين رودس وكريت إلى يميننا، وبعد سبعة أيام وصلنا ساحل افريقية إلى نقطة واقعة إلى غربي السلوم تسمى «بورت سليمان».

كانت السفرة شاقة نوعاً ما لأن الرياح كانت تتلاعب بنا من كل جانب. وكنا أحياناً نضطر إلى تنزيل الشراع عندما نرى من بعيد دخان باخرة خوفاً من الوقوع في الأسر. وحدثت حادثة غريبة في بابها وهي أنه قبل وصولنا إلى الساحل الافريقي بعشرين ميلاً تقريباً. وكان الوقت قريباً من منتصف الليل، شاهدنا باخرة تقترب منا. فأنزلنا الشراع على الفور. ثم أنزلنا براميل الماء الفارغة التي معنا وربطنا بها صناديق النقود، وأصدرت الأوامر بأنه عند اقتراب الباخرة، وإطلاق النار علينا، ان نثقب السفينة، ونرمي بأنفسنا مع البراميل، لتحملنا الأمواج إلى حيث شاءت. وبالفعل بدأ «مراد طبالو»، وهو أحد البحارة يثقب قعر السفينة. فأدلينا بالبراميل مع القارب الصغير الموجود في السفينة إلى البحر. وقفت الباخرة التي شاهدناها مدة دقيقتين أو ثلاث دقائق على مسافة ربع ميل منا تقريباً ثم أسرعت متباعدة عنا بسرعة هائلة. وأنني اعتقد حتى الآن أن تلك الباخرة حسبتنا غواصة معادية فهربت منا.

سلامة العودة إلى السنوسي

بعد هذه الحادثة واصلنا السير جنوباً فوصلنا قبيل الفجر إلى «بورت سليمان» التي سبق ذكرها، وعند دخولنا هذا الميناء الطبيعي الصغير قابلنا الحرس السنوسي، الموضوع على الرابية المتسلطة على الميناء، بإطلاق رصاص البندقيات. فلوحنا لهم بعلم أبيض، واتصلنا بمعسكر السنوسي الذي لا يبعد عن ذلك المكان سوى مسافة ستة أو سبعة أميال. فجاءت الجمال مع الجنود فأفرغنا السفينة، وهناك رأيت ضابطاً المانيا كان في خدمة السنوسي مدة طويلة يسمى الملازم «فون غوتنبرغ» فرجاني أن يرجع في السفينة إلى سواحل سورية. فرافق البحارة وهم مصطفى والأخوان محمد ومراد طبالو. فأقلعوا عصر ذلك اليوم متوجهين شمالاً. ولكن اتصل بي بعد أن أسرني الجيش الانكليزي أن السفينة وقعت في أيدي البوارج الانكليزية التي كانت تخفر السواحل. وقد التقيت بمراد طبالو الذي قص عليّ رواية أسره مع باقي البحارة، والضابط الألماني الذي فصلوه عنهم عند وصولهم إلى الاسكندرية.

تطوع بعد ذلك مراد طبالو أيضاً معي في جيش الشريف وقام في سبيل قومه بخدمات يشكر عليها.

قابلني نوري باشا ـ أخو أنور باشا ـ في «بورت سليمان»، فرويت له كل ما دار

من الحديث بيني وبين جمال باشا، والتقرير المفصل الذي رفعته إلى القيادة العامة في الاستانة عما دار من الجدال والمحاورة بيننا وبين السيد أحمد السنوسي، وسلمت إليه قائمة تتضمن مقادير النقود والأسلحة وباقي الذخائر والتجهيزات التي أتيت بها مع برقية أنور باشا التي أيدنا فيها باتخاذ الوسائل الممكنة للمحافظة على الارتباط بنا وبإعداد غواصات لنقل الذخائر والمعدات إلينا من حين إلى آخر.

ثم قابلت السنوسي، وبينت له بصورة مقنعة حسن نيات الحكومة العثمانية، ولا سيما أنور باشا، نحوه، ولولا أهتمام أنور باشا بالسنوسي وحسن نيته نحوه لما أرسل أخاه لخدمته. وكنت أراه خائفاً مرتاباً. لأن قواته كانت في الحقيقة غير قادرة على مناوأة الطليان من الغرب والفرنسيين في جنوبي كفرة، والانكليز من الشرق. ولم يكن له منفذ ما سوى البحر. وكان البحر مسرحاً لأساطيل الحلفاء. أجل كان يدور في خلدي حراجه الموقف وعدم التوصل إلى النتيجة المطلوبة من هذه الحركات، ولا سيما بعد أن أطلعت على آراء جمال باشا. وعدم تفكيره في إعادة الكرّة على ترعة السويس لاقتحامها.

وفاتني أن أذكر مبلغ استعداد الجيش البريطاني في منطقة الترعة عند مرور الباخرة الإيطالية ببورت سعيد في شهر نيسان سنة ١٩١٥ حين رجوعي متنكراً إلى سورية. شاهدت البوارج الحربية راسية. والمنطقة كلها مزدحمة بالمراكب ونقالات الجنود والمعدات الحربية والطيارات تحوم أسراباً من حين إلى آخر، ولكننا كنا نؤمل أن تلتحق بنا قبائل مصر، وتقوم بعض الثورات الداخلية في المدن المصرية فتتسرب عصابات إلى مصر فتثير حروب العصابات ونشغل ما نتمكن من إشغاله من القوات العسكرية المعادية. وكنت أبين للسيد أحمد السنوسي أنه ربما بهذه الحركة يتمكن من الحصول على وضع سياسي تعترف به الدول. ولتوسيع الحركة أرسل السنوسي بعض الهدايا والكتب الواردة من الاستانة إلى السلطان «علي دينار» أمير «دارفور» للاشتراك معنا. وفعلاً دخل الرجل هذه المعمعة ولكنه لم يفز بشيء بل قتل في إحدى المعارك. فاستولى الجيش البريطاني استيلاء تماماً على «دارفور».

وكنت دائماً أتحدث إلى كبار السنوسيين، ولا سيما الدكتور عبد السلام الذي كان من المقربين إلى السيد أحمد، فأراهم جميعاً متشائمين من الموقف، ومن الهجوم

على مصر الغربية. ومن الغريب أن كان عند السنوسي رجل من منجّمي الجزائر، فكان دائماً يحسب بالاسطرلاب ويعدد أسماءنا واحداً واحداً، وكانت الأبيات التي يستنتجها من حسابه جميعاً تنبيء بخيبة الحركة. وكان هذا مما يحمل السنوسي على التردد في عزمه، ويتذمر إليّ من وقوعه في هذه الورطة. فكنت أسرّي عنه روعه بقولي: «لا تصدقوا المنجمين يا سيدي فان كل منجم كذاب، وقد قيل: كذب المنجمين وصدق رب العالمين».

وكنت أتلو عليه بعض الآيات الكريمة المشجعة لتشديد عزيمته. وكان الاستعداد للحرب قائماً على قدم وساق، والمتطوعون يتوافدون من الجنوب والغرب. وبدأ الاتصال بقبائل أولاد علي القاطنين في مصر الغربية بواسطة الأخوان السنوسيين القائمين على شؤون الزوايا السنوسية المنتشرة من تونس غرباً إلى الاسكندرية شرقاً، ومن سواحل البحر المتوسط شمالاً إلى وادي فزان جنوباً. وكانت هذه الزوايا مدارس صغيرة منتشرة بين الناس تعلمهم أصول الدين الإسلامي على المذهب المالكي، وتجعل أولئك الذين يتبعون الطريقة السنوسية إخوانا متكاتفين متساندين، وكانت تعاليمهم تنمّ عن الرجولة والشجاعة والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل إعلاء شأن الدين الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية. فنجحت هذه الطريقة نجاحاً باهراً في قلب افريقية وسواحلها الشمالية. وامتدت زواياها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة أيضاً. ولا حاجة إلى سرد منشأ السنوسي وتاريخه ومبادئه، لأنها من الأمور المعلومة المدونة في بطون الأسفار المقروءة، سواء أكان ذلك في اللغة الغربية أم في اللغات الأفرنجية. مثل دائرة المعارف البريطانية وغيرها.

غير أنه لا يخلو من الفائدة الالماع هنا إلى الحركة السنوسية الأخيرة، وهي أنه بعد وفاة السيد محمد مهدي السنوسي تولى الرئاسة السيد أحمد الشريف السنوسي، وهو ابن عم السيد محمد مهدي المذكور. وكانت رئاسته مؤقتة إلى أن يبلغ السيد محمد إدريس ابن السيد محمد مهدي سن الرشد. ولكن على تتالي الأيام، ولا سيما على أثر غزو الطليان طرابلس الغرب وبرقة، أخذ نفوذ السيد أحمد يزداد يوماً فيوماً. فولى أخوته السيد محمد صفي الدين على منطقة طرابلس الغرب وجبل خامس، وولى أخاه الثاني السيد محمد العابد على المنطقة الجنوبية، وأبقى أخاه السيد هلال في معيته

يستخدمه في مهام شتى، وكان يرافقه دائماً السيد محمد إدريس، والسيد محمد رضا، أولاد السيد محمد مهدي في حله وترحاله.

ان الخدمات التي قام بها السنوسيون على رأس قبائل طرابلس الغرب وبرقة في أثناء الغزوة الطليانية ساعدت الجيوش العثمانية كثيراً في تلك المناطق، حتى أنه بعد عقد الصلح بين إيطالية وتركية استمر السنوسيون على مناوشاتهم ومحارباتهم من سنة ١٩١١ إلى نهاية الحرب العظمى، واستيلاء الطليان على جميع الواحات والمراكز السنوسية النائية. وقد بلغني ويا للأسف أنه عند الاستيلاء على كفرة عاصمة السنوسيين، أبيح للجنود الإيطاليين التمثيل بالقتلى وهتك الأعراض بصورة فظيعة. ولا شك في أن ما قامت به قبائل افريقية الشمالية في هذه المناطق لم يكن بداع سوى المحافظة على أوطانهم ومنع الغريب من استعبادهم وسوقهم إلى خدمة سوق الأنعام، فكانت الحروب التي تثيرها القبائل هناك في أحوال قاسية للغاية، وهي حرمانهم من جميع المعدات الحربية الحديثة، وعدم وجود أطباء كافين لمداواة جرحاهم، وفي كثير من الأحيان كان يعوزهم الزاد والطعام أيضاً. وبعد أن غادرت بقايا الجيش العثماني تلك البلاد، كان موردهم الوحيد الاستيلاء على مراكز العدو ونهب أسلحته وذخائره ومواصلة الحرب على هذه الصورة. وقد تكاثرت البندقيات الإيطالية المستولى عليها ما عدا المدافع القليلة والرشاشات، حتى أرغم الطليان على الالتجاء إلى خدع فتاكة ذميمة، وهي أنهم أخذوا يعملون الخراطيش ويملأونها بمواد متفجرة بدلاً من البارود، فيبثونها بواسطة جواسيسهم بين القبائل، وعند استعمالها كانت تنفلق البندقية، وأحياناً كانت تشوه صاحبها، فعليه اضطر السنوسي في المدة الأخيرة إلى جمع الخراطيش وفحصها وتوزيعها من جديد على القبائل ـ الأمر الذي كان يكلف نفقات لا قبل له بها، وضياع وقت ثمين من أجل ذلك.

كان أحد أصحابي من الضباط العثمانين، وهو المسمى الملازم عبد الله، يقود جماعة سنوسية قبيل الحرب العظمى، وقد حدثت واقعة تمسكت، فانتصر فيها السنوسيون واستولوا على ما يقارب ألفي بندقية وبطرية مدافع جبلية وبضع رشاشات. وكان الملازم عبد الله يروي لي نوادر طريفة عن حالة الجنود الطليان في وقائعه معهم. من ذلك أنه خرج ذات يوم للاستطلاع مع مائة مقاتل إلى موضع

إيطالي محصن في منطقة الجبل الأخضر. وكانت تشغل الخنادق الأمامية قوة إيطالية تزيد على قوتهم كثيراً. ولما أصبحت هذه القوة السنوسية على مقربة من خط الدفاع الطلياني قفز الضباط الطليان إلى الأمام للقيام بهجوم مقابل صارخين «تقدم» (Avanti)، فما كان من الجنود ألاّ أن صرخوا مرحى (Bravo) لضباطهم الذين صرعوا قتلى أمام خنادقهم ولم يحرك الجنود ساكناً. والحقيقة أن هذه الحادثة اثبتت عدم رغبة الجنود الإيطاليين في مواصلة الحرب في أصقاع نائية خالية. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن كثيراً من الضباط العثمانيين. سواء أكانوا عرباً أم تركاً، تطوعوا لخدمة السنوسي طيلة هذه الفترة، ونخص بالذكر منهم أولئك الذين سبقت خدماتهم الجليلة هناك الغازي مصطفى كمال باشا (كمال آتاتورك) رئيس الجمهورية الحالي، وعلي فتحي بك سفير تركية الحالي في لندن، وأنور باشا وزير الحربية أثناء الحرب العظمى وعزيز علي المصري المعروف بوطنيته وصلابة عقيدته وأصالة آرائه، مؤسس حزب العهد في سنة ١٩١٣، وكثيرون غيرهم من الضباط الشبان ورجال الإدارة والأطباء. وان أنس فلا أنسى فضل الأخوان المصريين ومساعداتهم للقضية السنوسية بالمال والرجال. وكذلك البعثات الصحية.

الفصل السادس
محاولة إثارة السنوسي على البريطانيين

وفي أواسط ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥، وصلت غواصة إلى «بورت سليمان» حاملة الى السنوسي قليلاً من الأسلحة والذخائر الحربية مع نقود وأوسمة حربية برفقة الضابط جمال الغزي وضابطين آخرين. فذهب نوري باشا، أخو أنور باشا، لمقابلة قائد الغواصة وأخبره بوجود مركب حربي صغير في ميناء السلوم. وبعد بضع ساعات ذهبت الغواصة الى مياه السلوم التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن بورت سليمان وأغرقت ذلك المركب الحربي المصري الصغير المختص بمصلحة خفر السواحل. وكان لهذه الحادثة رنة شديدة بين القبائل.

تسلم نوري باشا أخو أنور باشا الأوامر المشددة من قبل القيادة العامة في الاستانة باتخاذ جميع التدابير المستعجلة لحمل السنوسي والقبائل على الهجوم على الحدود المصرية الغربية لمشاغلة ما يمكن مشاغلتها من القوات البريطانية في جبهتنا الممتدة من البحر المتوسط الى جنوبي دارفور. ولا شك في ان هذه الجبهة لم تكن مثل خط هندنبرغ، بل كانت مؤلفة من جماعات صغيرة مبعثرة على طوار الخط الذي ذكرناه، منفصلة بعضها عن بعض ببواد وقفار. وكان الاتصال بين تلك الجماعات ضعيفاً جداً، بحيث كان كل منها يشتغل حسب ابداعه لاستمرار الحركات الحربية ولتشويق القبائل المنتشرة في داخل الحدود المصرية على الانضمام الينا. وان أنس لا أنس ذكر السيد هرون، من كبار الاخوان السنوسيين الذي كان يقطن في وسط قبائل أولاد علي المنتشرين على طوار الساحل من الاسكندرية الى السلوم، وكذلك خدمات محمد بك جبريل وأولاده وأخيه.

وكـان نوري بـاشا يفكـر في تأليف عصـابات صغيـرة للهجـوم عـلى المـراكـز العسكرية المصرية، أما السنوسي فكان حريصاً على التمسك بالهدوء وعدم التعرض للانكليز، وكان أصدر الأوامر المشددة إلى جميـع رؤساء القبـائل والضبـاط من ابناء العرب بصورة سرية بعدم الامتثال للأوامر التي تصدر اليهم من القيادة بنفوذ نوري باشا. ومن الجهة الأخرى كان مضطراً الى مماشاة نوري باشا خوفاً من انقطاع حبـل الصلة بينهما، الأمر الذي يؤدي إلى حرمانه مساعدة الحكومة العثمانية بالمال والذخائر الحربية. وفي هذه الأثناء طفقت الغواصات الالمانية والنمسـوية تـظهر من حـين إلى آخر. وبالفعل اغرقت سفينتين بريطانيتين بجـوار بورت سليمـان التي كانت ملجـأ للغواصات حينئذ وهما «تازا» و «مورينا» النقّالتان. فالتقطنا الرجال الـذين نجوا من الغرق في قوارب صغيرة وارسلناهم الى الداخل وكانوا في حـالة يـرثى لها من شـدة الصدمة التي أصيبوا بها فضلاً عن حرمانهم وسائل الراحة حتى الملابس. ولما كنّا نحن أيضـاً في حالـة لا نحسد عليهـا من حيث التجهيزات وأسبـاب الراحـة لذلـك كنـا نقاسمهم رزقنا الشحيح بكل صعوبة. وأخيراً راجع الكـولونـل سنو بـك آمر خفـر السواحل السيد أحمد السنوسي وطلب اليه تسليم اولئك الرجال، ولكن السنوسي أبى ذلك مراعاة لمقتضيات الحياد. ولكنه وافق على أن ترسل اليهم الأطعمة والملبوسات وبعض الخيم لايوائهم واعدا وعداً قاطعـاً بالمحـافظة عـلى حياتهم وتسهيـل مراسلة ذويهم.

قـابلت يوم نـزول أولئك البحـارة الى البر رئيس السفينـة «كـواتكن وليمس» وبعض الضباط، وتمكنا من التفاهم ببعض العبارات الفرنسية والألمانية، لأنني كنت حينئذ أجهل اللغة الانكليزيـة جهلاً تـاماً، ولا أعـرف منها سوى عبارة (Alright). فرأيتـه متأثراً جداً من حالة بعض البحارة الذين أصيبوا برضوض وجروح من جراء الانفجار في الباخرة، وكانت حالتهم تنذر بالخطر، ويطلب بالحاح إسعافهم إسعـافاً طبياً بالسرعة الممكنة. فأستدعينا الدكتور بشير من معسكر بئر واعر مع طلب الأدوية والضمادات، فأسعف الجرحى بقدر الامكان. وقضينا ليلتنا في خيمة صغيرة معهم، وفي اليوم الثاني أرسلوا الى الداخل إلى جـوار «بئر حكيم». وفي هـذه الأثناء كـانت بوارج الحلفاء أيضاً مضيقة الخناق على الساحل قاطعة كل علاقة لها بالخارج. وذلك أن ثلاث إرساليات أرسلت الينا لم تصل. واتصل بي أن الفرنسيين استولوا على اثنتين

منها، والأخرى أغرقت، لأن انقاض تلك الارسالية وبقاياها جرفتها الأمواج الى شواطىء دفنة لرملية فالتقط الأعراب كثيراً من الوثائق والكتب الرسمية، وأتوا بها الى السنوسي.

فكر نوري باشا في أحد ايام ايلول سنة ١٩١٥ في الهجوم على قلعة السلوم وجعل الحرب بين السنوسي والانكليز أمراً واقعاً، ولكنه لم يفلح في ذلك لأن وجود السيد أحمد نفسه بجوار السلوم كان رادعاً كافياً عن تصدي القبائل والجنود الموجودين هناك لمثل هذه الحركة. وأخيراً تمكن نوري باشا من إقناع الضابط الطرابلسي أحمد مختار والسيد أبي القاسم ابن السيد العيسوي، رئيس زاوية بنغازي والذي كان من المقربين الى السنوسي ومن وزرائه المتنفذين، ومعهما مقدار خمسين متطوعاً، فجاوزوا الحدود وهجموا على نقطة «سيدي براني» التي تبعد مسافة عشرين ميلاً عن السلوم. فاحتجّ الانكليز على هذه الحركة، وأغتاظ السنوسي من نوري ومني بصورة خاصة لأنني كنت قائد القوة النظامية. فتجاهل نوري باشا أمر هذه الحادثة، والقى التبعة على السيد أبي القاسم الشاب، وعلى الملازم أحمد المختار. وتهدئة للحالة أمرني السنوسي بالذهاب بنفسي وجلب أبي القاسم وجماعته من داخل الحدود المصرية. فركبت سيارة مع الكابتن رويال، وذهبنا الى جوار سيدي براني، وبعد التفتيش عنهم بين الهضاب مدة ساعتين أو ثلاث ساعات عثرت عليهم فأبقيت الكابتن رويال مسافة نصف ميل بعيداً عنا، وكلمت أبا القاسم وافهمته حراجة الموقف ووجوب رجوعه دون أن يأتي الى المعسكر لأن السنوسي كان غاضباً جداً عليه وعلى أحمد مختار لتصدّيهم لمثل هذه الحركة بلا موافقة مبدئياً. فقبل بنصيحتي ووافق على الرجوع مع جماعته في ذلك اليوم ذاته. فرجعت أنا ورويال الى السلوم، وطمأنت السيد أحمد السنوسي بأن أبا القاسم وجماعته رجعوا من الأراضي المصرية امتثالاً لأوامره، فغضب وأرعد وأزبد، وطفق يهددنا بصورة مزعجة.

وبعد بضعة أيام أمر السنوسي بتعقيب الفلول التي بقيت في اراضي مصر وارجاعها بالقوة، فذهبت مفرزة فوج (طابور) عشيرة المنفة فأصطدمت بالملازم أحمد مختار وجماعته، فقتل أحمد مختار في تلك الواقعة، وأسفنا جد الأسف لفقدانه لأنه كان من الشبان المثقفين في المدارس الحربية العثمانية، وكانت له مواقف مشرفة في مكافحة

القوات الايطالية من حين إلى آخر، وكان من المقربين الى السيد ادريس، وكان اتصاله بي وثيقاً نظراً لصداقته لأخي تحسين الذي خدم أيضاً مدة طويلة في الجيش السنوسي قبيل الحرب العظمى، وكان في معية مصطفى كمال باشا (كمال آتاتورك)، ومن محبذي أفكار مصطفى كمال التي كانت وآراء أنور باشا على طرفي نقيض. واتذكر جيداً أنه لما رجع أنور باشا من طرابلس الغرب في اثناء الحرب البلقانية، وعين لرئاسة أركان الفيلق العاشر، وكنت من ضباط تلك الأركان الحربية، اتفق رجوع أخي تحسين أيضاً من طرابلس الغرب، فأردت أن اعرّفه على أنور ولكنني شعرت بعدم ميل الفريقين الى تلك المقابلة فلم أصر عليها. وعلمت حينئذ من أخي تحسين ان سبب هذه النفرة تتلخص فيما يلي حسب روايته بحرفها:

«لما كنا نحارب الطليان في ليبية في أثناء حرب طرابلس الغرب بين ايطالية والدولة العثمانية كان مصطفى كمال بك (الغازي آتاتورك رئيس الجمهورية التركية الآن) قائد منطقة درنه، وكان أنور بك (أنور باشا بعد ذلك) قائداً عاماً في ميدان بنغازي. وكانا يختلفان كثيراً في آرائهما في التعبئة وترتيب القوات العسكرية وغير ذلك. وكانت معارضة أنور كثيراً ما تسبب وقوع الخسائر الفادحة في قوتنا على ضعفها. أما مصطفى كمال فكان بعكسه، لأنه كان كلما أراد القيام بحركة توخى منها أن تنتهي إلى الفوز بأقل خسارة ممكنة، وكان يسعى لاستخدام تلك القوة لاطالة أمد المقاومة، فيحتفظ بما لديه من القطعات غير مجازف بها بلا طائل، لذلك كان يحث الضباط دائماً على التمسك بهذا المبدأ، ويوصيهم بتحاشي كل ما من شأنه أن يؤدي الى إضعاف القوة ويسبب خسارة في النفوس. وهذه المشاحنات بين مصطفى كمال وانور جعلت الضباط ينقسمون إلى حزبين، وكان الحزب الأكبر مائلاً إلى فكرة مصطفى كمال، وكنت أنا نفسي من جملة الضباط المؤيدين لرأي مصطفى كمال».

« واتفق يوماً بعد معركة درنة التي وقعت في اواسط شهر آب سنة ١٩١٢ أن رغب أنور بك في قيام القوة بالهجوم على مواقع الطليان المنيعة في مدينة درنة وضواحيها. فخالفه في ذلك مصطفى كمال بك وطلب من الضباط ان لا يلبّوا طلبه. وامتنع مصطفى كمال نفسه من الاشتراك في هذه الحركة لعلمه الأكيد بحبوطها لأن الطليان كانوا محصنين مواقعهم باستحكامات ومعاقل متينة بحيث انهم جعلوها قلاعاً

منيعة يحميها أسطولهم البحري من الوراء والجانبين، فضلاً عن تجهيزها بأحدث الاسلحة والمعدات الحربية. فدام الهجوم يوماً كاملاً وعدنا من الموقعة الى معسكراتنا خائبين، بعد أن خسرنا ثلث قوتنا، وعاد الثلث الثاني جرحى. وهذه الواقعة أثرت طبعاً في قوة العشائر السنوسية المعنوية، وكانت تلك العشائر القوة الوحيدة التي استند اليها الجيش العثماني في محاربة الطليان في تلك الاصقاع».

«وبعد أن رجعنا الى المعسكر جرى الحديث عن تلك الخسارة الفادحة مع أنور، فكان جوابه للضباط قاسياً إذ قال: «هل اشتريناهم بمالنا؟» وهو يريد بقوله هذا ان لا قيمة لنفوس العشائر العربية. وهذا مما زاد في نفرة الضباط (لا سيما العرب منهم) من انور واعماله، وفي الوقت عينه اشتد حبهم وتعلقهم بمصطفى كمال. وظل النفور من انور في اشتداد مستمر الى ان وضعت تلك الحرب اوزارها. وكان موقف عزيز علي بك المصري (عزيز علي باشا الآن) ازاء أنور مثل موقف مصطفى كمال، حتى بات التوتر بينهما علنياً ولم يخف شيء من ذلك على الضباط. فكان كلما نجح عزيز علي في بنغازي، امتعض من ذلك أنور كأنه اعتبر نجاح عزيز علي فوز عدو، ومع أنه كان عليه أن يرتاح الى نجاح زميله لأنه كان لمصلحة الدولة التي يخدمانها. وكان ما كان بعد ذلك من أمر عزيز علي مع أنور، حتى أن أنور سعى فيما بعد لاعدام عزيز علي لمجرد انتقام شخصي منه وكاد يفلح في عمله الشرير، على ما هو معلوم عند الناس».

وعلى أثر الحادثة التي ذكرتها الآن كلمت السيد أحمد السنوسي بكلام مناسب، فهدّأت من روعه، وبينت له من جهة أخرى ان لا فائدة من الوقوف موقف الشك في مثل هذه الحالة، وأن لا يؤمل خيراً من موقف الطليان لأنهم انضموا الى الحلفاء، وليس ثمة وسيلة للتخلص من شرهم وانقاذ البلاد منهم الاّ بالاستفادة من الموقف والانضمام بكل قوته إلى الدولة العثمانية، ولا فائدة من التردد والمراوغة، لا سيما وأن الشعور العام في مصر والبلاد المجاورة يميل إلى الدولة العثمانية الاسلامية ميلاً أشد من ميله إلى غيرها، فيجب الاستفادة من الظروف، وعدم افلات الفرص السانحة من اليد.

بدء العداء الجدّي

على أثر عودة أبي القاسم أفلت البعض من جماعته ملتجئين إلى الزوايا السنوسية

بين مرسي مطروح وسيدي براني، وتفشت الحركة والدعاية بين قبائل أولاد علي وجعلتهم متهيئين للانتفاض على الحكومة. وبعد مدة قصيرة ظهرت دورية مختلطة من القوات الانكليزية وخفر السواحل في منطقة وادي ماجد والنجيلة إلى غربي مرسي مطروح، وجرت مناوشة بين القوات الانكليزية وأولاد علي، فقتل في الواقعة سيدي عبد العزيز، رئيس زاوية النجيلة، وكثير من أبناء أولاد علي الموالين للسنوسي. وعند حصار إحدى المغاور في وادي ماجد قتل الكولونل سنو، فكان لهذه الحادثة تأثير شديد في السنوسي، لأنه بات في موقف لا يمكنه السكوت عنه، بالنظر إلى قتل أحد كبار الأخوان السنوسيين في النجيلة، فاضطر إلى مماشاة الرأي الهائج، وهو الأخذ بثأر السيد عبد العزيز. فلما اشتد الهياج اضطرت حامية السلوم المصرية الصغيرة الى ترك موقعها والانسحاب إلى جهة مرسي مطروح، واستولت القبائل على قلعة السلوم وعلى محل القيادة، وجرى النهب والسلب على العادة المتبعة في مثل هذه الأحوال، غير أنه لم يلحق ضرر ما بأحد من التجار ولا بأصحاب الدكاكين في السوق، بل ان الأيدي عبثت بمباني الحكومة وأموالها.

وتأثرت أنا نفسي شديد التأثر من منظر الصيدلية الموجودة هناك، إذ كان فيها من الأدوية والعقاقير الطبية ما يكفينا مدة طويلة، ولكن ويا للأسف، كانت الزجاجات مكسرة والعقاقير مختلط بعضها ببعض بحيث لم يبق أمل في الاستفادة منها الاستفادة المطلوبة. ولا تسل عن فرط السرور الذي استولى على نوري باشا من هذه النتيجة، فاضطررنا إلى التقدم خوفاً من وقوع الفوضى في المناطق التي تركها خفر السواحل، فوصلنا إلى قلعة «سيدي براني» في اليوم الثاني من هذه الحادثة، وذلك في اواخر تشرين الثاني سنة ١٩١٥.

وقبل هذه الحركة بمدة وجيزة كان يتوارد الينا المتطوعة من أولاد علي بواسطة محمد بك جبريل، وسيدي هرون، وكنا ألفنا فوجاً بأسم «فوج (طابور) أولاد علي» على نمط أفواج القبائل الأخرى. وعثرنا على بعض السيارات في سيدي براني، فأودعناها إلى اليوزباشي غالب بك لتصليحها واستعمالها لنقل الأخبار بين مقر السنوسي والقيادة. وبعد وصولنا إلى سيدي براني بيوم واحد التحقت بنا مفرزة الهجانة المصرية بقيادة آمرها المقدم (البكباشي) محمد صالح بك، وضباطها

(اليوزباشي) أديب افندي، والملازم أبي زيد، وضابط آخر لا أتذكر اسمه. فارتاح إلى هذه الحركة جميع القبائل السنوسية وزادت في قوانا المعنوية كثيراً.

وبعد أن رحّبت بالمفرزة وبقائدها ارسلتها إلى السلوم لتكون في معية السيد أحمد السنوسي، لأنني لم أر من المناسب استخدامهم معنا خوفاً عليهم في الدرجة الأولى. وبلغني بعد ذلك أن محمد صالح بك ورجاله قاموا بخدمات يشكرون عليها في الجنوب، حين حركات السنوسي على سيوة والواحات. ولكن الضابط أبا زيد أصر على البقاء معنا فلم أرفض طلبه. أما السبب الآخر الذي جعلني أبعدهم عنا فهو لأن النظام والضبط عندنا لم يكونا على ما يرام، لذلك كنت أخشى ان تذهب تلك المفرزة الجميلة المنظمة ضحية فوضانا، ثم ان الأحوال لم تساعدنا على تموينهم بانتظام بما يحتاجون اليه، الأمر الذي يؤول بلا ريب إلى هلاك الجمال وضياع اولئك الرجال.

وهنا اجتمعنا بنوري باشا فتقرر أن اتولى القوة الساحلية الزاحفة شرقاً على طوار البحر، فوافق السنوسي على ذلك، وتقرر أيضاً أن يؤلف رتل آخر غير نظامي يزحف من جغبوب إلى واحة سيوة شرقاً بقيادة عبدالله تمسكت، ورتل آخر أيضاً غير نظامي يزحف إلى جنوبي الرتل الثاني، وفي موازاته. وتركت قوة صغيرة في «بورت سليمان» للمحافظة على اتصالنا بالغواصات، ومن حسن حظنا أنهم كانوا طيلة هذه المدة واقفين موقف المدافع، لا يحركون ساكناً علينا، بل كان اهتمامهم منحصراً في اغراء العشائر ومعاملتها باللين والحسنى ليستفيدوا من الوقت في حشد قواتهم في الجبهات الأوربية. وكان الرتل الذي أتولى قيادته شخصياً مؤلفاً من القوات التالية:

المقر:

- مفرزة الخيالة المؤلفة من سرية بقيادة الملازم عثمان الارنؤوطي.
- فصيل مدفعية جبلية مؤلف من مدفعين جبليين صغيرين بقيادة الملازم فوزي.
- سرية رشاشات مؤلفة من أربع رشاشات وكانت رشاشتان منها روسيتين، ورشاشات انكليزية، وأخرى مكسيم تركية، بقيادة اليوزباشي نهاد.

ـ فوج (طابور) النموذج بقيادة الرئيس (اليوزباشي) محمد أمين الذي كان يرافقني من بيروت متطوعاً لهذه المهمة وكانت معرفتي بهذا الضابط النشيط قديمة، وذلك منذ كنت في دار تدريب الضباط بحلب وكان من الطلبة المتفوقين، وكنت أعطف عليه دائماً فجذبته تلك الرابطة إلى هذه المعمعة.

ـ فوج (طابور) المنفة بقيادة رئيس قبائل المنفة.
ـ فوج (طابور) أولاد علي بقيادة ابن محمد جبريل بك.
ـ فوج (طابور) العواقير بقيادة رئيسهم.

وبقي في مقر السنوسي بجوار السلوم فوج الطلبة المحافظين، وفوج الحراسة، وفوج الدرسة، وفوج البراعصة، وفوج طوارق وتبو.

بقينا في سيدي براني يومين لتجمع القوة. فزحفنا إلى الامام، ووصلنا إلى النجيلة في مرحلتين دون أن نلقى مقاومة ما. وقبل وصولنا إلى بئر ماجد في مكان كنا فيه على مسافة خمسة عشر ميلاً منها شاهدنا طيارتين بريطانيتين تحومان فوق الأرتال المنتشرة على الطريق. وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلنا الخبر بواسطة أولاد علي بأن رتلاً من الجيش الانكليزي يزحف بمدافعه على خط الساحل في جهة النجيلة. فأمرت فوج النمونة فوراً بالانتشار على الروابي واكتاف الوادي المتسلطة على طريق النجيلة. ولكن قبل ان يتمكن هذا الفوج من احتلال المحلات المطلوبة بدأت المناوشة بين قسم من فوج العواقير ومقدمة العدو. وعلى اثر ذلك اضطررنا إلى احتلال موقع متأخر عن الموقع الذي كنت أريد احتلاله. وقد دام القتال ساعة متأخرة من النهار، فكانت مدفعيتنا لا تؤثر التأثير الكافي في القسم المشتبك بالقتال من قوة العدوّ لأنني كنت مضطراً إلى إبقاء المدفعية خلفنا لحمايتنا من هجوم السيارات المدرعة.

وفي الساعة الرابعة (قبل الغروب بساعة واحدة) شاهدنا اقتراب سيارتين مدرعتين نحونا على الطريق الممتد من مرسي مطروح غرباً على موازاة البحر على مسافة خمسة أميال منه. فوجه أحد المدفعين ناره نحو المدرعتين المذكورتين واضطرهما إلى الابتعاد عنا دون أن نقع في فخ المفاجأة. فكانت المناوشة بسيطة ولم تقع فيها خسائر كبيرة سوى قتيلين أو ثلاثة قتلى وبضعة جرحى. وبعد الغروب تراجعت القوة البريطانية نحو مرسي مطروح على طوار الساحل.

وعلى أثر ذلك جمعت الضباط وتباحثنا في الخطة التي يجب السير عليها لأن بقاءنا في أرض مكشوفة بعيدة عن مصادر الماء مما يسبب تشتت الجيش. فتقرر الزحف إلى الأمام واحتلال وادي ماجد. وقد علمت من أولاد علي بأن كثيراً من المغاور مطمور فيها طعامهم وأن هناك أيضاً آباراً ومياهاً كافية تسد حاجتنا إليها. فأرسلت حالا بضعة جنود بقيادة ضابط إلى هناك ليستطلعوا الوادي ويعودوا إلينا على جناح السرعة. ولم تمض خمس ساعات حتى رجعوا ينبؤننا بأن لا أحد موجود هناك. فأصدرت الأمر بالحركة إلى وادي ماجد. فوصلنا إلى ذلك الوادي عند الفجر. وكنا جميعاً نفكر في أننا دخلنا قلاع «فردون»، لأنّ السيارات المدرعة لم تتمكن من السير في ذلك الوادي ولا من التأثير فيه. ولا تسل عن التأثير الأدبي الشديد الذي كان على معنويات رجال القبائل خوفاً من هجوم المدرعات، فكانت هذه الحالة تضطرني دائماً إلى سلوك الوديان والطرق الوعرة حيث لا تتمكن المدرعات من السير، مع أن ذلك كان يؤخّرنا في الحركة، ويقيد حريتنا كثيراً.

وبعد ذلك أخذنا نحصن الوادي من جميع نواحيه بانشاء معاقل صغيرة مسلطة على الطرق العامة المؤدية إلى مرسي مطروح من جانبي الوادي. وبقينا مدة عشرة أيام على هذا الوضع، ونحن نوفد مفرزات صغيرة إلى مرسي مطروح لازعاج القوة البريطانية المرابطة هناك. وكانت هذه الحركات تتكرر في كل ليلة لأن الغزاة كانوا يأتون بغنائم من أنعام ومواش.

وبعد وصولنا إلى وادي ماجد بيومين جاءنا نوري باشا مبلغا أياي ارتياح السنوسي لهذا التقدم السريع غير المنتظر، لأن أنباء كاذبة كانت وصلته عن الوقعة السابقة التي جرت قبل بضعة أيام مآلها أن السيارات المدرعة والطيارات أبادتنا جميعاً، وأننا وقعنا في أسر الجيش البريطاني، فأقلقت هذه الأخبار باله. وبعد المذاكرة الطويلة أبنت لنوري باشا أن الهجوم على مرسي مطروح والاستيلاء عليها غير ممكن بالوسائل المتيسرة لنا. فخير شيء نقوم به أن نشاغل العدو مشاغلة خفيفة، ونؤثر في خطوط المواصلات، فنعرقل حركاته. فعليه أصدرت الأوامر بارسال فوج (طابور) النمونة مع رشاشتين ومدفع واحد في جهة الصنبعة (وهي محطة بين الاسكندرية ومرسي مطروح) إذ قيل لنا إن هناك ذخائر ومؤونا حربية يمكن الاستفادة منها أو إتلافها حسب إمكاننا.

سافرت هذه المفرزة بقيادة المقدم (البكباشي) محمد أمين بك، ومعه آمر الرشاشات نهاد بك، والضابط المدفعي أحمد مختار، مع مدفع واحد. وبقي في وادي ماجد فوج المنفة، وفوج العواقير، وفوج أولاد علي، ومفرزة الخيالة، مع مدفع واحد ورشاشتين فقط. وكانت الطيارات البريطانية تحوم فوقنا من حين إلى آخر فتهدي الينا قذائفها النارية دون أن توقع فينا ضرراً بليغاً سوى تأثيرها المعنوي في القبائل، الأمر الذي أراحني نوعاً ما، لأن الأولاد والنساء والرجال غير المسلحين الذين كانوا عالة علينا ابتعدوا عنا غرباً فخففوا أعباءنا كثيراً.

ولم يصلنا نبأ ما من مفرزة أمين منذ ليلة رحيلها عنا. وكان السنوسي ترك السلوم وعسكر في سيدي براني ومعه فوج بئر واعر وفوج الطلبة وفوج طوارق وتبو وبضع رشاشات.

وبقينا إلى قبيل يوم عيد الميلاد في وادي ماجد دون أن نقوم بحركة تذكر، وكذلك العدو فأنه لم يأت بحركة ما سوى إرسال طياراته من حين إلى آخر للاستطلاع والقصف.

الفصل السابع
وقعة وادي ماجد

وفي ٢٤ كانون الأول ١٩١٥ فجراً فوجئنا بهجوم من الجهة الشرقية المقابلة لطريق مرسي مطروح. فبدأت المناوشة هناك. وكان لنا في تلك النقطة مدفع واحد ورشاشتان وسرية من فوج المنفة. فتوجهت فوراً في تلك الجهة من المقر الذي كان في منتهى الوادي، وكان طول الوادي ثلاثة أميال تقريباً، وقبل وصولي إلى محل الربيئة رأيت جنوداً متقهقرين تقهقراً هو في الواقع هزيمة أكثر من أن يكون تراجعاً. فأرسلت مفرزة الخيالة توا إلى الجهة اليمنى لمشاغلة المهاجمين وللحصول على الوقت الكافي لايقاف هذا الذعر، إذ رأيت البندقي الحاج كامل بك منهزماً حافي القدمين حاسر الرأس، وكامل بك هذا كان صديق نوري باشا وموضع ثقته، وكان في الحقيقة المحرك الأقوى لا يقاع النفرة بين الضباط العرب والترك. ولسوء الحظ كان شبيهي في ضخامة الجسم واللحية السوداء الأمر الذي أدى إلى انتشار الخبر أن جعفر باشا نفسه انهزم من المعمعه. وبصعوبة شديدة تمكنت من إيقاف المنفة عن الإنهزام بجلب باقي الفوج إلى موقع خلف الموقع الأول وكان هذا الموقع مشرفاً على البقعة المجاورة من جميع الجهات. وعند طلوع الشمس أنجلى الموقف فرأيت موضعنا محاطاً من جميع جهاته بالقوات المعادية على الوجه التالي:

شاهدت فوجي مشاة على وضع الانتشار متقدمين نحونا من الجهة الغربية وقوة راكبة كبيرة في اليمنة على مسافة ميل ونصف ميل من خيالتنا، ورتلا طويلاً يسير على طريق «مرسي مطروح ـ وادي ماجد»، وبارجة حربية راسية أمام الوادي تمشط الوادي بنيرانها. فكان المشهد مريعاً مخوفاً وكنت بكل صعوبة أجعل الجنود يثبتون في

أماكنهم. واستمر القتال إلى ما بعد الظهر دون أن نتضايق كثيراً. ولكن في الساعة الثالثة ـ أي قبل الغروب بساعتين تقريباً ـ ضيّق المهاجمون علينا الخناق بعد أن رجع كثير من رجال القبائل مع أثقالهم وأحمالهم إلى الوراء في جهة بئر عبدية بلا علم مني. فبقيت مع العواقير وحدهم في مصب الوادي نقاوم مستميتين. فاستولى الجنود النيوزيلنديون على مقرّي، ووقعت أمتعتي الشخصية والوثائق الرسمية وغيرها التي كانت في حيازتي في قبضتهم. ولا أعلم أين صارت تلك الأمتعة والوثائق حتى الآن. فلو بقيت تلك الوثائق في حيازتي لأستعنت بها في كتابة هذه الخواطر بما كنت جمعته من المعلومات المتعلقة بالسنوسي ورجاله وبلاده، وكانت عندي أيضاً مجموعة لا بأس بها من خرائط تبين مواقع الآبار وصهاريج المياه والمحلات الموجودة فيها معادن متنوعة وكان أهداها إليّ الريتمايستر مانسمان الألماني، أحد إخوان الشركة «مانسمان إخوان» المشهورة التي قامت بمشروعات هندسية كبيرة في مراكش. وبقي هذا الضابط مدة من الزمن عند السنوسي ثم سافر غرباً في جهة تونس، ولا بدّ من أن يكون ذلك في مهمة خاصة تتعلق بالجيش الألماني، واتصل بي أخيراً ان قطاع الطرق قتلوه طمعاً في ماله قبل أن يصل إلى المحل الذي كان يقصده. وكانت عندي مجموعة أخرى بين تلك الأوراق تحتوي على جميع المخابرات، التي جرت بيني وبين السيد أحمد السنوسي، وشد ما وددت لو أتيح لي نشرها في هذه الخواطر.

الفاصلة

عند غروب الشمس انسحبنا إلى الوراء تاركين جرحانا وقتلانا تحت رحمة العدو لأن كل الذي كان لدينا من العتاد والزاد نفد أو فقد. وركبت حجري البائسة وهي جريح برصاصة في أنفها. وهكذا سار الرتل المنكسر نحو بئر العبدية. ولما وصلت إلى ذلك المكان لم يبق معي سوى أربعة وعشرين رجلاً من العواقير لا غير.

وفي اليوم الثاني بلغني أن السنوسي ونوري باشا ومن معهم توجهوا نحو بئر تونس مع فلول الجيش المنكسر في وادي ماجد، وكنت أؤمل كثيراً أن نوري باشا لا يتردد في نجدتي بفوج بئر واعر والمدفعين السريعين الجبليين اللذين وردا حديثاً في غواصة من تركية لانقاذ الموقف. ولو تم ذلك لأفادنا كثيراً بعد الظهر بين الساعة الأولى والساعة الثالثة. ولكن لسوء الحظ أن فضيحة كامل بك البندقي، وكسره

معنويات القبائل والجنود، أثرت في معنويات السنوسي ونوري باشا ومن معهم، وحملتهم بدلاً من أن يسرعوا إلى نجدتنا على صوت المدفع ينهزمون من ذلك الصوت مسافة مرحلتين. ولا شك في أنه منذ تقدمنا إلى بئر ماجد صار نوري باشا يرمقني شيئاً من الحسد، ولم يطق أن يراني في مقدمة تلك البعثة العسكرية العثمانية.

ولما وصلنا إلى بئر تونس قابلت السنوسي وعاتبته كثيراً على فعلته هذه، فألقى هو بدوره اللوم على نوري باشا. وكانت نتيجة هذه الحادثة أننا بتنا في موقف المتراجع المدافع بعد أن كنا المهاجمين. وأثر ذلك في معنويات القبائل تأثيراً سيئاً للغاية فجعلهم يتخلون عنا شيئاً فشيئاً.

وبعد انقضاء يوم أو يومين علينا في بئر تونس، ونحن نفكر فيما جرى بالمفرزة التي أرسلناها في جهة صنبعة، رأينا تلك المفرزة تعود إلينا دون أن نقوم بعمل ما. فلما سألت آمر المفرزة عما فعل أجاب بأنه ضل الطريق وطفق يهيم في البراري والقفار طيلة تلك المدة. غير أن وصول هذه المفرزة إلينا قوّى معنويات القبائل قليلاً. فجعلنا نؤمل مقاومة صدمة أخرى مثل صدمة وادي ماجد.

هطلت علينا أمطار غزيرة أفادتنا كثيراً لأنها ملأت آبار تونس التي كنا معسكرين عليها، وتسمى أيضاً «آبار الشولحي»، وهي تبعد مسافة عشرين ميلاً عن الساحل.

ومرت علينا أيام قلائل في هذا المحل دون أن نفكر في حركة ما، أو نتخذ قراراً فيما يجب عمله في القريب العاجل. وكنا ننتظر انفراج الأزمة بيد الأقدار.

وكان السنوسي يفكر في السفر إلى الجنوب على أن تظل قوة في الساحل للمحافظة على الإرتباط، ولكن الخطة التي رسمتها لنا القيادة العامة العثمانية كانت التوغل في الأراضي المصرية، واثارة القلاقل والاضطرابات هناك، ومشاغلة الجنود البريطانية إلى أقصى ما يستطاع، ولا سيما وأن الغواصات أخذت تأتينا بأنتظام. فلا يسعنا والحالة هذه الابتعاد عن الساحل بمعظم القوة نظراً إلى صعوبة المواصلات والنقل. وكان ذهاب السنوسي إلى الجنوب مما يحمل القبائل على التخلّ عنا. ولذلك فأن نوري باشا كان يبذل قصاراه لاقناع السنوسي بالبقاء في الساحل وعدم الابتعاد عنه لأن قبائل كثيرة هجرتنا راجعة إلى محلاتها النائية في منطقتي طبرق ودرنة، فلم يبق

معنا سوى فوج النموذج وفوج المنفة وفوج أولاد علي وفصيل المدفعية وسرية الرشاشات وقسم من الخيالة وفوج بئر واعر مع فوج الطلبة المحافظين وقسم قليل من طوارق وتبو الذين كانوا معينين لحراسة السنوسي فقط ولم يكونوا في عداد القوة المحاربة. وترك قسم من طوارق وتبو لمحافظة الأسرى الأنكليز في بئر حكيم. ولا يخفى أن القوة العمومية نزلت عن نصابها كثيراً وبعدما كانت قوة الفوج الواحد تقارب ثمانمائة نزلت إلى نصف هذا العدد وحتى أقل من ذلك. وكان مقدار القوة يتزايد ويتناقص بنسبة تزايد الذخائر والطعام وإنقاصهما، ولم يكن ثمة ملاك معين ولا رادع يردع المجاهدين عن تركنا. والحق يقال إن أولئك الرجال كانوا صابرين على ضنك العيش صبراً جميلاً لأن الخصم لم يكن العدو الكامل بعدده وعدده والمستكفي بجميع الوسائط وحده، بل كان خصمنا قوة الطبيعة ورداءة الطعام، والحرمان من كل راحة وكانت هذه جميعاً تحاربنا بلا رحمة فتجعل مشهدنا كئيباً للغاية.

وقعة بئر تونس

وبعد انقضاء أربعة أو خمسة أيام علينا في بئر تونس بدأت طيارة انكليزية تزورنا من حين إلى آخر مستطلعة موقعنا. وكنا نحن نوفد الدوريات إلى بئر العبدية ووادي ماجد لترصد حركات العدو.

وفي إحدى ليالي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ أمطرتنا السماء مطراً غزيراً فأخذت السيول تجري بسرعة هائلة، وغمرت المياه الأرض المنخفضة التي كنا فيها. فتضايقنا من ذلك للغاية، وطفقنا نتذمر من غضب السماء علينا. وقبيل الفجر بساعة واحدة أتانا عثمان الارناؤوطي، آمر الخيالة، ينبئنا بأن رتلاً معادياً طويلاً يتقدم نحونا من جهة وادي ماجد. وكان هذا الرتل مؤلفاً من صنوف المشاة والخيالة والمدفعية والسيارات المدرعة.

وقبل انفلاق الصبح بقليل أتخذ فوج النمونة المواضع على مسافة نصف ميل إلى بئر تونس للدفاع. وبدأت المناوشة عند طلوع الشمس، وكان حسن حظنا أن الأمطار في الليلة الفائتة أعاقت كثيراً سير رتل العدو هذا وجعلت عجلاته وسياراته المدرعة غير قادرة على الحركة ولولا تلك الأمطار التي امتعضنا منها لطوقتنا السيارات المدرعة

وتصيدتنا الواحد بعد الآخر. ومع ذلك استمر الهجوم على المشاة والخيالة طول النهار. وصحب نوري باشا سرية الرشاشات التي كانت تنقلها هجن خفيفة إلى ميمنة العدو فأحبطت مساعي الأعداء الذين كانوا يريدون الالتفاف حولنا من تلك الناحية، فكانت المناوشة في الجبهة باديء الأمر خفيفة، فرأيت تجمع الخيالة ومعها مدفع أو مدفعان. فأرسلت خبراً إلى السنوسي ليترك المحل ويسافر إلى بئر أخرى تبعد عنا مسافة ثلاث أو أربع ساعات جنوباً، وأن يساعدنا بالقوة التي معه، لأن القوات التي كانت لدينا، ما عدا فوج النمونة، كانت دخلت خط القتال أو أنها تفرقت بحيث باتت الاستفادة منها غير ممكنة حينئذ. فأرسل فوج الطلبة المحافظين لهذه الغاية. فتوجهت مع هذا الفوج من ميمنتنا متقدماً لمقابلة الخيالة التي ساعدتها. فأندحرت القوة أمامنا فشاغلتنا بنيران مدافعها.

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كانت جبهتنا ممتدة مسافة تربو على خمسة أميال، لأن نوري توغل غرباً مع الرشاشات في الوقت الذي كان يجب عليه أن يداري الجبهة من جميع نواحيها. ولكن قلة وسائل المخابرة والارتباط جعلت كل وحدة تتحرك على ما يتراءى لها، ولم يكن للقيادة أثر في ذلك اليوم. فضايق العدو جبهتنا فخرقها ووصل إلى معسكرنا الخالي، فاستولى على الخيم وما تركناه هناك من الأمتعة القليلة، فأحرقها جميعاً وكان ذلك عند غروب الشمس. فرجعنا تاركين وراءنا ذلك المشهد الحزين ووصلنا إلى بئر أخرى من آبار أولاد علي تبعد عن بئر تونس مسافة عشرين ميلاً تقريباً، هناك اجتمعت الفلول، وكان السيد أحمد السنوسي ومعه ما بقي من فوج بئر واعر وفوج الطلبة وبعض مقرّبيه من الأخوان السنوسيين على قيد مرحلة قصيرة منا على طريق جغبوب وسيوة.

وقعة العقاقير

تعد جغبوب من أهم الزوايا السنوسية في الشمال، وكان السنوسي قد أتخذ هذه القرية مقراً له في الشمال، لأن مركز السنوسيين، الأصلي في واحة كفرة في الجنوب. وكان حوارنا منحصراً في بعض عبارات الوداع لأن القلوب كانت مفعمة باليأس والكمد. مع ذلك كله ودعنا السيد السنوسي بكلمات طيبة ملؤها الأمل والرجاء مبينين أننا سنواظب على مشاغلة العدو بقدر المستطاع، وسنحافظ على

ارتباطنا به ونرسل إليه مما يأتينا بواسطة الغواصات ما يكفي لسد حاجاته، فرجعت أنا ونوري باشا إلى البئر التي بتنا حولها قبل ليلة، ولا أتذكر الآن ويا للأسف إسم تلك البئر، ولكنها لا تبعد أكثر من مرحلة واحدة عن زاوية شماس.

ولم يبق معنا سوى أربعمائة مقاتل من فوج النمونة ،ومثل هذا العدد من فوج المنفة، وقسم قليل من أولاد علي، ومدفع جبلي سريع واحد، وثلاث رشاشات. ولولا العناية الربانية التي أوقفت حركة السيارات المدرعة في وقعة بئر تونس وجعلت الصحراء أرضاً يصعب التحول فيها من جراء الأمطار، لاستحال علينا الحصول على هذه القوة الضئيلة أيضاً. فقررنا أن نلجأ إلى الأراضي الرملية والوديان الوعرة تخلصاً من شر السيارات المدرعة.

تركنا محلنا هذا وذهبنا إلى زاوية شماس فبقينا هناك مدة ثلاثة أيام نترصد حركات العدو. وأصبح زادنا قليلاً جداً. وبقينا يومين نقتات بالأعشاب ونباتات الصحراء المرة، إلى أن وصلتنا قافلة أرزاق من بئر واعر.

وكنت أذهب كل يوم مع ضباط وجنود راكبين لا يزيد عددهم عن سبعة أو ثمانية جنود ـ وأحياناً كان ينزل هذا العدد إلى الثلاثة فقط ـ للاستطلاع في جهة البحر. فوصلت إلى جوار زاوية «أم الرخم» تقريباً وهذه واقعة بالقرب من النجيلة. فلم أجد أثراً للعدو سوى آثار عجلات الطيارات على بقعة مستوية في تلك الناحية. فأقتنعت بوجود قوة صغيرة معادية هناك بلا ريب. والواقع أننا لما استرحنا قليلاً في نقطة الشماس شاهدنا بناظوري على ساحل البحر، على مسافة كيلومتر منا، جنوداً لابسين قبعات (كاسكيتات) فتحقق ظني في وجود الدوريات البريطانية في ذلك المحل. فقفلنا راجعين من هناك إلى معسكرنا. ولما لم يعق عائق مجيء قوة راكبة في خلال بضع ساعات لمفاجأتنا قررنا الرحيل إلى محل واقع على مقربة من سيدي براني يسمى «عقاقير» وهذا المحل يتألف من هضاب رملية، وطوله أربعة أميال، وعرضه ثلاثة أميال. فاجتمعنا هناك وبقينا نترقب حركات العدو. وكان طرف هذه الهضاب الشمالي يبعد مسافة نحو ميل عن البحر. وبعد مكوثي مدة قصيرة أخذت الطيارات هنا أيضاً تحوم فوقنا من حين إلى آخر، وكنا دائماً نتباحث فيما يجب عمله عند تقدم القوة البريطانية نحو السلوم. فاجتمع بنا هنا بعض الشبان المصريين. أتذكر منهم

عبد الرحمن بك عزام، والضابط البحري محمد فهمي أفندي وضباطاً آخرين. وكان بعضهم يرجح الذهاب إلى الجنوب، والبعض الآخر يفضل الذهاب غرباً. ولكننا لم نتوصل إلى قرار حازم في الجهة التي نرحل إليها، وذلك انتظاراً لورود قافلة الطعام، لأننا كنا حينئذ بلا زاد وعلى وشك الهلاك جوعاً. فخفضنا الجرايات إلى مقدار الربع.

وكنت ألحّ على نوري باشا دائماً بالرجوع إلى بئر واعر فوراً، والابتعاد عن السلوم، والالتجاء إلى الوديان الوعرة بجوار بورت سليمان للمحافظة على الاتصال بالغواصات. ووضع منهج لحركاتنا المقبلة. ولكن لسوء الحظ كان قرار الانتظار لقافلة الأرزاق هو الأرجح، فبقينا في العقاقير إلى أن علمنا بأنّ قوة بريطانية كبيرة سائرة على طوار البحر في جهة سيدي براني، وأنها أصبحت على مسافة عشرة أميال من معسكرنا. فتوجهنا في تلك الجهة لنتخذ ما يقتضي من التدابير إزاء ذلك. فتحرك فوج المنفة مع قسم من خيالتنا مقتفين أثرنا. ولما وصلنا إلى حدود العقاقير الشمالية رأينا الرتل سائراً على طوار البحر على مسافة ميلين منا، فأخترنا موضعاً هناك لفوج المنفة ومدفع جبلي سريع ورشاشتين، وبقينا منتظرين إلى قبيل غروب الشمس. وقبل مغادرة ذلك المحل أردنا أن نبين أننا مستعدون لكل طاريء وقادرون على مقابلة كل هجوم. ففتحنا النار بمدفعنا الصغير على ساحل البحر على المحل الذي اعتقدنا أن معظم القوة مجتمعة فيه. وبعد مدة قصيرة قابلنا العدو أيضاً بنار مدافعه. ولكن الظلام حال دون مواصلة القتال.

وعند رجوعنا إلى المعسكر كانت الحالة النفسية للجنود منتعشة بعض الانتعاش، والححت على نوري باشا بأن نسير غرباً دون توقف، لأنه لا بد من مقابلة عدو متفوق علينا بعدده وبكل الوسائط الحربية الأخرى. ولكننا بدلاً من أن نشد الرحال للسفر بقينا نائمين في محلاتنا للأستراحة مدة من الزمن على أن نترك المحل قبيل الفجر. ولكن قبل أن نتهيّأ للحركة رجعت بعض دورياتنا من ناحية البحر منبئة بتقدم فرسان العدو، وأن دورياتنا تناوشت مع خيالة العدو المتقدمة فجعلت العدو يقف على حافة العقاقير.

وعند انبثاق الفجر تحرك فوج المنفة إلى الأمام، وإلى يمينه فوج النمونة، وخلفه فوج أولاد علي. وبقي المدفع السريع والرشاشات على مرتفع بجوار معسكرنا.

فبدأت مشاة العدو تقترب من خطوطنا وبعد معركة لم تدم أكثر من ساعة ونصف ساعة طفق فوج النمونة يتراجع إلى الوراء.

وكان التضييق على الموضع الذي كان يشغله فوج المنفة أخف منه على موضع فوج النمونة. فأضطررت إلى سوق قسم من فوج اولاد علي لتعزيز فوج النمونة الذي بدأ يتفكك.

ونحن كذلك، إذا بي أرى المشاة اخذوا يقتربون بقفزات قصيرة، معززين من الوراء بسيارتين مدرعتين، وبمدفعيتهم التي كانت تصلنا نيرانها، لا سيما وأنها كانت تضرب مدفعنا ورشاشاتنا بشدة، وبعد ساعة تقريباً شاهدت كتيبة خيالة تمر بيسارنا للألتفاف حولنا. واستمر القتال إلى أن استولى العدو على مواضع فوج النمونة الأمامية التي احتلها هذا الفوج عند الفجر. وأخذ العدو يصوب نار مشاته من هذا الموضع على مدفعنا ورشاشاتنا. فأمرت الضابط المدفعي أن يحمل مدفعه ويرجع إلى الوراء. وكذلك فعلت بالرشاشات، وأخذت رقعة صغيرة من نوري باشا كتب فيها أنه متوجه جنوباً ليخلص القافلة من الوقوع بيد العدو وهي على طريقها نحو معسكرنا في العقاقير، وأنه أمر فوج النمونة أن يرجع معه.

وكانت هذه الطريقة في القيادة من صفات حروبنا غير المنظمة فنشترك في التبعات في المبدأ ووضع الخطط ونتخلى عن مناهجنا وخططنا تاركين الأمور للأقدار عند حراجة الموقف.

فترك فوج النمونة القتال مع نوري باشا وقسم غير قليل من رؤساء القبائل ومن ضباط المقر والخيالة، فثبتنا نحن الباقين في محلاتنا إلى أن ضايقنا العدو وتقرب منا على مسافة مائتي أو ثلثمائة «ياردة» فاضطررت إلى التراجع في خطوات إلى الوراء جنوباً.

وبعد خروجنا من العقاقير سرنا متراجعين مسافة خمسة أو ستة أميال، فرأيت قوة العدو الراكبة متوجهة نحونا، فأتخذت حينئذ الرشاشتين موضعاً لحماية جنودنا المبعثرة، ففتحنا النار على خيالة العدو. فأضطرتها إلى الترجل والقتال الراجل. وكانت الرجعة هزيمة أكثر منها تراجعاً منتظماً. ولما أن شاهد العدو ضعف نارنا طفق يتقدم بسرعة نحونا. وكان باقياً معي مقدار مائة وخمسين مقاتلاً، ورشاشتان فقط.

أما الباقون منا فكانوا قد ابتعدوا عنا جنوباً، وفي مقدمتهم نوري باشا على جواده الأبيض.

وفي هذه الأثناء أصيبت فرسي برصاصة فصرعتها، فأسفت لفراق تلك الرفيقة الأمينة طيلة هذه النكبات، وكانت صبوراً على الجوع والعطش والتعب. وبينما أنا في هذا المأزق الحرج راجعني أحد ضباط المنفة وكان من أبناء الرؤساء السنوسيين المتقدمين وقدم إليّ فرسه. فرجوت منه أن يربط عدة فرسي فقط معه أما أنا فلا أرى بأساً بالسير مع الجنود ماشياً إلى حيث تسوقنا الأقدار. فأخذ العدة وابتعد هو أيضاً عني. ولم تمض هنيهة حتى شاهدت خيالة العدو هاجمة علينا غير مبالية بالخسائر التي كانت تتكبدها، فدخلت بيننا. فاشتبكنا بالقتال هم بسيوفهم، ونحن ببندقياتنا، نتذابح كالوحوش الضارية. فأصبت بطعنة سيف في ساعدي الأيمن. وبعد سقوط المسدس من يدي شاهدت الضابط الذي جرحني ساقطاً ورائي على قيد بضع خطوات برصاصة أصابته من جنودنا.

وبعد هذه الموجة استجمعت قواي فالتقطت مسدسي مرة أخرى باليد اليسرى استعداد لما سيجري، وإذا بجندي مجروح أمامي على قيد خمس خطوات مني يصوب بندقيته إليّ، وقبل أن يرميني خارت قواه من جراء جرحه فلم يستطع ضغط الزناد ولا أعلم ماذا جرى به بعد ذلك.

وكان موقفي حرجاً إزاء ذلك الجندي لأننا كنا جريحين كلينا، فلم تطاوعني النفس بأن أمسّه بسوء وهو في تلك الحال. وبعد ابتعادي عنه مسافة بضع خطوات رأيت ضابطاً انكليزياً على مسافة عشرين خطوة مني موجهاً مسدسه نحوي وبجانبه ضابط رشاشاتنا اليوزباشي نهاد بك، والضابط احمد مختار، والضابط سنوسي افندي، فأخذوا ينادونني بصوت عال قائلين بأن قوة أخرى من خيالة العدو تتقدم نحونا وقد أصبحت على قيد خمسين خطوة إلى يميني، وأشاروا إليّ بأن لا فائدة من المقاومة.

وفي الحقيقة قبل أن أبدي حراكاً رأيت خيالة العدو تطبق عليّ من كل جهة، وبعد مسيري مسافة قصيرة خارت قواي من نزيف الدم من جرحي فانتبهت فاذا بضابط انكليزي يضمد جرحي، وبجانبه ضابط آخر عرفته عند أول نظرة ألقيتها عليه وكان الرئيس (الكابتن) رويال الذي كان في السلّوم بمعية الزعيم (الكولونل)

سنو، ففهمت منه أن الضابط الذي ضمد جرحي هو الزعيم (الكولونل) سوتر آمر كتيبة «دورست يومنري» مع ضابط آخر كان ضابط ركن القوة. ولا أذكر اسمه الآن. وكانت القوة بقيادة أمير اللواء (الجنرال) لوكين النيوزلندي.

وبعد مضي مدة رأيت أرتال المشاة تتقدم إلينا فجمع الجنرال لوكين ضباط القوة، وألقى عليهم خطبة بالأنكليزية التي كنت أجهلها ولم أتذكر منها سوى الكلمة (Hurrah)، وكانت الساعة متأخرة فلم يبق من النهار سوى نصف ساعة. وكان ذلك اليوم في السادس والعشرين من شهر شباط سنة ١٩١٦.

فجمعونا أنا ونهاد وأحمد مختار وسنوسي أفندي (وكان هذا الأخير ضابطاً من أهل بنغازي ومن الضباط الفخريين) ولما سألتهم عن باقي جماعاتنا أجابوا بقولهم أن لم يبق أحد منهم، وربما كانوا قتلى، وأنهم استفادوا من ظلام الليل فأنهزموا، فهذه كانت خاتمة أعمالي عند السنوسي.

وهنا أيضاً خطرت ببالي مرة أخرى كلمات جمال باشا المتهكمة، مع أنني لم أيأس تماماً، ولا قطعت رجائي، رغم خسراني في هذه الصفقة. إن الذي ساقني إلى تلك المغامرات كان إيفاء حق الواجب من وجوه شتى، فأولا كنت عسكرياً وعليّ إطاعة الأوامر، وأهم من هذا أنني كنت في خدمة أمير عربي، فكنت دائماً أحلم بسنوح الفرص للقيام بخدمة العرب.

وفي غير هذا المكان سأبين مفصلاً كيف بدأنا نشتغل في تحقيق آمالنا القومية ونحن في الجيش العثماني وكيف ألّفنا الجمعيات السرية وما كانت أعمالنا ولا سيما ضباط الجيش في تلك الحركة.

الفَصْل الثَّامِن
نَظرة عَامّة في رِجَال القَبائل السّنُوسِيّة وعَاداتِهِم

السيد أحمد السنوسي كما عرفته

كان السيد أحمد الشريف السنوسي رجلاً تقياً شديد التمسك بشعائر الدين الإسلامي، وكان بانياً حكمه على أسس الشريعة الإسلامية وينفذ أحكامه بصرامة، وأتفق أن أحد أقربائه سرق عباءة ضابط، فحكم عليه القاضي بقطع اليد، ورغم توسلي بالعفو عنه، لأن الضابط تخلى عن حقوقه، وقبل أن يقدم العباءة هدية إلى ذلك السارق، أصرّ سيدي أحمد على تنفيذ العقوبة، فنفذت بقطع يد السارق اليمنى وقام بقطعها أحد أطباء الجيش.

وكان دمث الأخلاق، لطيف المعشر، يحب أحياناً الفكاهة والمداعبة. وكان مولعاً بالمطالعة ولا سيما مطالعة الكتب التاريخية الإسلامية، ويحب كثيراً مراسلة عمّاله بنفسه، وكذلك رؤساء القبائل وغيرهم. وكان كاتبه الخاص يكتب المكاتيب بوضع الألقاب اللائقة بالذوات المخاطبين، ويختمها بختم السنوسي الكبير، وكان السنوسي نفسه يضع الحواشي على تلك الرسائل حسبما يريد وتقتضيه المصلحة. وكلما كثرت الألقاب والعبارات الودية في الكتاب كان ذلك دليلاً على شمول السنوسي ذلك الشخص بعطفه الخاص وتقديره. وكان كثيراً ما يتوخى القافية في وضع الألقاب. وأتذكر يوماً لما كنت في وادي ماجد تلقيت رسالة منه إليّ بشأن رئيس قبيلة من أولاد علي، فكانت الألقاب الموجهة إليّ على الوجه التالي:

«ولدنا الأبّر، الصفي الأنور، قائد البحر والبر، العسكري محمد جعفر».

وكان إذا غضب أحياناً يكتب إليّ ما يلي: «إلى قائد القوة الساحلية». ومن طراز عنوان الرسالة كنت أفهم حالته النفسية في ذلك الوقت.

وكانت هذه المراسلات تشغل معظم أوقاته، حتى أنني كنت أحياناً أراه ساهراً إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وهو يضع الحواشي على الرسائل ويدققها ويوقع عليها في زاويته على نور شمعة ضئيل.

وكان طعامه بسيطاً لا يتعدى لوناً أو لونين، كالشعرية المطبوخة على مرق اللحم، وقطعة صغيرة أو قطعتين من اللحم. وكان أحياناً يحب أكل «البازين» وهو الطعام القومي في شمالي أفريقية. وهذا الطعام هو عجينة من دقيق حنطة وشعير مخلوطين، وتطبخ هذه العجينة طبخاً خاصاً ويسكب عليها مرق اللحم، فتختلط بالمرق عجناً بالأصابع إلى أن يتشبع هذا العجين المطبوخ بالمرق الذي فيه كثير من البهارات. فيؤكل وله لذة ونكهة خاصتان، ولا أعلم هل كان الحرمان هو الذي يجعلنا نلتذ بأكل هذا الطعام، أو أنه كان لذيذاً في الحقيقة.

وكان السنوسي يشرب بعد الطعام ثلاثة أو أربعة فناجين من الشاي الأخضر مع السكر الكثير. وهذا النوع من الشاي كان رائجاً رواجاً عظيماً بين القبائل وهو يستنزف جانباً كبيراً من مالهم، ولكنهم لا يميلون إلى القهوة والتبغ (التتن).

ورغم قسوة الطبيعة وحرارة الشمس كان السنوسي وأسرته وكثير من القبائل في الشمال ذوي بشرة بيضاء، وعيون سود نجل، وقدود طوال ممشوقة، ولا سيما قبائل العواقير التي تسكن الجبل الأخضر.

وكان الكثيرون من أبناء هذه القبائل لا يملكون ما يسد حاجاتهم، ولكنهم كانوا صابرين قانعين برزقهم، مواظبين على مقاومة العدو المغتصب بلادهم.

وقضي الإتفاق الذي تم بين رؤساء القبائل والسنوسي، كالإتفاق الذي كان بين ملوك أوروبة وأمرائها ورعيتهم، أن ترسل كل قبيلة بنسبة العهد الأقطاعي في العصور الوسطى، وذلك عددها شبانا إلى المعسكرات السنوسية لخدمة العلم السنوسي. وكان هؤلاء الجند يسمون «مجاهدين» وكان على كل مجاهد أن يأتي ببندقية

ومقدار من العتاد. وعلى رجال كل عشيرة منهم أن يأتوا بخيمة أو بيت شعر معهم، مع أواني طبخ وخادمة لتطبخ لهم طعامهم وتغسل ملابسهم وتسمى «نفاقة»، ولا أعلم هل كانت وشائج الغرام تتأصل أحياناً بين النفاقات وبعض المجاهدين ـ فهذا سرّ كان الليل يرخي سدوله عليه.

وكانت ملابسهم في مواطنهم مقتصرة على ثوب أبيض طويل، وسراويل بيضاء، وصدرية مكممة من حرير وهم يلبسون طربوشاً أحمر بذؤابة ضخمة، و «بلغة» (حذاء) صفراء في أرجلهم، ويلتحفون «بجرد» (ثوب صوف أبيض أو ملون) كان في الوقت عينه فراشهم ليلاً. ولكنهم لما كانوا ينخرطون في سلك المجاهدين يمنحون بزة عسكرية مؤلفة من سترة وسراويل من قماش قطن ترابي مع لفافات ساق. أما الطربوش والبلغة فكانوا يظلون لابسينها في الجندية أيضاً. وكانوا في أحيان كثيرة حفاة.

وكانت لهجتهم العربية قريبة من لهجة أهل العراق، مع قليل من الكلمات والأصوات البربرية التي تخرج من الحلق من غير مخارج الحروف المألوفة. فتستحيل كتابتها وهي تشير إلى التصديق أو الإنكار.

أما أغانيهم الشعبية فهي أغان غرامية بسيطة. وقد بقيت في بالي القطع التالية من بعض الأغاني ولحنها بسيط ممل على وتيرة واحدة:

«غوادي، يا بو عيون سوادي»
«نكضت حيلنا ـ أي والله نكضت حيلنا»

وغيرها:

«وطنينا وطن، غياتك ما هاونن»
«وطني يا غزال: بوشامة سودا بهلال»

وكانت شدة إهتمامهم ببكارة البنات تجعلهم يمارسون حين الزواج طرقاً خاصة للتثبت منها.

وهم حب واحترام شديدان للشجاعة والبطولة والفروسية والرماية. وخلاصة

القول أنه منذ احتلال الطليان بلادهم أصبحوا يمارسون مهنة الحرب فأصبحت النزعة إلى القتال والكفاح سجية ثانية فيهم.

والجانب الأعظم من بلادهم قاحل باستثناء المناطق المجاورة للبحر وبعض الواحات. وهم يعتمدون في ري مزروعاتهم على الأمطار، وكثيراً ما تخيّب آمالهم فيخسرون البذور التي يبذرونها في الأرض. ولكن عند نجاح المزروعات تدّر عليهم خيرات عظيمة تكفيهم بضع سنوات.

وليس ثمة عادات أخرى عند القبائل المشايعة للسنوسيين، تختلف عن عادات القبائل في باقي الأقطار العربية الأخرى، سواء أكان ذلك من حيث تعدد الزوجات أم تحميل معظم الأشغال على عاتق المرأة، مثل جمع الحطب ونصب البيت والطبخ والغسيل وما شابه ذلك من الأشغال البيتية، والمرأة هناك سافرة مثل باقي النساء الأعرابيات لضرورات المعيشة، باستثناء بعض نساء المدن ونساء الرؤساء.

الفَصْلُ التَّاسِع

في الأَسْر

لنرجع الآن إلى حيث كنا بعد وقعة العقاقير. بتنا ليلتنا في الصحراء وكان البرد شديداً. وكنا محرومين جميع أسباب الراحة، وهذا أمر لا مناص منه في مثل هذه الحالة. وفي اليوم التالي نقلنا على جمال إلى قلعة سيدي براني، فبتنا ليلة في غرفة من غرف القلعة مضطجعين على الأرض. وفي اليوم التالي أخذتنا السيارات إلى مرسي مطروح، وهناك قابلت قائد القوة الجنرال بيتن فأرسلني مع مرافقه إلى البارجة الحربية «همبر»، وأخذ يعالجني هناك طبيب البارجة إلى أن استعدت بعض قواي، وبقيت في «همبر» مدة ثلاثة أو أربعة أيام كان يزورني في خلالها «دوق وستمنستر» من حين إلى آخر مستفسراً عن أحوالي.

وصلت إلى القاهرة بطريق الاسكندرية في أوائل آذار سنة ١٩١٦. وأرسلت إلى معتقل الأسرى في المعادي بالقرب من المستشفى. إذ لم يكن جرحي مندملاً حتى ذلك الحين. وبعد مضيّ يوم أو يومين قابلت الجنرال ماكسويل قائد الحملة المصرية في فندق سافوي. فرأيته رجلاً دمث الخلق فكهاً، فصافحني وأخذ يلاطفني، وسألني هل ينقصني شيء فقلت أنظر إلى ملابسي فأنها كلها مخضبة بالدماء. فلم يتردد لحظة بل أجاب هذا حقك. وبعد أن تكلمنا قليلاً عن الأحوال التي جزناها انصرفت من عنده وكان معي الزعيم (الكولونل) سمسن آمر معقل الأسرى. فأخذني إلى محل تجاري كبير في القاهرة يسمى «ديفس براين» فأوصيت بدلة وما يعوزني من الملابس. ورجعت إلى المعادي.

وبعد يومين أو ثلاثة أيام أتاني رئيس التشريفات السلطانية ـ سائلاً عن

صحتي، وأبلغني أن عظمة السلطان حسين كمال يرغب في أن أتشرف بمقابلة عظمته في سراي عابدين. وفي اليوم التالي ذهبت برفقة ضابط بريطاني إلى السراي. فقابلت عظمته ودار الحديث حول الإدارة والسياسة في الأمبراطورية العثمانية وفي أحوال السنوسي. فكانت أجوبتي عن أسئلة السلطان موجزة مقتضبة مع مراعاة جانب الأدب والإحترام في حضرته. وبعد رجوعي من لدن السلطان إلى محلي أتتني من السراي عدة كتب تركية من مؤلفات البرنسيس قدرية حسين، بنت عظمته، مع سكاير وحلويات وعدة مآكل أخرى، وأني لا أزال محتفظاً بتلك الكتب لنفاسة موضوعاتها ورقة أسلوبها.

اجتماعي بنوري باشا السعيد

كانت حياتي في معتقل المعادي حياة عزلة بسيطة تدعو إلى السأم والضجر. وكانت تمر بي أيام لا أقابل فيها إنساناً ولا أكلّم صديقاً ما عدا الطبيب.

طلبتني القيادة العامة يوماً فأُخذت إليها. فأدخلوني إلى (الكولونل) «ديدز» من دائرة الاستخبارات. فدهشت إذ وجدت نوري السعيد واقفاً في الغرفة التي دخلتها ولم أتمالك نفسي من التفوه ببعض كلمات استغراب. فأومأ إليّ نوري السعيد بالسكوت، وطفق الزعيم «ديدز» يكلمني باللغة التركية بلهجة لم يسبق لي سماعها من أجنبي آخر عرفته. وفي أثناء الحديث فهمت أنه كان مستخدماً في الدرك (الجاندرمة) العثماني في استانبول مدة طويلة، وذلك لما قررت الحكومة العثمانية تنسيق قوة الدرك على أيدي ضباط أجانب من إيطالية وغيرها، وكان الزعيم ديدز من جملتهم. وقد قام هذا الرجل بمهام دائرة الاستخبارات في الحملة المصرية طيلة مدة الحرب ونال رتبة (جنرال). وكان لطيف المعشر، واقفاً على طبائع الشرقيين، وكان يتمكن من استمالة قلوبهم إليه بلين عريكته. واتصل بي إنه عند احتلال الاستانة كان هناك مع جيوش الحلفاء. وبعد الحرب قابلته مرة أو مرتين في لندن في دار اللورد اللنبي وفي مجلس آخر، وفهمت أنه تفرغ للأعمال الخيرية وهو يشتغل فعلاً في الأحياء الفقيرة في شرقيّ لندن المسماة «ايست اند» (East End) وإذا قلنا «ايست اند» مثلنا الفقر في لندن، وإذا قلنا «وست اند» تمثل في ذهننا الغني والترف في العاصمة البريطانية.

رجوت من الزعيم ديدز أن يسهّل لي سبيل الاتصال بنوري السعيد من حين إلى آخر. وأيضاً رجوت منه نقلي إلى القلعة حيث كان الكثيرون من الضباط العثمانيين الذين وقعوا في الأسر في الوقعة التي هجم فيها الجيش التركي على ترعة السويس بقيادة جمال باشا وغيرهم معتقلين. فوعدني خيراً. فنقلت إلى القلعة بعد مدة قصيرة. وكان نوري السعيد يزورني من حين إلى آخر. ولكن ويا للأسف كان سلوك بعض الضباط العثمانيين لا يتفق وكرامة الضابط. فتضايقت كثيراً من ذلك لأنهم كانوا يزعجونني بطلبات لا تنطبق على أحكام العقل والمنطق، كأني صاحب أمر ونهي في المعتقل. ناسين أنني لم أكن سوى أسير حرب مثلهم. فمن مطاليبهم مثلاً زيادة مخصصاتهم، إذ كان مخصصاً لكل فرد منهم ستة باونات انكليزية في الشهر، وكان هذا المبلغ يكفي لسد نفقاتهم سدّاً معتدلاً بلا إسراف ولا تقتير.

وكانوا أيضاً يطلبون أن ينقلوا من القلعة إلى بيوت خاصة في المدينة، وأن يمنحوا كامل الحرية، متجاهلين وضع مصر السياسي ونفور العامة من الانكليز. وكان بعضهم يسمعني كلمات جارحة بلا حياء فيما يتعلق بتردد نوري السعيد عليّ، متهمين نوري السعيد بخيانة دولته. وفي الحقيقة كنا أنا ونوري نفكر في وسيلة تمكنني من الهروب مرة أخرى إلى السنوسي.

وفي ذات يوم عند مجيء نوري السعيد إليّ هجم عليه أحد الضباط المعتقلين، وهو المسمى بشير الحلبي، وحاول إهانته، ولكن لحسن الحظ أن باقي الضباط الذين كانوا معي عند السنوسي وغيرهم من أبناء العرب، مثل المقدم (البكباشي) حسين الكويري، ورفيق العظمة، منعوه من وقاحته وأشبعوه ضرباً.

محاولة الهروب المحبطة

وبعد هذه الحالة لم أفكر في أمر سوى الهروب من المعتقل، فأتفقت مع الملازمين لطفي البارودي المصري، الذي كان مستخدماً في الجيش العثماني، وعبد الهادي (وكان هذا الضابطان يميلان إليّ ميلاً خاصاً) على قلع بعض قضبان الحديد من شباك يطل على المقبرة خلف القلعة، لكي نخرج في ظلام الليل، ونستعين بالمصريين الذين لهم اتصال بالسنوسي، مثل عبد الستار بك الباسل، للرجوع إلى الصحراء

والانضمام إلى السنوسي مرة أخرى. فاشتغل لطفي وهادي مدة يومين أو ثلاثة أيام ببرد القضيب الحديدي في الشباك. وكسرنا أيضاً المصباح الكهربائي الذي فوق الشباك. وفي الساعة الثامنة عند نزول الضباط إلى «التعداد» نزل لطفي وهادي من الشباك رابطين البطانيات القديمة الواحدة بالأخرى، وفي الأخير جاء دوري أنا، فحاولت النزول متعلقاً بالبطانيات، ولكن لسوء حظي ان يدي اليمنى كانت لا تزال ضعيفة من تأثير الجرح ولا أدري ما تم سوى أنني رأيت نفسي هابطاً إلى أسفل، فأصطدمت بالأرض اصطداماً شديداً، فكاد يغمى عليّ. وشعرت بألم شديد في ظهري في جهة العمود الفقري، وبألم شديد أيضاً في كعب قدمي اليسرى، وجروح خفيفة في وجهي ويدي، وسمعت أصوات الحرس من السطح تنادي «من أنت» وكانت تمتد على طوار الجدار أسلاك شائكة، فأنسللت من تحتها بمعاونة رفيقيّ، فحملاني إلى حفرة قبر متهدم في المقبرة المجاورة وبقي هادي معي. أما لطفي فذهب ليفتش لنا عن عجلة أو سيارة تنقلنا إلى مكان نختفي فيه. وكانت الليلة مقمرة هادئة، وكان يمر بجوارنا من حين إلى آخر جنود الدورية متفقدين ما حولهم دون أن يشاهدونا. وبقينا في انتظار لطفي إلى ساعة متأخرة من الليل. فأخذت آلامي في الاشتداد فطفقت أئن منها. وحوالي الساعة الأولى بعد نصف الليل جاءنا لطفي ولكن لم يكن في عجلة بل في حراسة ضابط وعدة جنود إنكليز ووراءهم «طنبر» وهو عجلة لنقل الحجارة كان ظفر به لطفي وكان آتياً به لينقلنا إلى محل نكون فيه في مأمن من عيون الرقباء. فألتقت به الدورية وأرغمته على إفشاء محل وجودنا. فنقلنا العجلة إلى القلعة. وهذه كانت مهمتها أن تعيدنا إلى معتقلنا. فالذي حصلت عليه من الهروب جروح ورضوض في جسمي جعلتني أكابد الآلام مدة ثلاثة أو أربعة أشهر. وبناء على طلب مني بعد ذلك نقلت إلى المعادي مرة أخرى، وكان يزورني هنا أيضاً من حين إلى آخر نوري السعيد، ويقص عليّ كيف وقع في الأسر وهو في مستشفى البصرة، بعد أن هرب من الاستانة من مدرسة الأركان الحربية من جراء علاقاته السياسية بعزيز علي المصري الذي حكم عليه بالاعدام، ولكن أعفي عنه بمساعي رجالات العرب والحكومة المصرية. وكان نوري السعيد والدكتور عبد الله الدملوجي يشتغلان بحماسة في الاستانة لتكوين رأي عربي عام لمصلحة العرب. وقبل أن تلقي الحكومة العثمانية القبض عليهما تمكنا من الهروب. فوصلا إلى البصرة، وبقيا في

ضيافة السيد طالب النقيب مدة من الزمن، ثم سافر الدكتور عبد الله الدملوجي إلى ابن سعود وظل في خدمته إلى أن رجع إلى العراق في سنة ١٩٢٩. وارتقى في خدمةابن سعود إلى ان أصبح وزير خارجيته، أما سبب افتراقه عن ابن سعود فهو أنه، على قوله، أحب الرجوع إلى العراق.

وعلى أثر اعلان الحرب العامة، وبناء على توسط السيد طالب باشا النقيب، صدر العفو عن نوري السعيد ،ولكنه كان مريضاً في المستشفى في البصرة مرضاً لا يمكنه من الخدمة العسكرية. وعند احتلال الجيش البريطاني مدينة البصرة اعتقلته السلطة العسكرية البريطانية وأرسلته إلى الهند. ولم يشف هناك الشفاء التام من مرضه، فطلب نقله إلى مصر للتداوي، وفي الوقت عينه للتمكن من الاشتغال بالقضية العربية والاستفادة من محيط مصر، لأنه أكثر ملاءمة لذلك من محيط الهند.



الفَصْلُ العَاشِر
نُورٌ جَدِيدٌ

أخبرني نوري السعيد بأن ثمة مفاوضات جارية مع شريف مكة فيما يتعلق بمستقبل البلاد العربية. وكان موقفي في الحقيقة حرجاً، لأنني لم أكن واقفاً على ما جرى في خلال المدة التي غبت فيها عن تركية منذ حزيران سنة ١٩١٥. وكان أيضاً يزورني الدكتور عبد الرحمن شهبندر[1] ويقص عليّ أعمال جمال باشا السفاح في سورية، ومقررات جمعية «الاتحاد والترقي» لمناوأة القضية العربية، ولم أكن لأصدقه فوراً لعدم معرفتي الشخصية بالدكتور قبل ذلك، ولعدم وجود وثيقة ما تؤيد ما يرويه لي.

وفي ذات يوم أتاني الدكتور شهبندر بجريدة الرأي العام التي كانت تصدر في سورية وفيها بيان من جمال باشا يحاول فيه تبرير ما عمله برجالات العرب وشنقهم،

---

(١) الدكتور عبد الرحمن شهبندر (١٨٨٢ - ١٩٤٠) طبيب وسياسي من دمشق انتمى إلى الاتحاديين في البداية فلما اتضحت سياستهم نحو العرب ناوأهم وهرب خلال الحرب العالمية الأولى إلى العراق فمصر. عاد إلى سورية سنة ١٩١٩ وعين وزيراً للخارجية في وزارة هاشم الأتاسي، وبعد سقوط الحكومة العربية في سورية ذهب إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق فاعتقله الفرنسيون في جزيرة أرواد لمهاجمته سياستهم في حفلة أقيمت للمستر (كرين) الأمريكي، فلما أطلق سراحه شارك في إنشاء (حزب الشعب) في دمشق واشترك في الثورة السورية عام ١٩٢٥، وفرّ إلى جبل الدروز ومنه إلى شرق الأردن فالقاهرة سنة ١٩٢٧ حيث انصرف إلى ممارسة الطب. ثم عاد إلى دمشق فأستقر فيها، وبينما كان في عيادته دخل عليه ثلاثة أشخاص فاغتالوه. وكان كاتباً سياسياً جيداً وخطيباً مفوهاً.

ومن جملتهم المرحوم سليم بك الجزائري(٢) فتأثرت كثيراً، وبكيته بكاء مراً، لأنه كان صديقي الحميم، وأحد مؤسسي حزب العهد. وكان فكهاً طيب المعشر، وشاعراً لبيباً، له أناشيد حماسية جميلة مثيرة للعواطف في النفوس. وأتذكر أبياته التي نظمها على أثر اعتداء الطليان على طرابلس الغرب.

وفهمت إضافة إلى ما تقدم أن جمعيات عربية سرّية كثيرة، ومنها حزب العهد، افتضح أمرها لدى جمال باشا ورجال الاتحاد، فطفقوا يعتقلون أعضاء الأحزاب، ويسومونهم الخسف والذل ويذيقونهم مرّ العذاب. فعقدت العزيمة من جراء ذلك على الأخذ بالثأر، والتوسل بالوسائل جميعاً للانضمام إلى شريف مكة عند سنوح الفرصة. وكان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر متصلاً برجال الانكليز الذين يعنون بالقضية العربية مثل أمير اللواء (الجنرال) «كلايتن»(٣) والبروفسور «هوغارث»(٤)

---

(٢) سليم الجزائري (١٨٧٩ ـ ١٩١٦) قائد ومفكر عربي ولد في دمشق من أصل جزائري، وتعلم في المدرسة الحربية ومدرسة الهندسة العسكرية في استانبول، وبلغ رتبة «قائم مقام أركان حرب» في الجيش العثماني، وكان له ولع بالرياضيات، وعين أستاذاً في المدرسة الحربية بالاستانة واشترك في حروب كثيرة وأسر في اليمن، ونجا من الموت باعجوبة وأنقذ رفاقاً له في الأسر، واشترك في حرب البلقان، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى أصبح قائداً في ادرنة وقرق كليسه، شارك في الحركات العربية ودافع عن حقوق العرب، فنقم عليه جمال باشا وساقه إلى الديوان العرفي في عاليه فحكم عليه بالاعدام وشنق في بيروت مع أحرار العرب الآخرين، وهومن مؤسسي جمعية «فتيان العرب» و «الجمعية القحطانية» و «جمعية العهد» وكان رجلاً شجاعاً صريحاً وصديقاً حميماً لجعفر العسكري.

(٣) كلايتن، غيلبرت فالكنهام (١٨٧٥ ـ ١٩٢٩) من خبراء بريطانية في الشؤون العربية. خدم مع اللورد كتشنر في حملة النيل، ثم أصبح مستشاراً لوزارة الداخلية في مصر. وعين خلال الحرب رئيساً للاستخبارات العسكرية في مصر ورقّي إلى رتبة جنرال وأسس المكتب العربي ثم تولى إدارة فلسطين بعد احتلال القوات البريطانية وعهدت إليه المهمة الدقيقة في التوفيق بين مصالح الحلفاء المتضاربة في سورية، ثم عين سكرتيراً عاماً لحكومة فلسطين، وأخيراً مندوباً سامياً في العراق وتوفي في بغداد سنة ١٩٢٩ بعد ان قضى في منصبه فيها ستة أشهر.

(٤) هوغارث، دافيد جورج (١٨٦٢ ـ ١٩٢٧) خبير آثاري ورحالة تخرج في جامعة أوكسفورد وأولع بالأسفار والتنقيبات الأركيولوجية منذ مطلع شبابه وعمل مع بعثات التنقيب في تركية وقبرص ومصر واليونان، ثم أصبح مراسلاً لجريدة «التايمس» اللندنية في جزيرة كريت خلال الحرب التركية ـ اليونانية سنة١٨٩٧ وبعدها عاد للعمل في جامعة أوكسفورد. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى أرسل إلى القاهرة وعين مديراً للمكتب =

والملازم لورنس الذي كان يشتغل مع هوغارث في المكتب العربي[٥].

وأتفق في ذات يوم لما كنت في مقر القيادة في انجاز عمل يخصني، أن تعرفت بالملازم لورنس، وكان نوري السعيد أيضاً حاضراً معنا، فتباحثنا كثيراً في قضية البلاد العربية. فتوسط الملازم لورنس وجعلني أتصل باللواء (الجنرال) كلايتن. ففاتحت اللواء (الجنرال) كلايتن في الأمر، فكلمني بكلمات يرتاح لها البال، فجعلني أؤمل خيراً من التصريحات التي أدلى بها إليّ إذ قال ان ليست لحكومته أية مطامع في البلاد العربية. وأنه ليس من المعقول أن يؤمل العرب خيراً ما لأمتهم ما لم يقوموا هم أنفسهم ويعملوا للحصول على كيان سياسي لبلادهم وأن من مصلحة الانكليز أن يساعدوا العرب على نيل استقلالهم وتأييده بقدر ما تسمح به الظروف.

وبعد هذه المقابلة، وبنتيجة تكرر زيارات الدكتور عبد الرحمن شهبندر ونوري السعيد، بدأت أشعر بتبدل في معاملة الانكليز إياي شيئاً فشيئاً. وفي الأخير فاتحني آمر المعتقل الزعيم (الكولونل) سمبسن، والجنرال وطسن، آمر حامية القاهرة، بصورة مناسبة لنقلي إلى دار خاصة في قرية المعادي، وتخفيف ضغط الحرس عليّ، والسماح لي بالذهاب برفقة ضابط إلى القاهرة مرة أو مرتين في الأسبوع بشرط أن أعد وعد شرف بعدم الاستفادة من هذا الوضع وعدم التشبث بالهروب إلى محل ما. فكان

= العربي ومنح رتبة ضابط في البحرية البريطانية. وكان مسؤولاً عن المهمة الدقيقة في كسب العرب إلى جانب الحلفاء. وبعد الحرب كان عضواً في الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح بفرساي. ثم عاد إلى عمله استاذاً في أوكسفورد ومديراً لمتحف الأشموليان، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته. وقد ترك مؤلفات ثمينة في الرحلات والآثار.

(٥) المكتب العربي: مكتب استخبارات ومعلومات بريطاني أسس في القاهرة سنة ١٩١٦ وكان يضم عدداً من الضباط السياسيين ذوي الخبرة بشؤون البلاد العربية وهو من أجهزة وزارة الخارجية ومهمته تقديم المعلومات عن البلاد العربية وتنسيق علاقات بريطانية السياسية معها. وكان المكتب واسطة الاتصال بين المندوب السامي البريطاني في مصر وبين الشريف حسين في الحجاز، ومن رجاله كلايتون، وهوغارث، وكورنواليس، وسايمس، ولورنس، وقد أصدر المكتب العربي (النشرة العربية) (Arab Bulletin) وهي نشرة سرية تتضمن معلومات ومقالات سياسية وعسكرية تتعلق ببلاد العرب. وقد أغلق المكتب العربي في أول تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٢٠ (أنظر في نشاط المكتب العربي وأعماله: سليمان موسى، **الحركة العربية**، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٤٤ وما بعدها).

جوابي بالايجاب وعليه نقلت إلى دار الدكتور بيتر (Bitter) الألماني التبعة في قرية المعادي، التي كانت مصادرة من جراء الحرب، وكانت داراً صيفية جميلة بجنينة واسعة وغرف مؤثثة تأثيثاً أنيقاً. وأسكنوا معي جنديين من الأنكليز، وكان يزورني في كل يوم مرة أو مرتين ضابط الخفر، ويتفقد شؤوني، ووافقوا أيضاً على جلب المقدم (البكباشي) حسين بك الكويري، والملازمين لطفي وهادي، ليسكنا معي وذلك لإزالة ضجر العزلة عني، طلبت إلى الجنرال وطسن أن يبلغ القائد العام، آمر الجيش الجنرال آرشيبالد ميري، شكري على هذه المعاملة الحسنة.

وكانت مصاحبة الجنرال وطسن تلذّ لي كثيراً، لأنني كنت أرى في أطواره ومرحه ونكاته غير ما أعهده في الانكليز من تحاشي الغرباء والانكماش. وأتذكر أنه عند القبض عليّ، بعد محاولتي الهروب إلى السنوسي، أن أتاني الجنرال وطسن وأنا طريح الفراش، وطفق يكلمني بلهجة شديدة بقوله إن القائد العام أمر بمحاكمتي. فكان جوابي له ضحكة طويلة بقهقهة شديدة. وكان كلما حاول ضبط نفسه أتمادى في الضحك الشديد. وأخيراً شاركني هو أيضاً في الضحك. فقلت له: «لا يا أيها الجنرال، لقد أخللت بوظيفتك، لأن من واجبي أن أهرب وأزدري بكل شيء يمنعني من ذلك ومن واجبك أن تشدد المراقبة لئلا أفلت من يدك». وكنت بعد هذه الحادثة ألقى منه عطفاً خاصاً نحوي. ومن حسن حظي أن ذلك الرجل كان فيلسوفاً في أخلاقه، وواقفاً على أحوال الشرقيين وقوفاً تاماً، الأمر الذي جعله يرتاح إلى استخفافي بأقواله ويعاملني بمحبة وعطف. وعلى أي حال، فأنه لو كان من ضباط الجيش الهندي لكانت العاقبة سيئة لا محالة. وزرته مرة في المستشفى بعد مرور سنة من هذه الحادثة، وهو طريح الفراش على أثر سقوطه عن جواده، وكان ذلك بعد انضمامي إلى الشريف حسين ملك الحجاز، فقلت له بجد مصطنع عابساً: «يجب أن نحاكمك أيها الجنرال لفعلتك هذه». فأجابني بقوله: «إن سقوطي عن الجواد كان من جراء القيام بواجبي»، فقلت له: «لقد تساوينا الآن».

رسول الدسائس والريب

بعد انتقالي إلى دار الدكتور بيتر اتصل بي أن ضابطاً شاباً عراقياً من الموصل

يسمى «شريف الفاروقي»(٦) وصل إلى القاهرة ممثلاً لجلالة الملك حسين لدى السلطات البريطانية في مصر. فذهبت لزيارته. وكانت معرفتي به قديمة، لأنه كان أحد تلاميذي القدماء لما كنت مدرساً في المدرسة العسكرية في بغداد. ففهمت منه أنه هرب من الجيش التركي والتحق بالجيش الانكليزي، وادّعى أنه ممثل للجمعيات العربية، وبين استعداده للاتصال بالشريف حسين للقيام بحركة واسعة النطاق على الامبراطورية العثمانية في جميع الأقطار العربية وأنه أرسل فعلاً إلى جلالته. وكانت النتيجة أن الملك حسين عينه ممثلاً له لدى السلطات العسكرية البريطانية للحصول على الأسلحة والذخائر ولإرسال المتطوعين إلى الحجاز لخدمة الشريف حسين. ولما كانت شخصية ذلك الشاب وتصرفه في الأمور على غير ما يرتاح إليه رجال العرب لذلك كان تأثيرة قليلاً. وكان يخامره الشك في أمر الذين يقابلونه ويتخوف منهم لئلا يفقد مركزه عند الشريف والانكليز، لأن العراقيل التي وقفت في سبيلي في باديء الأمر في قضية انضمامي إلى الشريف كانت نتيجة مخاوف شريف الفاروقي هذا، لأنه كان يحسبني من الاتحاديين نظراً إلى الصلة الشخصية التي كانت بيني وبين أنور باشا مع أن تلك الصلة يرجع عهدها إلى الزمن الذي كنا فيه في المانية معاً، ولم تتعد تلك الصلة حدود الصداقة الشخصية، وعطفه الخاص عليّ من جراء تقدير الجهات العسكرية الألمانية في ألمانية وفي تركية، لهذا العاجز، ولم يكن لتلك الصلة علاقة بالسياسة لأننا في الحقيقة كنا في المبدأ السياسي على طرفي نقيض.

سافر نوري السعيد إلى الحجاز كما أن ضباطاً كثيرين من أبناء العرب الذين كانوا أسرى في حرب الهند انضموا إلى جيش الشريف، وذهب أيضاً عزيز علي المصري لقيادة الجيش العربي النظامي. وفي خلال هذه المدة التي قضيتها في مصر كنت أقابل من حين إلى آخر شريف الفاروقي. منتظراً منه أن يبلغني جواب الكتاب

---

(٦) محمد شريف الفاروقي (١٨٩١ ـ ١٩٢٠) ولد في الموصل وهو ينتمي إلى أسرة العمري المعروفة وتخرج في المدرسة العسكرية في استانبول ضابط مشاة. انتمى إلى «جمعية العهد» ثم إلى «العربية الفتاة» اعتقله الأتراك في حلب ولما أطلق سراحه أرسل إلى جبهة القتال في غاليبولي، وهناك اجتاز خط القتال وسلم نفسه للقوات الانكليزية وطلب أن ينقل إلى مصر، وبعد اعلان الثورة اشترك في العمليات العسكرية ثم عينه الشريف حسين ممثلاً له في القاهرة ولكنه استغنى عن خدماته في عام ١٩١٧ قتل في العراق اثناء ثورة ١٩٢٠.

الذي كتبته إلى جلالة الملك حسين، طالباً السماح لي بالانخراط في سلك جيشه لنجدة العرب. وكنت أشعر بمماطلة وتسويف. وأصررت عليه ليبين لي الأسباب التي تؤخر البت في أمري. فحاول أن يبين لي من طرف خفي أن السلطات البريطانية هي المرتابة في أمري لأنها تخشى أن أفلت من يديها فأرجع إلى صفوف الجيش العثماني.

تمهيد السبيل للانضمام إلى الجيش العربي

قبيل السفر إلى الحجاز بقيت منتظراً صابراً على تلك الحال دون أن أتمكن من عمل شيء، وسمعت يوماً برجوع عزيز علي إلى مصر، ووصلني كتاب موجز من نوري السعيد من الحجاز ينبئني فيه بوجوب مقابلتي عزيز علي والبت فيما يتعلق بأمر ذهابي إلى الحجاز. فذهبت لمقابلة عزيز علي في القاهرة فتباحثنا ملياً في الموقف، وفهمت منه أنه ممتعض من الشريف لأنه لا يعير إهتماماً للخطط والتدابير الواجب اتباعها لتنظيم الجيش العربي وقيادته. وأبان لي أن الأفضل أن لا أتسرّع فأرمي نفسي في ورطة كما وقع هو نفسه فيها. فتأثرت كثيراً من جراء هذه الحالة لأن عدم الاستفادة من خدمات عزيز علي كانت خسارة عظيمة للقضية العربية ولا ريب[٧].

وكان الضباط العراقيون يمرون بمصر في طريقهم إلى الحجاز، وكنت أشجعهم دائماً على الخدمة بكل تفان واخلاص. وكان أغلبهم من أعز أصدقائي ومعارفي أذكر منهم عبد اللطيف نوري، ورشيد المدفعي، وتوفيق نزهة، وغيرهم من الذين تقلبوا في مناصب وقيادات خطيرة في الجيش العربي.

---

(٧) ذكر الدكتور فاضل حسين ـ استاذ التاريخ الحديث بجامعة بغداد ـ في محاضرة له بعنوان «سياسة نوري السعيد الخارجية» ألقيت بتاريخ ١٨/٣/١٩٧٤ إنه «يرجح أن نوري السعيد وجعفر العسكري كادا لعزيز علي المصري عند الشريف حسين قائلين أنه يدبر انقلاباً ضده وضد الانكليز في مصلحة العثمانيين والالمان، وكان ذلك من جملة أسباب اضطرار عزيز علي إلى ترك الحجاز والعودة إلى مصر»، ولم يشر الدكتور فاضل حسين إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات أو الأسباب التي حملته على ترجيح هذا الرأي، ولكن ما ذكره جعفر العسكري اعلاه يدل على ان هذا الاستنتاج لم يكن صحيحاً. بقدر تعلق الأمر بجعفر العسكري على الأقل، وان العسكري ذهب إلى الحجاز بعد مغادرة عزيز علي المصري. (أنظر: الدكتور فاضل حسين «سياسة نوري السعيد الخارجية» مستخرج من مجموعة محاضرات الموسم الثقافي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٧٦، ص ٥٢).

وعلى أثر استمرار المناوشات والقتال في الحجاز، وتوسع الجبهة الحربية من مكة إلى رابغ، فالوجه، اضطر الملك حسين إلى ان يطلب من انكلترة زيادة مساعدتها له، واتى فوزي بك البكري من مكة إلى مصر، وكان يومئذ وزير الداخلية عند الملك حسين، ليفاوض السلطات البريطانية بهذا الصدد. وزارني هو والدكتور عبد الرحمن بك الشهبندر ورفيق بك العظم[٨] في داري التي كنت أسكنها في المعادي، وطفق يبين لي الصعوبات الجمة التي يلقونها لعدم وجود ضباط وجنود مدربين لمواصلة الحرب على الأساليب العسكرية الحديثة، وأنه لا يمكن التغلب على المواقع العسكرية التي يحتلها الجيش العثماني بلا وسائل حربية حديثة، وجيش مدرب يستطيع استعمال تلك الوسائل. فاستفزّ همتي للتكلم مع الأسرى العرب من ضباط وجنود في معتقلات المعادي ومصر الجديدة وسيدي بشر في الاسكندرية، فقبلت تكليفه بكل ترحيب، وذهبت معه ومع الشيخ رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، والدكتور الشهبندر وغيرهم من رجالات العرب الذين لا أتذكر أسماءهم، إلى معتقل مصر الجديدة، فجمعوا لنا الأسرى في ساحة واسعة. فخطبت فيهم خطبة حماسية في وجوب التطوع في جيش الشريف وذلك لتخليص بلادهم من ربقة الأجانب، وجعلها دولة مستقلة ذات سيادة تحت علم الملك حسين. فكان لكلامي هذا وقع حسن في نفوسهم، فأعرب الكثيرون منهم عن رغبتهم في التطوع، وطلبوا تسفيرهم إلى الحجاز على جناح السرعة المستطاعة.

وكان الأمر كذلك في معسكر المعادي، ولكن لم يلتحق ألّا القليلون من معسكر المعادي رغم محاولتي بسط الحقائق لهم، لأن أتراكاً كثيرين كانوا مختلطين بهم، وكان هؤلاء يفسدون ما نصلحه نحن.

وذهبت أيضاً إلى «سيدي بشر» في الاسكندرية وكان هناك الضباط فقط. فدعوت بعضهم من الذين كان لي صلة بهم، فكلمتهم في الموضوع على سبيل تبادل الآراء، فرأيتهم غير راغبين في الانضمام إلى هذه الحركة خوفاً على مستقبلهم ومصير

---

(٨) رفيق العظم: رئيس حزب اللامركزية وكان في ذلك الوقت مقيماً في مصر مع بعض ممثلي الجمعيات السرية العربية.

عائلاتهم، فلم أرد أن أصر عليهم بل بالعكس فارقتهم على صفاء، ووعدتهم أيضاً بأن أساعد عائلاتهم بقدر الاستطاعة، وطلبت إليهم أن لا يفكروا في أنني سأسخط عليهم عند نجاح القضية العربية.

وبالفعل أنني بعد انتهاء الحروب ورجوعنا إلى العراق وتأليفنا الجيش العراقي، جاء أولئك الضباط من تركية طالبين مني استخدامهم في الجيش العراقي، فاستخدمتهم بلا تردد، وبعضهم متمتع ببحبوحة العيش حتى يومنا هذا، وقد أصبح أولئك البعض أشد قحطانية وعدنانية من يعرب نفسه.

وبعد رجوع فوزي بك البكري إلى الحجاز بمدة قصيرة أتاني كتاب من الأمير فيصل يدعوني فيه إلى الاشتراك معه بالفعل في السعي لخلاص البلاد العربية من أيدي الغريب. فذهبت إلى المكتب العربي للاستفسار عن الحالة، وللسؤال هل وصل إلى ذلك المكتب أشعار ما بشأني من الملك حسين. فكلمني المستر «كورنواليس»[٩] الذي ألتقيت به أول مرة هناك مستطلعاً رأيي في الخطة التي يجب السير عليها في الحجاز لو وافقت الحكومة البريطانية على إرسالي إلى الملك حسين، فأبنت له أنني

(٩) كورنواليس، السركيناهان (١٨٨٣ ـ ١٩٥٩) من أهم الشخصيات البريطانية التي كان لها دور مهم في المكتب العربي في القاهرة ثم في العراق، ولد في نيويورك لأبوين بريطانيين وتخرج في أوكسفورد متخصصاً في القانون والدراسات العربية، وعمل في حكومة السودان ثم في مصر. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى استعاره كلايتن للعمل في المكتب العربي، ثم أرسل مع ستورز وهوغارث لاقناع الشريف حسين بالقيام بالثورة خلال سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٨، وخلف هوغارث في رئاسة المكتب العربي ثم التحق بالأمير فيصل في سورية وبعد الاحتلال الفرنسي عاد إلى القاهرة وواصل إدارة المكتب العربي حتى سنة ١٩٢٠ ونقل بعدها إلى وزارة الخارجية في لندن، وكان أول من فاتح الأمير فيصل في موضوع عرش العراق، ورافقه عند قدومه من الحجاز إلى البصرة، وبقي في بغداد ١٤ سنة مستشاراً لوزارة الداخلية كما كان مستشاراً شخصياً للملك فيصل الأول، وأصبحت له خبرة واسعة في شؤون العشائر العراقية ونفوذ كبير بينها. وبعد وفاة فيصل الأول أنهيت خدماته في العراق في عهد الملك غازي سنة ١٩٣٥ ولما نشبت الحرب العالمية الثانية رشّح سفيراً لبريطانية في العراق فوصل بغداد في بداية الحرب العراقية ـ البريطانية في مايس سنة ١٩٤١ وتنحية الأمير عبد الاله عن الوصاية، فماطل كورنواليس في تقديم أوراق اعتماده إلى الوصيّ الجديد، الشريف شرف، إلى ان أنتهت الحرب بالنتيجة التي انتهت بها، فقدم أوراق اعتماده إلى الأمير عبد الاله بعد التوقيع على الهدنة. وبقي سفيراً في العراق لمدة أربع سنوات اعتزل بعدها الخدمة وعاد إلى انكلترة.

جندي وليس لي مطمع آخر سوى القيام بواجبي القومي كمتطوع في صفوف الجيش العربي. فأوعز إليّ بأن أقابل رئيسه الجنرال «كلايتن» وهو سيكلمني في الموضوع. وضرب لي موعداً لأقابله في اليوم التالي. فقابلت الجنرال كلايتن في مكتبه فقال لي إن الأمير فيصل يحتاج إلى قائد عسكري ليقود الجنود النظامية. وإنه علم برغبتي الأكيدة في الالتحاق بالحركة العربية، وإن الحكومة البريطانية اتفقت مع الملك حسين على أن يكون للعرب كيان سياسي، وان جميع البلاد التي يدخلها العرب ستكون لهم على أن يقرروا مصيرهم هم أنفسهم. إلى أن أراني رسم علم ملون وقال «هو ذا علمكم العربي الذي وضعه الملك حسين بيده «بألوانه الأربعة»، وطلب إليّ أن أوقع على تعهد رسمي بأنني، من حين انضمامي إلى الجيش العربي، إلى أن تنتهي الحرب، لن أنضم إلى الجهة المخاصمة لبريطانية العظمى، ولن أستعمل السلاح في وجه الدولة البريطانية. وقال إن هذا التعهد هو قاعدة متبعة في الجيوش المتمدنة جميعاً ولا بد من مراعاتها. فوقعت على تلك الوثيقة بلا تردد. وطلبت منه أن يزودني ببعض التفاصيل المتعلقة بالقوة الموجودة هناك. فبين لي وجود قوة نظامية صغيرة مؤلفة من خيالة ومدفعية ورشاشات. وأن هناك فوجاً في الإسماعيلية للتدريب مؤلفاً من ضباط وجنود عراقيين أتوا بهم من الهند مع جنود متطوعين في معسكرات الأسرى لم يرسلوا إلى الحجاز حتى ذلك الحين.

وتطوع معي أيضاً البكباشي حسين الكويري من سكان بنغازي، كما أنه التحق بي بعض الضباط السوريين من اللاجئين إلى الجيش البريطاني من الجبهات الحربية المختلفة لعدم ميلهم إلى المحاربة تحت العلم العثماني.

ودعني أصدقائي الكثيرون في مصر، وسافرت في أوائل سنة ١٩١٧ من القاهرة إلى السويس، ومن السويس إلى «الوجه» على البارجة «هاردنغ».

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

في حَضرَة فيْصَل أوّل مَـرَّة

عند نزولنا إلى البر رأيت أصدقائي مولود مخلص ورشيد المدفعي وفوزي بك البكري وضباطاً آخرين من أبناء العرب ينتظرونني على الساحل أمام سراي الوجه. فذهبنا توّا لمقابلة سمو الأمير فيصل الذي كان في خيمته في المعسكر.

وجدت الأمير شاباً نحيفاً بشمائل رقيقة، فضمّني إلى صدره وقال «إني كثيراً ما كنت أود تحقيق هذا اللقاء، فالحمد لله على ذلك» وقال أيضاً «لم نتمكن ويا للأسف حتى الآن من تأليف قوة نظامية من جراء الصعوبات الجمة التي نلاقيها من جميع الجهات، وأؤمل أننا من الآن فصاعداً سنبذل قصارانا لتأليف جيش منظم يمكنه القيام بالواجبات الحربية على مقتضى الحال» فأجبت سموه بكلمات جديرة بالمقام، ثم استأذنت سموه في الانصراف فأذن لي، وانصرفت إلى الخيمة التي كانت معدّة لي، فجاءني الضباط للترحيب بي، وهم راسم سردست ضابط المدفعية، وعبد الله الدليمي، ضابط الرشاشات، وخالد سعيد ضابط الهجانة. أما مولود مخلص فكان آمر القوة الراكبة (البغالة)، وكان رشيد المدفعي منزوياً في خيمته.

وكان من الواجب توطيد أواصر الأخوّة العسكرية بين الضباط لأن الضباط الذين ذكرتهم لم يكن يعترف أحدهم للآخر بالأمرة عليه، ولا كان يرى نفسه مرتبطاً بضبط عسكري، بل كان كل منهم يراجع الأمير مباشرة في شؤون وحدته. إن هذه الحالة بالطبع لا تؤدي إلى نجاح، لأن الأمير كان منهمكاً في أشغال سياسية وإدارية كثيرة تمنعه من الاشتغال بتفاصيل شؤون الجيش. وعلى أثر ذلك فاوضت الأمير بوجوب إنشاء قيادة عسكرية لتنظيم خطط الحركات للجيش، وأن تصدر الأوامر

المفصلة إلى رؤساء القبائل بأن لا يقوموا بحركة ما بلا استشارة القيادة والحصول على رأيها.

وقابلت أيضاً الزعيم (الكولونل) جويس[١] ضابط الارتباط البريطاني في الوجه، والزعيم (الكولونل) نيوكمب[٢] وفاوضتهما بوجوب الاسراع في جلب ما يعوزنا من أسلحة وعتاد. وكان الزعيم جويس مع معاونه (الصاغ) محمود حلمي الضابط المصري يهتمان كثيراً بكل الذي أقوله ويقبلان اقتراحاتي بلا جدال كثير. أما الزعيم نيوكمب فكان ضابط هندسة. وكان يعني كثيراً برسم خرائط المنطقة التي يتجول فيها، وكانت لديه مفرزة صغيرة مؤلفة من عشرين جندياً من الجيش المصري، وذلك لاستعمال المتفجرات والنساف (الديناميت) عند الاقتضاء.

مؤتمر عسكري

وكان الاتصال مفقوداً بالنظر إلى الحركات العسكرية بين القوة الموجودة بقيادة الأمير علي[٣] في بئر درويش المرابطة أما الجيش العثماني الموجود في المدينة بقيادة فخري باشا التركي. وكانت قوة «الأمير علي» أكبر قوة نظامية في الجيش الشريفي، وكان فيها معظم الضباط المتطوعين، منهم نوري السعيد، وعلي جودة، وحميد الشالجي، وسعيد المدفعي، وعبد الكريم شاه، والبكباشي حسين الكويري، وجميل الراوي، وجمال علي، وكثيرون غيرهم من أبناء العرب.

---

(١) جويس: كان رئيساً للبعثة العسكرية البريطانية التي الحقت بالجيش الشمالي وقد رافق حملة فيصل من العقبة إلى دمشق. عين مستشاراً لوزارة الدفاع العراقية في بداية تأسيسها، وكان أول رئيس للبعثة العسكرية البريطانية في العراق.

(٢) نيوكمب: أحد الضباط البريطانيين الذين أرسلهم الانكليز لمساعدة الكرنل ويلسن في تقديم المشورة للثورة العربية، وقد بقي مهتماً بالشؤون العربية طيلة حياته.

(٣) الأمير عليّ (الملك عليّ فيما بعد) (١٨٨٠ - ١٩٣٥) أكبر أبناء الشريف حسين (الملك حسين فيما بعد) والشقيق الأكبر للملك فيصل الأول. ولد بمكة المكرمة ورافق أباه إلى استانبول حيث تلقى دراسته. ولما قام الشريف حسين بالثورة على الدولة العثمانية أصبح قائداً للجيش الذي حاصر المدينة. أصبح ملكاً للحجاز بعد تنازل أبيه ثم ذهب إلى العراق بعد أن تنازل هو أيضاً، وعاش في بغداد حتى وفاته. ناب عن الملك فيصل الأول أكثر من مرّة خلال غيابه عن العراق، وهو والد الأمير عبد الاله الوصيّ على عرش العراق في عهد الملك فيصل الثاني.

وبعد وصولي إلى الوجه بمدة قصيرة حدثت حادثة في جيش الأمير علي أدت إلى إبعاد علي جودة[٤]، وكريم شاه، وحميد الشالجي عن الجيش وإرسالهم إلى مصر. ولم تنشأ هذه الحادثة إلّا عن سوء تفاهم. فقد كتب علي جودة كتاباً إلى الميرآلاي علي نجيب بك في المدينة باخلاء المدينة وتسليمها إلى الغرب بلا سفك دم، ووقع هذا الكتاب بيد الأمير علي قبل وصوله إلى يد علي نجيب فأثار غضبه، ونزع من قلبه ثقته فيه لأنه كتب ذلك الكتاب بغير علم منه. وعلى أثر ذلك تشتت كثير من الضباط الموجودين في ذلك الجيش.

وحدثت حادثة أخرى مع نوري السعيد قبل حادثة علي جودة، فأستنزلت غضب الملك حسين عليه، وذلك على أثر خلاف نشأ بينه وبين الضابط المصري قيسوني بك الذي اختاره الملك حسين وزيراً للحربية عنده في مكة. وبالطبع ان ضابطاً من أمثال عزيز علي ونوري السعيد، الناشئين في أرقى المدارس الحربية، وكان يصعب عليهم تلقي الأوامر من ضابط يعدّونه دونهم بكثير في الثقافة العسكرية. ولا يمكنني أن أمعن كثيراً في تفاصيل هذه الوقائع لأن المجال لا يتسع لها أكثر من هذا في مذكراتي، بل أترك ذلك للذين كانت الحوادث تتعلق بهم مباشرة.

اما الجيش الثاني فكان مرابطاً في مكان يسمّى وادي العيس، وكان عدد الجيش النظامي فيه ضئيلاً جداً، وكان بقيادة الضابط السيد حلمي. وكانت هناك بعض قبائل بدوية، ولم تكن لهذا الجيش فعالية شديدة نظراً إلى قلة عدده وعدته. وكان قائده الأمير عبدالله يراسل دائماً أخاه الأمير فيصل ويطلب منه النجدة بارسال الجنود

---

(٤) علي جودة (١٨٨٦ - ١٩٦٩) أصبح فيما بعد من أبرز رجال السياسة في العراق. ولد في الموصل وتخرج من المدرسة الحربية في استانبول وتخرج منها ضابطاً سنة ١٩٠٦. خدم في مناصب عسكرية عديدة في العراق وأسس مع جميل المدفعي فرعاً لجمعية العهد السرية في الموصل. اشترك في معركة الشعيبة. ثم أسره الانكليز ونقلوه إلى البصرة ومنها التحق بالثورة العربية في الحجاز والتحق بالأمير فيصل في العقبة. وبعد احتلال سورية عين حاكماً عسكرياً لمدينة حلب واشترك في معارك دير الزور ثم التحق بالأمير فيصل في جدة وعاد معه إلى العراق فعهدت إليه عدة متصرفيات ثم أصبح وزيراً للداخلية في وزارة جعفر العسكري الأولى (٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٣ - آب ١٩٢٤)، ثم عاد إلى بعض المناصب الإدارية وتقلد عدة وزارات وأصبح رئيساً للديوان الملكي كما شغل عدة مناصب دبلوماسية رفيعة وتولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات، أنظر مذكراته التي نشرت في بيروت سنة ١٩٦٧ وفيها يروي ذكرياته عن الأحداث التي يسردها جعفر العسكري.

والذخائر. فصمم الأمير فيصل زيارة أخيه في وادي العيس ليقررا معاً الخطة التي يسيران عليها في المستقبل. فتحركنا من الوجه في معيّة سمو الأمير فيصل، أنا ومولود مخلص[٥] الذي كانت القوة الراكبة بقيادته، فوصلنا وادي العيس بعد مسيرة يومين، في وديان الحجاز القفراء. ومما يجلب النظر هنا أن الانسان يشاهد أشجاراً كثيرة عظيمة بلا ورق، وهي يابسة باغصانها وجذوعها كأنها شوك يابس، ومن شدة الحر كانت الجمال تسير بنا إلى تلك الاشجار لنحتمي «بظلها» فتتمزق ثياب راكبيها باشواكها.

ووقعت لنا حادثة جعلتنا في موقف حرج للغاية وذلك أن شدة الظمأ جعلت الدواب تهجم على بئر كنا نستقي منها الماء، والقت دابة بنفسها في البئر على عمق عشرين متراً ومع ذلك لم يهمنا أمر الحيوان وقذارته في البئر، بل كنا نشرب الماء القذر هنيئاً من شدة العطش، ولم أشعر بحياتي بظمأ أشد مما شعرت به في تلك السفرة. فكنت اشاهد الدنيا حمراء في عيني، وأنا ألجأ إلى شجرة من الأشجار التي ذكرتها، حتى أتوني بزمزمية ماء ففتحت عيني بالتدريج.

وصلنا إلى وادي العيس فاستقبلنا الأمير عبدالله مع حاشيته في مدخل الوادي، فتباحث الأميران فيصل وعبدالله في الخطة التي يجب السير عليها فيما يتعلق بمهاجمة السكة الحديد الحجازية، دون أن تنجدها قوات أخرى، فوعد الأمير بارسال ما يمكن إرساله من قوته لتعزيزها، على أن يقوم هو أيضاً بالتحرك نحو السكة الحديد لقطع الخط تماماً عن القوات العثمانية المحتشدة في المدينة.

---

(٥) مولود مخلص (١٨٨٥ ـ ١٩٥١): من أبرز الشخصيات الوطنية في العراق ولد في الموصل ودرس في المدرسة الحربية وكان عسكرياً جيداً، واشترك في تأسيس الجيش الحجازي وأبلى بلاء حسناً في معارك العقبة والكويرة والطفيلة ووادي موسى وسمنة ومعان، وجرح أكثر من مرة، وعاد إلى الجيش العربي الذي احتل سورية ورفع إلى رتبة (أمير لواء) وعين قائداً لفرقة حلب. ولما احتلت العشائر السورية مدينة دير الزور واستخلصتها من يد الجيش البريطاني عينته الحكومة السورية متصرفاً لها. عاد إلى العراق وعين متصرفاً للواء كربلاء (١٩٢٣)، ثم عضواً في مجلس الأعيان (١٩٢٥)، ورئيساً لمجلس النواب (١٩٣٧ ـ ١٩٤١). أشتهر مولود مخلص بشجاعته واريحيته وناله الأذى في عهد بكر صدقي. وجرت محاولة لاغتياله. توفي في زحلة بلبنان في ٤ آب (أغسطس) ١٩٥١.

وقضينا في وادي العيس ثلاثة أيام مزعجة كانت الأعاصير الرملية خلالها مستمرة الهبوب هنالك ليلاً نهاراً بشكل لا يطاق، وكنت أفكر أن البقاء هناك على هذه الحالة مما سيسبب هلاكنا جميعاً، وقد قيل إن هذه الحالة لا تدوم ، غير أنها دامت مدة بقائنا غير مرحبة بقدومنا.

وكان يحضر اجتماعاتنا الكابتن رحو الذي كان ضابط ارتباط من قبل الفرنسيين لدى الأمير عبدالله، وكذلك المستر كورنوالس، والكرنل جويس.

وبعد رجوعنا من وادي العيس أرسلت قوة صغيرة لا تزيد على المائتي جندي من أهالي زهران مع ضابطين وبعض المعدات الجوية إلى الأمير عبدالله فوراً حسب رغبة الأمير فيصل.

ودار البحث في وادي العيس حول توحيد الحركات في الجيوش الثلاثة المنتشرة من المدينة إلى الوجه، وجعلت قيادة الجيوش النظامية بيدي لوضع الخطط الحربية عند الاقتضاء. ولكن لسوء الحظ كان اتصالنا بالقوات المرابطة أمام المدينة ضعيفاً، كما أن هذا الضعف أخذ يبدو كلما أمعنّا في الزحف شمالاً.

وأخذت في هذه الآونة تتوارد علينا المتطوعة من مكة بكثرة بناء على طلب سمو الأمير فيصل، لأنه بدأ يشعر بالصعوبة العظمى التي يلقاها من البدو في معاملتهم، كما أنه تيقن من أنه ما لم يكن أقوى منهم في كل موقف فأنه سيمسي العوبة بين أيديهم، وسيستغلونه لابتزاز المال لا غير.

فألفنا فوجاً من أهل مكة سميناه «فوج القبلة» وعينت الضابط «حسن معروف» آمراً على هذا الفوج. وكان ضابط الارهاط (السرايا) من شيوخ الحارات من أهل مكة، لأنه لم يكن لدينا العدد الكافي من الضباط لنوزعهم على الأرهاط (السرايا).

الغارة على زمرد

وكان الأمير فيصل ينوي قطع المواصلات بين المدينة والشام وذلك بتخريب السكة الحديد الحجازية في عدة نقاط مع اختلاف بعض المواقع القريبة من السكة

الحديد لتخريب السكة، وعند التمكن فاحتلال المحطات ذاتها. ولتقوية معنويات القبائل والجنود فكرنا، نحن والكولونل جويس، عند زيارة ولسن باشا الممثل البريطاني لدى جلالة ملك الحجاز، أن نطلب اليه أن يرسل لنا مدفعاً ضخماً للافادة منه في الهجوم، وطلبت الى القائمقام حسن فهمي مدير اللوازم العسكرية (الميرة) أن يهيء الذخائر والطعام للجيش في المراكز الأمامية في وادي جيدة الواقع على قيد مرحلتين من السكة الحديد. وقبل تحريك القوة الى النقاط المجاورة للسكة الحديد طلبت من راسم ومولود وعبدالله الدليمي وباقي الضباط ان يهتموا اهتماماً شديداً بشؤون التدريب.

وفي ١٧ تموز سنة ١٩١٧ تحركت القوات المرابطة في الوجه، والمؤلفة من فوج القبلة والقوة الراكبة التي كانت تعد تقريباً مائتي جندي، وقوة الهجانة التي تعد مثلها مائتي جندي، ومدفعين جبليين ورشاشتين، إلى وادي جيدة، وهناك عسكر الأمير فيصل، وأقبلت عليه قبائل جهينة للاشتراك في غزو محطات السكة الحديد.

وكان من الضروري قبل الزحف استطلاع المنطقة التي ستجري فيها الحركات العسكرية. فتحركت ومعي قوة بدوية صغيرة بقيادة الشريف علي بن حسين الحارثي[٦] وعدّة جنود مصريين، مع الكولونيل «نيوكمب» للكشف وتخريب قضبان السكة الحديد عند الاستطاعة. وكان تجوالنا بين محطتي زمرد والبدائع. فقررنا تخريب السكة ليلاً في جوار محطة «سهل مطر» الواقعة بين البدائع وزمرد. فاقتربنا من السكة وكانت الليلة ظلماء. ولما بدأ الديناميت ينفجر بدوي هائل رأيت أشباحاً كثيرة من الجيش التركي تتقدم نحونا، وفي الوقت عينه بدأت المناوشة خلفنا. وبقينا منقطعين

---

(٦) الشريف علي بن الحسين الحارثي (١٨٩٥ ـ ١٩٥٥): ينتمي إلى فخذ بني الحارث من الاشراف. اتصل بأبناء الشريف حسين حينما كان أميراً لمكة، ثم رافق (الأمير) فيصل وانضمّ إلى الثورة العربية واشترك في المعارك الأولى حول المدينة وأبدى شجاعة نادرة كما اشترك مع لورنس في عدة معارك تالية ثم التحق بفيصل في دمشق بعد أن أصبح ملكاً وظل قريباً منه حتى أخرجه الفرنسيون من سورية، فذهب إلى عمّان وبقي إلى جانب (الأمير) عبد الله حتى أواخر عام ١٩٢٢، ثم عاد إلى الحجاز، وعينته الحكومة السعودية أميراً على وادي الليمون، ومرّت به فترة سجن خلالها، توفي بالسرطان في أحد مستشفيات القاهرة. ذكره لورنس في مواضع عديدة من (أعمدة الحكمة السبعة) وأشاد ببطولته وشجاعته.

عن الجمال. ولكن الشريف علي بن الحسين الحارثي أبعد الجمال إلى الجهة الجنوبية، ونفرقنا نحن أيضاً في تلك الجهة. وقد ظهر أخيراً أن الضرر الذي الحقناه بالسكة الحديد شيء لا يذكر، وفي استطاعة الجيش التركي اصلاح تلك السكة في بضع ساعات. هذا مع كوننا فقدنا ثلاثة جنود من مفرزة الديناميت التي كانت مع الكولونيل نيوكمب، واعتقد انهم وقعوا قيد أسر الحامية التي هاجمتنا.

وفي صباح اليوم التالي تجولنا مع الشريف عليّ المومأ اليه في جوار البدائع لاختيار محل ملائم لهجومنا التالي. فرأيت أن اسهل منطقة للتقرب هي منطقة زمرد لأن الأراضي هناك مستورة، وقلعة زمرد ذاتها تبعد عن المحطة مسافة ميلين، وفيها ماء غزير يسد حاجتنا، لأن أقرب نقطة من الخط الحديد فيها ماء كانت تبعد أكثر من مرحلتين.

رجعنا إلى «جيدة» وعرضت الموقف على الأمير فيصل، فتقرر أن نتحرك نحو السكة الحديد على أن يكون الهجوم على محطتي زمرد وسهل مطر، لأن محطة البدائع كانت مكشوفة بحيث يصعب التقرب إليها.

تحركنا في ٧ آب ١٩١٧ من وادي جيدة إلى بئر الفقيه بالقوة التالية: **فوج القبلة، القوة الراكبة؛ مدفعان جبليان صغيران رشاشتان.**

وتحركت معنا، إضافة إلى هذه القوة النظامية، قوة مختلفة من البدو وعقيل بقيادة الشريف شرف بن راجح[٧]، فبتنا ليلتنا في بئر الفقيه، وكانت المياه هنا

---

(٧) الشريف شرف (١٨٨١ ـ ١٩٥٥): هو ابن الشريف راجح بن فواز الذي اختير وصياً على عرش العراق خلال حركة رشيد عالي الكيلاني، ولد في الطائف واشترك في حملة عسير قبيل الحرب العالمية الأولى، ثم خلف أباه في إمارة الطائف سنة ١٩١٥ التحق بالثورة العربية عند قيامها، وعين أميراً للوجه، ثم كان على رأس القوة التي دخلت المدينة على أثر انسحاب القائد التركي منها، وعاد بعد ذلك إلى إمارة الطائف فتولاها حتى سقوط الدولة الهاشمية في الحجاز سنة ١٩٢٥، وذهب إلى العراق وناب عن الملك فيصل الأول خلال إحدى سفراته سنة ١٩٢٧، وأقام في بغداد حتى قيام حركة رشيد عالي الكيلاني ومغادرة الأمير عبد الاله، حيث اختير وصياً على العرش، ولما فشلت الحركة هرب إلى إيران وألقت السلطات البريطانية القبض عليه، وأبعد مع من أبعد من أنصار الحركة إلى روديسيا الجنوبية، نقل إلى بغداد وسجن فيها بضع سنوات، ولما أطلق سراحه ذهب إلى عمان وأصبح عضواً في مجلس الأعيان وتوفي فيها سنة ١٩٥٥.

شحيحة جداً. وفي الصباح التالي تحركنا ووجهتنا زمرد. وسرنا سحابة نهارنا بين التلال القفراء الجرداء، وفي هيب الشمس، إلى المساء وصلنا إلى جوار قلعة زمرد قبل منتصف الليل. وبدأت المصادمة بيننا وبين حامية محطة زمرد التي كانت بجوار قلعة زمرد. فاستمرت المناوشة حتى الفجر، اندحرت الحامية في نهايتها من جراء تضييق نار مدفعيتنا التي أسكتت مدفعية العدو، فبقيت قلعة زمرد بين النارين.

وكان في القلعة بئر، وهي مورد الماء الوحيدة لنا، إذ بدونه يمسي جيشنا كله عرضة للهلاك عطشاً، فتقدم مولود مخلص، مع القوة الراكبة إلى جنوبي المحطة لمشاغلة القوة الموجودة هناك، ومنعها من تهديد ميمنتنا. وتقدم فوج القبلة فاحتل التلال المشرفة على القلعة من الجهة الشمالية. وبحماية هاتين القوتين كان جنودنا يذهبون لاستقاء الماء، وكانوا مع ذلك عرضة لنيران العدو من الجبهة.

وكانت الأراضي وعرة للغاية، والتقرب إلى المحطة صعباً جداً، يضاف إلى ذلك أن جنود فوج القبلة كان معظمهم غير مدربين، ولم يكونوا قادرين على الصبر أو تحمل الظمأ والتعب، ولذا لم يثبت في محله منهم إلّا القليل. وكان آمرهم أيضاً، وياللأسف، من الضباط الذين تنقصهم الادارة القوية وشدة العزيمة. وابتعدت القوة الراكبة مع مولود مسافة بعيدة عنا حتى انقطع الاتصال بها، وانهمكت تلك القوة في مقاتلة العدو فلم تتمكن من ترك مواقعها خوفاً من التضييق على ميمنتنا. وقد بقيت في القلب المدفعية والرشاشات مع قوة قليلة من المشاة لحمايتها.

وقبل الظهر بساعة واحدة جاءنا خبر من الشريف شرف مآله أنه تمكن من مباغتة محطة «سهل المطر» والاستيلاء عليها بعد استسلام الضابط والجنود الذين فيها إلى قوته، وعلى أثر هذا الخبر اطمأنت نفوسنا إلى الناحية الشمالية، فتقدمنا قليلاً إلى محطة زمرد، وأرغمنا القوة التي كانت امامنا على التراجع نحو المحطة وترك القلعة بالكلية، فاستولينا على القلعة، وبعد ذلك بقليل وصل الينا الكولونيل نيوكمب مع قوة صغيرة لتخريب الخط بالديناميت. فبدأ فوراً بتخريب الخط. وعند الغروب سألت راسماً عن وضعه، فقال إنه رمى آخر طلقة عنده، فلم نستطع مواصلة القتال في اليوم التالي لنفاد العتاد، وتشتت الجنود تشتتاً كلياً بحيث لم يعد من الممكن الاستفادة منهم للقيام بهجوم جدي على المحطة التي كانت فيها حامية مدفعية وقوة لا

تقل عن فوج واحد بقيادة البكباشي زكريا بك. وكان زكريا بك هذا رفيقي في الصف في المدرسة الحربية العثمانية.

الذهـاب إلى العقبـة

رجعنا من هذه الحملة فجراً لما بلغنا خبر ورود نجـدات إلى حاميـة زمرد من الناحيتين الشمالية والجنوبية. فاجتمعنا في بئر الفقيه مرة أخرى لنقرر ما يجب عمله، وبينما نحن كذلك إذا بنا نتلقى كتاباً من الأمير فيصل يأمرنـا فيه بـالرجـوع فوراً إلى جيدة لأن العقبة سقطت بيد الحملة التي أوفدت بقيادة الشريف ناصر وعودة أبي تايه، ومعهما الكولونيل لورنس، وأن هذه القوة أرسلت براً قبل زيارة الأمير فيصل إلى وادي العيس بمـدة وجيزة. فبعـد أن فاجـأت هذه القـوة القوات العثمـانية في أبي الأسـل والكويرة والعقبة قامت القبائل القاطنة في تلك الجهات على الدولة العثمانية وأعلنت انضمامها الى الشريف حسين ملك الحجاز. وكان رجوعنا عـلى جناح السـرعة فلم نكد نسترح مدة يوم أو يومين في الوجه حتى أخذنا نشحن أمتعتنا وجنودنا في البواخر المهيأة للاقلاع الى العقبة، لأن وجود الأمير فيصل في العقبة يجعل القبائل مطمئنة، ويوسع نطاق الحركة شمالاً، ويوقع العدو في ارتباك شديد.

ويعد وادي الوجه من الوديان الكبيرة في الحجاز، لكنه جافّ طول السنة، إلا عند هطول الأمطار أحياناً. أما وادي «خربة» المتصـل بوادي الـوجه، فهـو وادٍ وعر يصعب المرور فيه، وحجارته كلها سوداء كأنها بركانية. وتعبنا كثيراً في سحب المدفع بعيار ٤,٥ عقدة، عند ذهابنا إلى جيدة، فاضطررنا اخيراً إلى تـركه في وادي خـربة هـذا الى حين رجـوعنا من سفـرتنا الى زمـرد. وفي وادي جيدة قليـل من الأشجـار الخضراء، والمياه متوافرة فيه بمجرد حفر قدم أو قدمين في قاعه. وماؤه عذب لا بأس به.

ولرؤوس الجبال شكل غريب، فهي مخروطية الشكل جميعاً وكأنها منحوتة نحتاً هندسياً. وما أجمل منظرها عند بزوغ الشمس إذ يتصور المرء نفسه في مدينة عظيمة مثل نيويورك أو غيرهـا من المدن الكبـرى. وكان تـلاعب الضوء بـالألوان ممـا يهيج النفس، ولا سيما عند اعتلاء الشمس في السماء، إذ كانت الألوان تتبدل من حمراء إلى

زرقاء إلى بنفسجية، وتبسط الظلال اللطيفة على تضاريس تلك الأكام مما يشرح الصدر ويحمل الانسان على الاستغراق في خيالات ملذة ممزوجة بعظمة وجلال. ولكن بعد مضي برهة وجيزة من الزمن ترتفع الشمس في الجو فترسل أشعتها المحرقة، فيشعر الانسان وكأنه سيسير في وادٍ يلتهب نيراناً. والوديان في الحجاز طويلة جداً، يمل المسافر من السير فيها، فيشعر بانقباض النفس من جراء طول السير الممل.

ركبنا باخرة صغيرة من الوجه في اواخر آب سنة ١٩١٧، فوصلنا العقبة بعد مخر يومين في البحر الأحمر وفي خليج العقبة. وتقع قلعة العقبة على الساحل الشرقي من الخليج بالقرب من منتهاه. وليس فيها سوى قليل من أشجار النخيل وبعض الآبار المالحة وبضعة اكواخ من الطين.

وبعد نزولنا إلى البر اتخذنا تلك القلعة المتهدمة مستودعاً للذخائر والمؤون الحربية، ونصبنا خيامنا بين النخيل. وبعد يومين وصل الأمير فيصل واتخذ العقبة مقراً له. فأرسلنا حالاً قوة مختلطة مؤلفة من مشاة ومدفعية وخيالة إلى منتهى وادي التيم في محل يسمى الكويرة. والمسافة بين العقبة وهذه النقطة تزيد على الستين ميلاً.

وكان الجيش العثماني قد حفر بئراً في وادي التيم على مسافة عشرة اميال من العقبة، وكان ماؤها عذباً، فانتفعنا بتلك البئر كثيراً، حتى اننا كنا نجلب الماء الى العقبة منها، وهنا ايضاً كان يتوارد رؤساء القبائل الى سمو الأمير للسلام عليه، وعرض الطاعة له، ولتنفيذ اوامره. وكان أجلّ اولئك الرؤساء شأناً رؤساء الحويطات، وفي مقدمتهم رئيسهم الأكبر عودة أبو تايه[8]، ومحمد الدحيلان، وحمد الجازي، وكانت المنافسة شديدة بين عودة أبي تايه وحمد الجازي، لأن آل جازي هم في واقع الأمر رؤوس الحويطات من قديم الزمن، ولكن عودة انفصل هو وفرقته «التوائهة» عن الجوازي، وقاتلهم في عدة وقائع وتغلب عليهم، فأعلن نفسه شيخاً

---

(٨) الشيخ عودة أبو تايه (١٨٥٨ ـ ١٩٢٤): زعيم حويطات التوايهة الذين يقيمون عادة حوالي معان، ومن أشهر فرسان البدو في تلك الفترة. وقد قام بدور مهم في عمليات الثورة ودعم الجيش الشمالي. اتخذه لورانس صديقاً وتحدث عنه كثيراً في «أعمدة الحكمة السبعة» وفي كتاباته الأخرى.

مستقلاً على قسم من الحويطات. وكان عودة في الحقيقة من الأبطال المشهورين بشجاعتهم وكرم اخلاقهم وجودهم. وليس بين اعضائه عضو سليم من جرح رصاصة أو سيف او خنجر، أي انه كان دائماً في مقدمة رجاله حين الهجوم على اعدائه. فلولا بسالته وتضحيته هو واولاد عمّه لما تمكن الشريف ناصر(٩) من الاستيلاء على العقبة والنقاط الأمنية بين العقبة ومعان في أبي الأسل والكويرة. وكان الجوازي يميلون الى الراحة والترف اكثر منهم الى العيش الخشن والضنك. ومع ذلك فاني لا اطعن في شجاعتهم واخلاصهم. ولكنهم كانوا مترددين بعض التردد في امرهم، ولا سيما بعد ان فاز خصمهم عودة في المفاجأة الأخيرة التي باغت بها الجيش العثماني.

وفضلا عن هؤلاء فقد جاءنا شيوخ النجدات مع رئيسهم الشيخ حسن بن نجاد، وشيوخ النعيمات وغيرهم. وكانت مآتي هؤلاء افضل من شيوخ قبائل جهينة الذين لقيناهم في الوجه، لأن آل جهينة لم يشتركوا معنا في حرب، بل كانوا دائماً يقفون وقفة المتفرج، وكانوا يتمتعون بعطايا سمو الأمير فيصل ونعمه التي اسبغها عليهم.

وفي تلك الآونة وصلني كتاب من نوري السعيد ينبئني فيه عن الخلاف الذي نشأ بين الأمير علي وبعض الضباط العراقيين بناء على الكتاب الذي اراد علي جودة إرساله الى القائد العثماني في المدينة الزعيم (الميرآلاي) علي نجيب بك، فجعله ينتقل من جيش الأمير إلى معية الأمير عبدالله، ولكنه هناك أيضاً طفق يشعر بتعب، فاستأذن من الأمير عبدالله للرجوع إلى مصر، فطلبت اليه ان ينضم الينا لأنه سيجد مجالاً واسعاً للعمل معنا، لا سيما وانني محتاج الى رئيس اركان جيش يساعدني على تنظيم شؤون الجيش وتحركاته. فرجوت من الأمير فيصل رجاءً خاصاً ان يجيب طلبي

---

(٩) الشريف ناصر بن علي (١٨٩٠ - ١٩٣٤): من أشراف المدينة المنورة. زار دمشق في أوائل سنة ١٩١٦ مع فيصل أيام الحكم العثماني وتعرّف سراً على بعض حملة الفكرة العربية، ولما قامت ثورة الشريف حسين في مكة كان الشريف ناصراً أول من نادي بها في المدينة، ثم لحق بفيصل وكان نائباً له في قيادة جيشه في زحفه إلى الشمال، فخاض المعارك ودخل دمشق قبل فيصل وطارد بقايا الجيش العثماني إلى حلب. وقد أقام في دمشق حتى احتلال الفرنسيين لها فغادرها إلى مكة ثم إلى بغداد حيث أقام إلى حين وفاته.

هذا غير مكترث لما جرى في مكة وبئر درويش، واني بذاتي كفيل له في جميع اعماله، فوافق الأمير فيصل على ذلك، فالتحق نوري السعيد بنا في العقبة.

وانضم الينا في العقبة فوج كامل من ابناء العرب بجنوده وضباطه، وكان معظمهم من العراقيين، وهم الذين تطوعوا من الهند وبقوا في «الاسماعيلية» مدة من الزمن ينظمون شؤونهم، وقد اسمينا هذا الفوج «فوج الاسماعيلية». والتحق بنا عدا هذا الفوج كثيرون من متطوعة ابناء العرب من معتقلات الأسرى في القطر المصري.

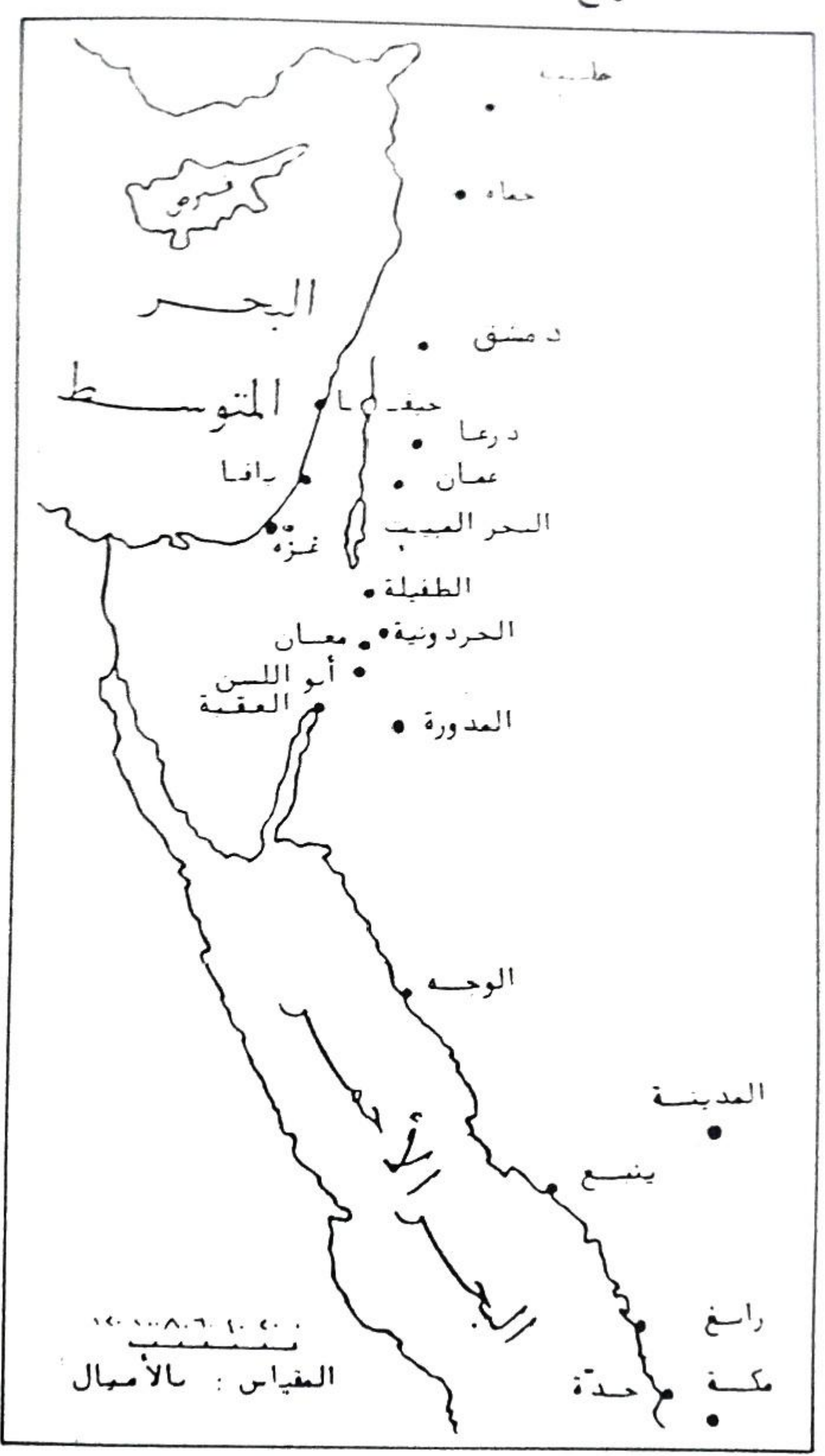
اجتمعت قواتنا في العقبة، فأصبح من الضروري اعادة النظر في تنسيقها وتأليف وحدات كبيرة لتسهيل الادارة. فجعلنا القوة مؤلفة من فرقتين، وكل فرقة من لواء مشاة، ومن قوة راكبة ، ومدفعية، ومفرزات تلفون، ومفرزات تدمير، وقوات ملحقة من القبائل المتطوعة.

وجعلنا مقر الفرقة الأولى في الكويرة، اما الفرقة الثانية فجعلناها مستعدة للحركة الى الجهة التي نريد استخدامها فيها. فتعين العقيد (القائمقام) حسن وفقي بك لقيادة الفرقة الأولى، والعقيد مولود مخلص لقيادة الفرقة الثانية. وكان مقر القيادة في العقبة. وبعد مدة قصيرة توافد علينا اهالي وادي موسى والطيبة، وهم من قبائل اللياثنة، طالبين إنقاذهم من تهديد الجيش العثماني، وكانوا عقدوا العزيمة على الدفاع عن مناطقهم إذا حاول الجيش العثماني احتلالها. فعرضت الأمر على الأمير فيصل فوافق على إرسال قوة لاحتلال مواقع دلاغة ووادي موسى، لان ذلك بالطبع يهدد ايضاً القوات المرابطة في أبي الأسل، والمريغة، والوهيدة. فتقدم فوج الاسماعيلية بقيادة القائد السيد محمد طاهر الى دلاغة ومنها الى الطيبة فوادي موسى، ورافقت هذا الفوج في هذه السفرة، فعيّنا مواقع الدفاع، وبعد مدة قصيرة تسلم مولود مخلص هذه المنطقة، وظل معسكراً فيها.

وهاجمت الحامية العثمانية التي كانت في معان قواتنا المرابطة في وادي موسى، ولكن هجومها هذا أحبط بعد ان تكبدت خسائر فادحة فلم نتمكن من دفن القتلى ونقل الجرحى من ساحة القتال، مع ان قوتها كانت ضعفي قوتنا. ولا انسى هنا ما أبداه مولود مخلص من صبر وثبات. وكذلك الشجاعة الفائقة والتضحية العظيمة

اللتين ابداهما اللياثنة، ولا سيما اهالي طيبة. ففي الحقيقة كان أولئك اللياثنة الجبليون يلفتون نظر الانسان بطول قامتهم وقوة ابدانهم وشجاعتهم الفائقة. ومعظمهم تركوا قراهم، والتجأوا الى الكهوف الوعرة التي بالقرب من خرائب بطرا في سفح جبل النبي هرون. وتلك الكهوف غريبة الشكل، منحوتة في صخور ضخمة باشكال هندسية منتظمة، ولا زلت اتخطر كهفاً اتخذته مقراً لي في وادي موسى مدة بضعة اسابيع فكان يعجبني ذلك النحت البديع ولا سيما رؤوس الاعمدة والمداخل التي كانت تضاهي بدقة صنعها وجمالها منحوتات امهر النحاتين، فان هذا النحت يشبه صنع اليونان او الرومانيين القدماء، وهو مقتبس منها، وكانت بطرا عاصمة الأنباط قبل انضمامها الى الامبراطورية الرومانية. وكان يعجبني من اهل وادي موسى وداعتهم، ولا ازال اذكر الايام اللطيفة التي قضيناها في اواخر صيف سنة ١٩١٧ مع خليل الحسنات، ومحمد بن معمر، وضيف الله، وفلاح، وغيرهم من رؤساء اللياثنة. وكانوا يتسابقون الى عرض انفسهم لخدمتنا دائماً.

مواقع معارك الجيش العربي الشمالي



الفصل الثاني عشر

النظام بعد الفوضى

كان معسكرنا في المريغة يقابل المواقع العثمانية في أبي الأسل ودلاغة، وقد حدث لهذا المعسكر حادث مؤسف جداً في أواخر صيف ١٩١٧، ورواية الخبر أن ألحق بنا رفّان من الطيارات البريطانية لاستخدامهما في الكشف ورمي القنابر على مواقع العدو. ففي جولة من جولات هذه الطيارات ألقت قنابلها على معسكرنا في المريغة فقتلت تسعة جنود وعشرين بغلاً من بغال المدفعية، فلما حققنا في القضية كان عذر آمر الرف أن المعسكر كان منتظماً انتظاماً متقناً ولم يتصور أنه معسكر من الجيش العربي. فذهب أولئك الجنود والبغال ضحية اتقان التنظيم.

وكانت المسافات البعيدة بين المواقع التي كان جيشنا مرابطاً فيها تجعل المواصلة والتعاون بين تلك المواقع من الأمور الصعبة أو المتعذرة. فكان كل معسكر مضطراً إلى أن يجابه بذاته كل طاريء يطرأ عليه من جهة العدو. فكانت الوصايا الصادرة إلى قوات وادي موسى تقضي بالانسحاب إلى ما وراء خرائب بطرا، والصادرة إلى قوة مريغة تقضي بانسحابها نحو وادي عربة لأنّ هاتين النقطتين كانتا بعيدتين عن مراكزنا، ولم يكن في وسعنا إمدادهما بالسرعة المطلوبة.

وكانت سفراتي من العقبة لزيارة المواقع الأمامية مملة للغاية، تستغرق الكثير من أوقاتي، ولكنها كانت مفيدة لي من حيث دراسة حالة الجنود وإكمال نواقصهم بلا تأخير. وكانت القيادة تواصل إرسال الوحدات إلى الأمام بعد تجهيزها وتدريبها تدريباً بسيطاً في العقبة.

وكنا كثيراً ما نتعب مع أهالي الحجاز واليمن، سواء أكان ذلك في تنفيذ الأنظمة

الضرورية أو في الباسهم البزّة العسكرية. وكانوا يسمون السراويل «شنقيطا»، وينفرون من لبسها النفور كله. واتفق يوماً أنني شاهدت أحدهم يحمل سراويل على كتفه وهو يخر على أقدام الأمير فيصل قائلاً: «سيدي - ألبس جهنم ولا ألبس هذا» مشيراً إلى السراويل التي معه. فضحك الأمير وطلب مني أن لا أصرّ كثيراً على الجنود لإلباسهم البزّات العسكرية. فاضطررت إلى صنع ثياب من القماش الترابي يشبه قسمها الأعلى السترة العسكرية من حيث الزيق والجيوب والأزرار والأكمام، وجعلت القسم الأسفل كالتنورة الاسكتلندية ولكنها أطول منها بقليل. فراج هذا اللباس رواجاً سريعاً حتى أن القبائل نفسها طفقت تهرع إليّ متهافتة على لبسها.

وكانت النظافة والعناية بالشؤون الصحية على غير ما يرام، ولا سيما بعد ورود الجنود اليمانية وتكاثف المعسكر. وتفشت الهيضة الوبائية (الكوليرا) بين هؤلاء فأخذت تفتك بهم فتكاً ذريعاً. وكان الدكتور أحمد حمدي والدكتور حسن شرف وباقي الأطباء يأتوني بمقترحات صحية لدفع الغائلة، كضرب نطاق، وغيره من الاحتياطات الفنية، مما يصعب تطبيقه على أولئك الناس. وكان الدكتور أحمد حمدي يحتج لدى الأمير أشد الاحتجاج لعدم مراعاة أولئك المتطوعين الأوامر الصحية. فطلب إليّ وضع حرس قوي حول المعسكر. فرأيت أن الحالة هذه لا تجدي نفعاً، فأصدرت الأوامر فوراً إلى أولئك الجنود بأن يتركوا العقبة مسافرين إلى الأمام وأن يعسكروا في محلات متفرقة بين النقاط الأمامية. ورغم تذمر الهيئة الطبية ورفع استقالتها زال الخطر وقطع دابر الهيضة الوبائية. واعتني بتنظيف قصبة العقبة بعد هذه الحادثة، وصدرت الأوامر المشددة بعدم جواز الإقامة في جوار القصبة بصورة متكاثفة، ليس بسبب الهيضة الوبائية وحدها، بل إتقاءً لاضرار قنابر طيارات العدو التي كانت تزور العقبة، وترمي قنابرها علينا من حين إلى آخر بقصد تدمير مقر الأمير والبارجة الحربية البريطانية «همبر» التي كانت راسية في خليج العقبة ملحقة بنا.

ومن غرائب الاتفاق أن هذه البارجة وقائدها الكابتن (Snogg) كانا في مرسي مطروح لما أسرني الانكليز في أوائل سنة ١٩١٦، وبقيت فيها بضعة أيام للتداوي قيد خفارة بحارتها، واتفق الآن أن نزورها وهي راسية في خليج العقبة لمساعدتنا فتقام فيها المآدب على شرفنا.

وان أنس لا أنسى المعاملة الحسنة التي عاملني بها الكابتن سناغ، سواء عندما كنت قيد أسره، أو في ضيافته في بارجته، أو أخيراً في مقابلاتي معه في جاثام ولندن، بعد أن أصبح أمير بحر (اميرالا) وأحد أركان وزارة البحرية (الأميرالية البريطانية) في لندن.

وبعد تفرق الجيش على الصورة التي ذكرناها، ومضيّ بضعة أيام لم يبق أثر للهيضة ولا مجال لتذمر الدكتور أحمد حمدي بك، وكان تأثير هذا التوزيع وتقوية النقاط الأمامية شديداً في العدو، ومريحاً للقبائل القاطنة في تلك الجهات.

احتلال أبي الأسل

كان بقاؤنا في العقبة دون أن نبدي حراكاً لا يعود علينا بفائدة، ولذلك تقرر إرسال قوة صغيرة مع مدفعيتها، بقيادة نوري السعيد، لترافق الشريف ناصر في ضرب المحطات إلى شمال معان، وتخريب السكة الحديد، لإرغام العدو على الانسحاب شمالاً. فتوجهت هذه القوة في شتاء سنة ١٩١٧ فجاوزت السكة من جنوبي معان، وهاجمت محطة «جرف الدراويش» الواقعة في لواء الكرك، فاحتلت المحطة ودمرتها وأسرت حاميتها العثمانية التي كانت بقيادة ضابط برتبة مقدم. وكانت مؤلفة من مائتين وخمسين جندياً تقريباً ومدفع واحد. فأرسل الأسرى إلى العقبة، ومنها إلى مصر، حسب الإتفاق الذي كان بين الملك حسين والحكومة البريطانية على تسليم الأسرى للمحافظة عليهم في مصر، نظراً إلى قلة الوسائل المتيسرة لنا في الحجاز، ولعدم تمكننا من توفير أسباب الراحة لهم عندنا، وخوفاً على حياتهم من هجمات البدو وباقي أبناء العرب الذين كانوا حاقدين على الإتحاديين من جراء أعمالهم، وفتكهم بأقارب بعضهم أو نفيهم إلى الأناضول.

وعلى أثر اشتداد البرد، وتضييق دورياتنا على العدو، اضطرّ إلى مغادرة أبي الأسل والمريغة، منسحباً إلى الوهيدة ومعان. وكان احتلالنا لموقعي المريغة وأبي الأسل في الشتاء محفوفاً بخطر هلاك جنودنا هناك من شدة البرد وتراكم الثلوج. وعلى الرغم من ذلك فقد احتللنا ذينك الموقعين استعداداً للهجوم على معان. فانتقل الأمير فيصل في هذه الأثناء من العقبة إلى الكويرة، وقرر مهاجمة قلعة المدورة الواقعة على السكة

الحديدية إلى جنوبي معان، وكان مع سمّوه بنو عطية، وقوة نظامية صغيرة، ولكن ويا للأسف عند وصول مقر الأمير إلى جوار المدورة انفرط عقد بني عطية من جراء الضغائن التي كانت بين رؤسائهم لأسباب أجهلها حتى الآن، فرجع الأمير فيصل من المدورة ولكنه أمر بأن تخرب المفرزات السكة الحديدية بقدر المستطاع من تلك الناحية، وعبثاً حاولت الوقوف على سبب التفرقة التي حصلت في المدورة من سموه، لأن سموه كان يحجم عن الإباحة بشيء من ذلك السر، ويطلب مني عدم الإلحاح في السؤال عن المسألة. والظاهر أن سموه كان يكظم غيظة إزاء رؤساء العرب، وما كان يريد أن يفضح أمرهم. وهذه الصفة يندر أن نرى مثلها في غيره من الرجال العظماء.

الهجوم على الجردونة

بعد واقعة المدورة تقدم الجيش فأحتل المواقع الملائمة بجوار معان وهي الوهيدة والبسطة، وأرسل الأمير فيصل أخاه الأمير زيد مع مفرزة بقيادة آمر المدفعية راسم سردست في جهة الشوبك والطفيلة. واشترك مع هذه القوة قبائل المناعيين والحويطات وكثيرون من متطوعي قرى الطفيلة. فلقيت هذه القوة قوة عثمانية بقيادة قائد الفرقة السابعة والعشرين الزعيم (الميرآلاي) حامد فخري بك في وادي الحسا، بين الطفيلة والكرك. فقامت قوتنا بمباغتة تلك القوة العثمانية وهجمت عليها من جميع الجهات وهي في الوادي، وبعد أن دامت المعركة طوال النهار اضطر العدو إلى التشتت والانسحاب من جهة الكرك تاركاً وراءه مدافعه ورشاشاته وكثيراً من الجرحى والأسرى، وقد قتل قائد تلك القوة حامد فخري بك في تلك المعركة.

وفي مساء ذلك اليوم وصلت إلى الطفيلة قادماً من الهيشة التي كان أحد أفواجنا معسكراً فيها. والهيشة غابة واقعة بالقرب من السكة الحديد وكان الجيش العثماني يحتطب منها لتحريك القطار نظراً إلى نفاد الفحم الحجري في تلك الجهات.

والتقيت بالأمير زيد في دار ذياب العوران شيخ الطفيلة، فلم تعجبني أطوار ذياب العوران، ونظراً إلى بعد مراكزنا واشتغال القوة التي كانت مع الأمير في تطهير المناطق المجاورة من العدو، لم أر من المستحسن وجود الأمير زيد في تلك القرية المهددة بهجوم العدو من حين إلى آخر، لأن ذياب العوران كان متلاعباً، ولم يكن من الرجال

الذين يشعرون بالواجب القومي الشعور المطلوب. فتركنا القرية بعد منتصف الليل متجهين جهة الهيئة، فجمعنا قواتنا في نقطة واقعة بين محطة العنيزة والهيشة على مسافة خمسة أميال من العنيزة. وطفق رؤساء الكرك يتوافدون على الأمير زيد وهو يرسلهم إلى الأمير فيصل لمقابلته وعرض الطاعة عليه.

كانت مدافعنا في الجيش من أنواع وطرازات مختلفة، بحيث يصعب على آمر مدفعية مهما كان شأنه الاستفادة منها الاستفادة اللازمة عند الحاجة نظراً إلى اختلاف عتادها وعيارها ومداها. وكان لدينا مدفعان بعيار ١٨ رطلاً انكليزياً، ومدفعان تركيان من عيار ٧ر٨ سنتمتراً، وآخران مصريان جبليان، ومدفعان صغيران جبليان قديمان بقيادة الكابتن بيزاني الفرنسي، وكنا نسمي هذين المدفعين بمدافع نابليون نظراً إلى قدم عهدهما، ومدفعان قوسيان جبليان غنمناها في الآونة الأخيرة في الطفيلة، وكانا من طراز حديث يسمى بـ «قدرتلي». وكانت هذه المدافع جميعها تقوم بأعمال مدافع الصحراء والجبلية والقوسية. وفضلاً عن ذلك فقد وردنا في المدة الأخيرة مدفعان جبليان صغيران من الفرنسيين بعيار ٦ سنتمترات، وكان رميهما سريعاً جداً، ولم نفذ منهما سوى في هجومنا على محطة معان، ولكن ذلك كان لمدة قصيرة جداً، إذ لم تطلق بها مائة إطلاقة حتى صرح الضابط بأن عتاده نفذ، فلا يستطيع البقاء في خط القتال، الأمر الذي شوش علينا خطتنا الحربية أكثر من الإستفادة من وجود ذينك المدفعين. وكان الكابتان بيزاني يصرح دائماً أن آخر نقطة يستطيع مرافقتنا إليها هي حدود سورية، وإن الفرنسيين لا يستطيعون مساعدة العرب أكثر من هذا، ولا شك في أن تصريح بيزاني كان بمثابة انذار عن نيات الفرنسيين السيئة، ولكننا لم نكترث لها رغبة في الاستفادة من كل فرصة سانحة لخدمة قضيتنا.

وكانت تقع مناوشات طفيفة من حين إلى آخر جوار الطفيلة بيننا وبين العدو. وكنا نشاهد بعض الوحدات الألمانية في هذه المنطقة مع الجيش العثماني. والظاهر أن هذه البادرة كانت لتشديد عزائم الجيش العثماني في هذه المنطقة، مع أنها لم تؤثر تأثيراً في سير الأحوال الحربية.

وكانت خطوط جيشنا ممتدة من الكويرة إلى قرب الطفيلة على موازاة مواقع

الجيش العثماني على مسافة مائة كيلومتر. وكانت المواصلات والتموين والإعاشة صعبة جداً ونحن في هذا الموقف.

وفي شهر آذار سنة ١٩١٨ اجتمعنا في أبي الأسل بالأمير فيصل وضابط الإرتباط البريطاني الكولونيل جويس، والكولونيل دوني، وتذاكرنا في وضع خطة جديدة للاستيلاء على معان فقرّ القرار على مهاجمة المحطات الواقعة إلى جنوبي معان وشماليها وتخريب السكة الحديد على مسافة بعيدة لعزل معان من الجهتين، ثم مهاجمتها رأساً، لأن الوسائط التي كانت متيسرة لنا لم تمكنا من الهجوم توا على تلك المدينة، ونحن مهددون من الجانبين. فتعين (القائمقام) عبد اللطيف، آمر اللواء الثاني، قائداً للحملة التي تتوجه من أبي الأسل إلى محطة فصوعة الواقعة إلى جنوبي معان، ورافق هذه القوة أيضاً الكابتان بيزاني مع مدفعيه التاريخيين، ورافقتهم أنا أيضاً بنفسي، ولكن بعد أن أبتعدنا عن أبي الأسل مسافة أربعة أو خمسة أميال فوجئنا بأمطار غزيرة جعلت السير مستحيلاً، فظلت الجمال والأحمال غاطسة في الأوحال، كما أن القوة كابدت مشقات جمة، وخسارة في الأنفس من جراء المبيت في تلك الليلة تحت المطر والبرد القارس. واضطررنا في اليوم التالي إلى الرجوع إلى أبي الأسل دون أن ننجز شيئاً.

وعلى أثر هذه الحادثة ظلت الفرقة الأولى في جنوبي معان مرابطة في أبي الأسل والوهيدة. فذهبت مع الأمير زيد إلى الفرقة الثانية المعسكرة في منطقة وادي موسى لتحريك ما يتيسر لنا من القوة نظراً لقلة وسائطنا النقلية، وذلك لمهاجمة محطة «الجردونة» الواقعة إلى شمالي معان. وكان آمر تلك الفرقة (القائمقام) رشيد المدفعي. فلما قابلته رأيته على غير استعداد للقيام بعمل ما، فطلبت إليه بإصرار أن لا يتوانى عن العمل، مبدياً أن من الضروري مهاجمة الجردونة وإسقاطها لتضييق الخناق على معان. فتقدمنا في جهة الجردونة ليلاً، وكانت القوة مؤلفة من فوج مشاة ومدفع صحراء واحد بعيار ١٨ رطلاً بقيادة راسم سردست، وقوة راكبة من الحويطات بقيادة الشريف ناصر بمائتي خيال، وقبائل وادي موسى والنعيمات المتطوعة التي يتراوح عددها بين مائتي وثلاثمائة مقاتل. وعند الفجر كنا على مسافة ألف وخمسمائة متر من المحطة. فتقدمت مشاتنا وتحركت الخيالة إلى شرقي المحطة فيها وراء السكة الحديد.

وبعد أن أطلق المدفع على المحطة بعدة طلقات، تقدم المشاة تقدماً يذكر، حتى أصبحوا على مسافة أربعمائة متر من المحطة تحت نيران حامية المحطة العثمانية التي أخذت تؤثر في جنودنا وتوقع فيها خسائر كثيرة. وكان من الضروري أن يسرع الخيالة في الهجوم فذهبت بنفسي مع مرافقي إلى الخيالة فرأيتهم واقفين في منخفض من الأرض فأستنهضت هممهم بالصراخ، مستحثاً إياهم بأن جنودنا سيقضى عليهم ما لم يهجموا لانقاذها ونجدتها. فأخذتهم الحميّة فهجمنا هجمة واحدة على المحطة حتى أصبحنا على رؤوس الجنود المدافعين من خلف. وكان ضابط القوة العثمانية جريحاً يلفظ النفس الأخير فأوما إليّ بالتسليم. فرمى الجنود على أثر ذلك أسلحتهم وتركوا الخندق وكان عددهم يقارب المائتين. فاستولينا على المحطة، وغنم رجال القبائل ما وقع تحت أيديهم من أسلحة وعتاد ومؤون وتجهيزات عسكرية.

ولا يسعني هنا إلاّ أن أذكر البسالة الفائقة والتفاني العظيم اللذين أبداهما نائب الضابط محمد سعيد الطرابلسي الذي خرّ صريعاً في تلك الواقعة أمام الخنادق على مسافة قريبة جداً منها. فكان رحمه الله يتقدم الصفوف دائماً جاعلاً نفسه ضحية لفوز قوتنا.

وفي هذه الأثناء تقدم نحونا قطار مدرّع من جهة العنيزة لكنه لم يتمكن من الإقتراب أو الإتيان بعمل ما لأن نار مدفعنا اضطرته إلى الرجوع من حيث أتى. وفي المساء أتى الكولونيل لورانس، والكابتن هيوبرت يونغ[1] ودبرا لغماً من ديناميت لهدم

(١) هيوبرت يونغ (١٨٨٥ - ١٩٥٠) من الضباط والإداريين البريطانيين الذين عملوا في البلاد العربية خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها. درس في ايتن، وانتمى إلى الجيش الهندي وعمل في ميدان العراق خلال فترة ١٩١٥ - ١٩١٧ وتعلم اللغة العربية، ثم اشترك في العمليات العسكرية التي خاضتها قوات الجيش العربي الشمالي ثم انتقل إلى الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية (١٩١٩) ثم وزارة المستعمرات وعين مستشاراً لدائرة المندوب السامي البريطاني في العراق سنة ١٩٢٩ واشترك مع السر برسي كوكس وجعفر العسكري في مؤتمر القاهرة الذي عقد برئاسة تشرشل سنة ١٩٢١ وبقي في العراق حتى سنة ١٩٣٢ حيث منح لقب سر ونقل حاكماً لبعض المستعمرات والدومنيونات البريطانية في افريقية الجنوبية حتى سنة ١٩٤٣. وللسر هيوبرت يونغ كتاب شهير بعنوان (العربي المستقل) سجل فيه ذكرياته عن الثورة العربية وذكر فيه كثيراً من الأحداث التي يرويها جعفر العسكري في مذكراته، وقد أشار إليه غير مرة. أنظر:

(Major Sir Hubert Young, **The Independent Arab,** John Murray, London 1933)

قنطرة السكة الحديد الواقعة إلى جنوبي الجردونة. ولكن قبل ذلك هاجمتنا قوة مشاة مع رشاشات ومدافع من جهة معان، فطردناها بعد قتال دام إلى ما بعد العصر. ولكننا لم نتمكن من مطاردة تلك القوة أكثر من مسافة ميلين لأنها تحصنت بالطابية (المعقل) الحمراء إلى شمالي معان. وفي المساء رجعنا إلى جهة المريغة. وفي أثناء الطريق وردني كتاب من الأمير فيصل يطلب فيه أن أذهب إليه فوراً مع الأمير زيد. ولكن حدثت حادثة مؤسفة وهي أنه بعد الإستيلاء على المحطة وقع شجاراً ما بين راسم سردست ورشيد المدفعي. فأحببت أن أفصل بينهما غير أنه ظهر أن رشيداً كان في حالة عصبية ثائرة فلم يتمالك نفسه فطلب إليّ أن أعين غيره لقيادة الفرقة. ورغم الحاحي عليه لم يقلع عن عناده. فأضطررت إلى تعيين (القائمقام) مجيد حسون لقيادة تلك الفرقة.

وفي اليوم الذي هاجمت فيه الفرقة الثانية الجردونة، هاجمت الفرقة الأولى بقيادة مولود مخلص موقع «سمنة» المجاور لقرية معان من الجنود، فاحتل الجيش ذلك الموقع، ولكن هذا الاحتلال أدى إلى خسارة بعض الضباط النشيطين وجرح مولود نفسه جرحاً بليغاً في فخذه، مما حرمنا خدماته بعد ذلك ونحن في أشد الحاجة إلى أمثاله. وقد بلغني أنه بعد إنكسارالقوة العثمانية في سمنة، أغار مولود مع قوة راكبة لجمع فلول العدو الهاربين إلى جهة معان، وفي تلك الأثناء أرتدّ عليهم بعض أولئك الجنود الهاربين ورموهم بالرصاص، لأن عدد الهاربين كان عشرة أضعاف الخيالة التي كانت تطاردهم، فجرح مولود، ورافقه ثابت عبد النور[٢] وباقي الضباط والجنود وهم يحملونه إلى الوراء. وبعد أن قضي أيام في الوهيدة، أرسل إلى مصر لمعالجة فخذه المكسور مع الضابط يوسف عز الدين، مرافق رئيس أركان الجيش نوري باشا السعيد، وكان يوسف عز الدين أيضاً قد انكسرت فخذه في وقعة معان. فنقل الأثنان على جمل بمحفة (شقدون) خاصة، وكانا يئنان مع حركات الجمل المتعرجة.

---

(٢) ثابت عبد النور (١٨٩٠ ـ ١٩٥٧) ينتمي إلى أسرة مسيحية معروفة في الموصل، درس في بيروت ثم في كلية الحقوق في استانبول ثم أصبح ضابطاً في الجيش التركي خلال الحرب العالمية الأولى، وكان له دور مهم في انقاذ عزيز علي المصري من الاعدام. دخل في الإسلام، وهرب للالتحاق بالثورة العربية في الحجاز، ولما عاد إلى بغداد في سنة ١٩٢١ أصبح نائباً عن الموصل في المجلس النيابي، ثم شغل عدة وظائف مهمة في وزارة الاقتصاد ووزارة الخارجية، واختلف مع نوري السعيد فهاجر إلى مصر وقضى أعوامه الأخيرة فيها.

الفصل الثالث عشر

الهجوم على معان

بعد الرجوع من الجردونة قررنا الهجوم على معان، فنقلت الفرقة الثانية إلى الطاحونة المحاذية لسمنة بقيادة القائمقام مجيد حسون، واجتمعت الفرقة الأولى في جوار سمنة، وتسلم قيادتها أمير اللواء أمين الأصيل. وفي تلك الليلة ذاتها تحركت الفرقة الثانية من الطاحونة شرقاً فاحتلت الآكام المقابلة لمحطة معان. وفي آذار سنة ١٩١٨ كانت الجيوش العربية الشمالية مطوقة معان من الجنوب والشرق على الوجه التالي:

قبائل منطقة وادي موسى...	في الطاحونة
الفرقة الأولى...	في سمنة
الفرقة الثانية...	إلى جنوبي محطة معان وعلى مسافة ثلاثة أميال منها.
عشار الحويطات مع متطوعة...	إلى يمين الفرقة الثانية بقيادة
قبائل الحجاز...	الشريف فهد من رؤساء عتيبة.

وكان أمام قواتنا هذه القوة العثمانية المرابطة في معان وكانت تقدر بأربعة آلاف جندي، ومعها أهل معان. وكان من السهل احتلال معان، ولكن نظراً للأسباب التي أدلى بها الشيخ عودة أبو تايه صرف سمو الأمير فيصل النظر عن ذلك رغم إصراري عليه. والظاهر أن أهل معان كانوا منقسمين إلى حزبين، ينتمي أحدهما إلى عودة أبي تايه، ويؤيد الآخر العثمانيين. فخوفاً على المنتمين إلى «عودة» حصرنا جهدنا في

إسقاط المحطة أولاً، مقتربين إليها من أراض مكشوفة، مع أن التقرب من جهة مدينة معان كان مستوراً وأسهل علينا.

دام الهجوم في هذا اليوم بكل شدته، فاحتللنا جميع الهضاب والمواقع الحاكمة على المحطة، فتقربنا على مسافة خمسمائة متر من مواضع العدو. وفي بعض المحلات اقتربنا إلى مسافة ٢٠٠ متر.

وفي مساء اليوم التالي هجمت القوة الراكبة بقيادة المقدم إسماعيل نامق مع خيالة الحويطات، على المحطة، فاحتلوا سقيفة القاطرات، ولكنهم اضطروا إلى الرجوع بعد تخريبها من جراء تضييق نيران العدو، ولعدم تمكن مشاتنا من خرق خطوط العدو الدفاعية المحيطة بالمحطة من الجنوب والغرب. واستمر الحصار أربعة أيام بلياليها تكبد فيها الجيش خسائر فادحة تقدر بخمسة وعشرين في المائة من عدده. وفي الحقيقة أن عدم كفاية قوة المدفعية ورجوع المدافع الفرنسية التي كانت أرسلت مع الفرقة الثانية، بعد إشتراكها في القتال مدة ساعة من الزمن بحجة نفاد عتادها، جعل الفرقة الثانية بلا مدفعية على الإطلاق. أما المدفعان الصحراويان اللذان كانا مع الفرقة الأولى، لم يكادا يكفيا لاسناد الفرقة الأولى ومقابلة نيران العدو.

وفي مساء اليوم الرابع أضطرّ الجيش إلى الرجوع، لأن القبائل كانت تركت مواقعها قبل يومين. فأمسينا مهددين من جميع الجوانب، لأن أكثر من نصف الضباط جرحوا أو قتلوا في هذه المعركة وكاد الضبط يختل. وكان اعتمادي في تلك الليلة على اللواء الثاني الذي كان مرابطاً في سمنة، بقيادة (القائمقام) عبد اللطيف فكنت أنوي احتلال مدينة (معان) بهذا اللواء. ولكن لسوء الحظ بدلاً من أن أجد ذلك اللواء في سمنة علمت بأنه تراجع إلى الوهيدة في تلك الليلة، بناء على أمر شفهي وصله مني، ولا علم لي أنا بذلك الأمر، وبعد التحقيق اتضح أن بعض ضباط الصف جبناً منهم تركوا المحلات الأمامية وتراجعوا، فسببوا رجوع اللواء الثاني بالصورة المذكورة. فاجتمعنا في الوهيدة من جديد، بعد أن أضعنا زهرة جنودنا وضباطنا في هذه الموقعة.

ولا يسعني هنا إلاّ أن أنوه بالشجاعة والبسالة الفائقتين اللتين بدتا من الضباط

والجنود، ولا سيما ما أبداه المقدم إبراهيم كمال[١] الذي جرح جرحاً بليغاً على صدره عند هجومه على الخط المسلط على المحطة، والقائمقام تحسين علي[٢] قائد اللواء الأول، والمقدم إسماعيل نامق[٣] قائد الخيالة، والملازم بهاء الدين نوري[٤] ضابط الرشاشات.

وبعد وقعة معان التي دامت أربعة أيام بلياليها، لم نتمكن من الإستيلاء على محطة معان، نظراً إلى المقاومة العنيفة التي أبداها الترك ونظراً إلى تعب قوانا وفداحة خسارتنا في النفوس ونقص في العتاد المقتضي لإدامة القتال، ولا سيما عتاد المدفعية، الأمر الذي حملنا على محاصرة معان من جهات الجنوب والغرب والشمال استعداداً لهجوم آخر أو إرغامها على التسليم. أما باقي الجيش فقد تحشد في منطقة الفقيه. وكانت بعض قطعات الجيش تهاجم محطة الجردونة من حين إلى آخر وقد أسقطنا تلك المحطة أربع مرات خلال أربعة أشهر، وكنا في كل مرة نأسر حاميتها، وخسرنا فيها بعض خيرة ضباطنا مثل القائد السيد طاهر، والقائد رشيد علي، والملازم مصباح والملازم محمد سعيد، والملازم عبد الجبار، مع عدد غير قليل من الجنود.

صحائف بيض

وفي الآونة الأخيرة طرأ إنحراف على صحة رئيس أركان الجيش نوري السعيد فأرسل إلى مصر للإستراحة والمعالجة. فبقيت أنا وضابط ركن الحركات، القائد شاكر

---

(١) إبراهيم كمال (١٨٦٥ ـ ١٩٤٧) ولد في بغداد لاسرة تنتمي إلى الموصل وأصبح ضابط احتياط في الجيش التركي والتحق بالثورة العربية في الحجاز والشام، وعمل مع الملك فيصل في سورية. ثم عاد إلى العراق وشغل مناصب عديدة وأصبح نائباً في المجلس النيابي ووزيراً في عدة وزارات ورئيساً للديوان الملكي كان من أنصار نوري السعيد وجعفر العسكري. ثم انضم إلى ياسين الهاشمي، ورشح مرة لرئاسة الوزارة ولكنه لم ينجح في تأليفها.

(٢) تحسين علي: عين بعد عودته إلى العراق في وظائف إدارية كبيرة. وكان متصرفاً لعدة ألوية ثم تولى عدة مناصب وزارية.

(٣) إسماعيل نامق: أصبح رئيساً لأركان الجيش في العراق ثم وزيراً للدفاع.

(٤) بهاء الدين نوري: كان ضابطاً كردياً لامعاً، أصبح وزيرا في عدة وزارات في العراق ثم سفيراً للعراق في طهران وعمان وتوفي فيها.

عبد الوهاب. نعاني المشقات الجمّة في إدارة شؤون الجيش. ولا بد من إطراء الأخلاق الفاضلة والطاعة العسكرية التي تحلّى بها شاكر عبد الوهاب المذكور فأنه في الحقيقة كان عوناً لي في جميع الحركات التي جرت منذ نزولنا في العقبة حتى وصولنا إلى عمان.

وكان مقري أبداً في حالة التنقل من مكان إلى آخر للوقوف على حالة الجيش، وتفقد شؤونه، ومقابلة قادة المناطق لوضع الخطط العسكرية كل حسب مقتضى حاجته. فكان يصحبني في هذه الجولات مرافقي الملازم نديم طارق الرفاعي. وضابط ركني القائد شاكر عبد الوهاب. مع مفرزة صغيرة من الخيالة الكرد الذين تطوعوا لخدمة الشريف عند نشوب الحرب، وأخصّ بالذكر من رجال تلك الخيالة الحاج أمين الذي ظل في خدمتي إلى يومنا هذا. ومع أنه قد مرت علينا عشرون سنة ألاّ أننا لم نزل نشعر أحدنا نحو الآخر بكل ما تقتضيه المودة والإخلاص. وهو يلازمني إلى محل أشتغالي ويسقيني من حين لآخر من قهوته اللذيذة التي كان يعدها بيده. ويسقي كذلك القهوة في أيام الجمعة في ديواني، وكان جميع أصدقائي يحسدونني على تمتعي بمحبة الحاج أمين الخالصة وقهوته اللذيذة[٥].

الإجازة في مصر وزيارة الجبهات البريطانيّة

وبعد رجوع نوري باشا من مصر في أوائل شهر آب سنة ١٩١٨ طلبت من الأمير فيصل إجازة للذهاب إلى مصر بقصد التداوي والإستراحة أيضاً، نظراً إلى الأتعاب والمشقات التي كابدتها منذ دخولي في خدمة سموه.

---

(٥) ومن المصادفات الطريفة ما يرويه المستر ادموندس ـ الذي كان مستشاراً لوزارة الداخلية في العراق سنوات طويلة، وخبيراً في الشؤون الكردية ـ في كتابة (كرد وترك وعرب) من أنه بينما كان في جولة استطلاعية في شمال العراق في سنة ١٩٤١ وجد في قرية هواركون الجبلية النائية في أطراف مدينة حلبجة، قرب الحدود الإيرانية، مقهى صغيراً جلس فيه مع مرافقيه، فلما جاءه صاحب المقهى للترحيب به، علم منه انه (حَمَد أمين) الحاج أمين ـ الذي كان قهواتياً لجعفر العسكري، ويبدو إنه غادر بغداد بعد مقتل العسكري وعاد إلى قريته.

(C. J. Edmonds, **Kurds, Turks, and Arabs**, Oxford University Press, London 1957, p. 199).

وبعد مضي أسبوع على وصولي إلى مصر دعاني الجنرال اللنبي قائد الحملة البريطانية ـ المصرية إلى بئر سالم في فلسطين لزيارة الجبهة الحربية. وقد رافقني الجنرال كلايتن في هذه الزيارة، فتعرفت إلى القسم الأعظم من قواد الجيش البريطاني مبتدئاً بالجنرال بويل، رئيس أركان حرب اللنبي، والجنرال شوفيل، قائد قوة الخيالة، وضابط ركنه الكولونيل غودوين، وكان مقره بجوار أريحا. وكان الجيش البريطاني واضعاً معسكرات خيالة ومحلات كثيرة تجعل العدو يعتقد أن التحشد كان في هذه النقطة. وقد رأيت الجنرال شوفيل رجلاً هادئاً لطيفاً. وبعد أن تناولنا الغداء معه على مائدته، رجعنا إلى قطاع الجبهة المجاورة للبحر المتوسط، وهناك أيضاً قابلت الجنرال بلفن، وبعد مباحثته مدة من الزمن زرنا بعض نقاط الترصد حيث شاهدنا خطوط الجيش العثماني. فرأيت الهدوء مستحوذاً على الجبهة كلها، ولم يدر في خلد أي أنسان أن تلك الجبهة العثمانية المنيعة والعميقة الممتدة من البحر إلى عمان ستستأصل بعد أسبوعين أو ثلاثة بالسرعة التي تم بها تحطيمها، وأسر ما يقارب تسعين ألف جندي عنها.

وبعد ذلك قضيت يومين في مقر الجنرال اللنبي، ومن غرائب الإتفاق أن كتيبة الخيالة التي هاجمتني في السابق، وقفت تحييني لما قلدني الجنرال اللنبي وسام القديسين ميخائيل وجورج (CMG)[٦]. وعلمت بأنه في أواسط أيلول سيبدأ الهجوم العام على الجبهة العثمانية فوجب عليّ أن أرجع فوراً إلى العقبة للالتحاق بالأمير فيصل.

الرجوع إلى الحجاز

لما رجعت من مصر بلغني، وأنا في طريقي إلى العقبة، أنه حدثت حادثة جعلت الملك حسين يعلن بأني لست معيناً قائداً على جيوشه، وما أنا سوى إنسان متطوع ولا صفة قيادة لي على الإطلاق في الجيش الحجازي[٧]. ولا أزال حتى الآن

---

(٦) Companion (of the Order) of St. Michael and St. George.

(٧) أصدر الملك حسين البيان التالي الذي نشر في جريدة (القبلة) الناطقة بلسانه:

«بناء على ما هو جار على بعض الالسنة وما هو مشاهد في بعض الرسائل الخصوصية من اطلاق لقب (القائد العام) على الشيخ جعفر أحد رؤساء الأجناد في المعسكر الشمالي الهاشمي فعليه ولما في هذا من مخالفة الحقيقة =

جاهلاً الأسباب التي حملت الملك حسين على هذا العمل. وأغلب الظن أن بعض الأفاقين تمكنوا من الدس والوشاية عليّ عند جلالته، لعدم تمكنهم من الحصول على ما كانوا يبغونه من الأمير فيصل. ولما وصل هذا الخبر إلى معسكر الأمير فيصل أثر ذلك تأثيراً سيئاً في نفوس الضباط والجنود. وأخيراً أدى ذلك إلى رفع الأمير فيصل استقالته إلى جلالة والده. وحذا حذوه الأمير زيد، وقادة الجيش، ولما كانت خطط الجنرال اللنبي مستندة في الجناح الأيمن إلى حركات الجيش العربي، وقطع هذا الجيش السكة الحديد الوحيدة التي تموّن الجيش العثماني في جبهة فلسطين، لذلك توسط الأنكليز لدى الملك حسين لتلافي الأمر. وفعلاً عند وصولي إلى العقبة أبرقت إلى الأمير فيصل عن وصولي، وعرضت عليه خدمتي في جيش سموّه بأي صفة كانت، لأن الرتب والألقاب والمقامات لم تكن هدفاً لمن كان، ولم يزل، مصمماً على تضحية كل عزيز وغال لتحقيق الغاية المقدسة، وهي تخليص البلاد من الحكم الأجنبي، وكان جواب سموه رقيقاً ومشجعاً للغاية، وقد طلبني فوراً إلى الذهاب إلى أبي الأسل لمقابلة سموه، ولتسلم قيادة الجيش كالسابق.

= وبالنظر لأن الحكومة العربية الهاشمية لم تقلد مثل هذه الرتبة لأحد ولم تحدد القواعد العسكرية رتبة كما هو جار في سائر الحكومات، ولأن الشيخ جعفر المذكور هو متولي إدارة قسم من ذلك المعسكر ليس إلا، لزم بيان ما ذكر».

(**القبلة**، العدد ٢٠٧، ١٢ ذو القعدة ١٣٣٦ هـ (١٩ آب/اغسطس ١٩١٨).

الفصل الرابع عشر

إنهيار الجيش العثماني

كان من المقرر أن يقوم الجيش البريطاني المرابط في جبهة فلسطين بالهجوم في يوم ١٦ ايلول سنة ١٩١٨، وكان على الجيش العربي أن يتقدم قبل هذا التاريخ ببضعة أيام لقطع السكة الحديد والقيام ببعض الحركات العسكرية لاحباط الخطط الحربية العثمانية، وجذب ما يمكن جذبه من قوات العدو الينا. فتألفت مفرزة راكبة بقيادة العقيد علي جودة، وانضمت إليها بعض السيارات المسلحة مع مدفعين فرنسيين، وتوجهت إلى الأزرق في شرقي معان. ورغب الأمير فيصل في مرافقة هذه المفرزة وأخذ معه رئيس أركان الجيش أمير اللواء نوري السعيد، والزعيم (الكولونيل) لورنس، (الكولونيل) جويس و(الميجر) يونغ، ووصل أخيراً من سورية الدكتور أحمد قدري، وأخوه الملازم تحسين قدري، ورستم حيدر، ورفيق التميمي، وخليل السكاكيني، وغيرهم فالتحقوا بسموه متجهين شمالاً. فأمرني الأمير فيصل بالبقاء مع سمو الأمير زيد وباقي الجيش المرابط في أطراف معان إلى أن يأتينا الخبر منه، وقال لي: «إن هذه الحركة نحو الشمال لمغامرة، والمأمول أن ننجح فيها» وأوصاني بالعناية بالأمير زيد. فما كان لي سوى ان أصدع لأوامره منتظراً نتيجة الحركة.

وفي ١٧ ذي الحجة ١٣٣٦ (الموافق ٢٣ ايلول/سبتمبر) ١٩١٨ تلقيت كتاباً من قائد المفرزة الشمالية العقيد علي جودة هذا نصه:

«بعد أن تحركنا من أبي اللسن مشينا مع المفرزة التي كانت تحت قيادة الداعي بكل انتظام، ولم نفقد سوى جندي واحد، إلى أن وصلنا إلى الأزرق، وبعد أن اقمنا في المحل المذكور يوماً واحداً تحركنا نحو العدو. وبعد ثلاثة ايام اصطدمنا بالعدو،

وكانت الموفقية بجانبنا، فقتلنا من العدو عشرات، واخذنا منه الأسرى، وكان ذلك في موقع على السكة الحديد في شمال درعا. وبعد أن أسقطنا ذلك الموضع، تركنا قسماً من المفرزة وذهبت أنا والقسم الأعظم من الأخوان[١] الى الغرب ودخلنا بين القوات التركية تماماً. ولكن طياراتهم كانت تتعقبنا وتضربنا في اثناء السير وحين الاستراحة والقتال. ولكن لم يلحقنا منها إلاّ ضرر قليل. فوصلنا إلى المزيريب فخرّبنا المحطة، وغنمنا ما فيها، وأسرنا منهم أيضاً أسرى، وغنمنا خيلاً وبغالاً وأشياء أخرى عديدة لا يمكن أن أحصي جنسها وعددها في هذه العريضة، وبعد أن أقمنا ليلة في ذلك المحل، تحركنا إلى جنوبي درعا، وخربّنا محطة من الجنوب والسكة الحديد. ورجعنا إلى الشرق ولم نفقد أحداً من إخواننا سوى جرح بعضهم بقنابل الطيارات. والآن جاءتنا طيارات كثيرة للحلفاء، فلا تقترب طيارات العدو إلينا أبداً. أرجوكم يا سعادة القائد أن تبشّروا إخواننا بهذه الموفقية التي هي لا شك فرع من حسن نياتكم وانظاركم. ونحن اليوم على مسافة يومين من الشام، نسأل الله تعالى أن يوفقنا فندخلها بالنصر قريباً ونتشرف بخدمتكم وخدمة اخواننا جميعاً هناك. سلامي واحترامي لجميع الأخوان ودمتم بحفظ الله سيدي.

قائد المفرزة الشمالية
علي جودة

وبالطبع أن هذه الحركة سبقت هجوم الجيش البريطاني بيوم أو يومين الأمر الذي جعل القيادة العثمانية ترتبك ارتباكاً تاماً، ولا شك في أنها خففت عن الجيش البريطاني مقاومة الجيش العثماني. وبعد هذه الحادثة بمدة قصيرة رأينا فعالية عظيمة في الجيش العثماني المرابط في معان، إذ طفقت مدفعيته تطلق النيران على غير هدى في جميع الجهات. وبالطبع كانت هذه الحركة تنم على ستر انسحاب من جهة، واتلاف ما عندها من الأعتدة والذخائر. ولكن انسحاب العثمانيين هذا لم يُجْدِ نفعا، لأن الجيش البريطاني كان تقدم واحتل عمان، أما القوات العثمانية التي انسحبت شمالاً فأسرها الجيش البريطاني هناك.

---

(١) وكان مع علي جودة العقيد تحسين علي آمر لواء في تلك المفرزة.

ولما كنا بجوار معان رتبنا مفرزة بقيادة الرئيس عبدالله الدليمي، فارسلت نحو الشمال الغربي من معان لقطع السكة الحديد وازعاج العدو هناك، ولكن هذه المفرزة لم تتمكن من عمل شيء يذكر، وبقيت في موقع «أذرح» بجوار السكة الحديد الى ان انسحب العدو من معان فالتحقت المفرزة بنا.

وذهبت مفرزة أخرى بقيادة الشريف علي بن عريد الحارثي، والشريف مستور آل فعر، وتحركت نحو الشوبك، فاصطدمت بالعدو واضطرته إلى الانسحاب إلى بئر صيدح في ليلة ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٦، وكانت هذه القوة مؤلفة من القبائل المجاورة لمعان، ومن بعض المتطوعين من أهل الحجاز واليمن، وكان معهم الرئيس شريف الزعبي، ومفرزة تخريب لتخريب السكة الحديد. وأذكر بالثناء الهمة التي أبداها شريف الزعبي، سواء أكان ذلك بترتيباته التعبوية في وقعة «الخربة السمراء» أم في تخريب السكة الحديد.

وفي يوم ١٦ ذي الحجة (٢٢ أيلول ١٩١٨) أصدرت الأمر التالي الى قائد مفرزة أذرح السيد عبدالله الدليمي:

«(١) لا تبدل في موقفنا الحربي.
(٢) نظراً إلى الأخبار المستقاة من مصر، وبنتيجة استطلاع الطيارات توجد علامات تدل على إخلاء معان.
(٣) نظراً إلى الأخبار الرسمية الواردة من جبهة فلسطين ان الجيش البريطاني قد استولى على حيفا وطول كرم والناصرة والعفولة وجسر المجامع.
(٤) عليك ترك «أذرح» والذهاب بقوتك إلى الفقيه، وأن ترتب مفرزة مؤلفة من مدفع الصحراء وباقي أفراد الاستحكام والرشاشات ورهطاً واحداً من المشاة إلى خط الستار القديم لازعاج العدو ومنعه من ترميم الجسر المخرب في جنوبي الجردونة، ومنع حركة القطار.
(٥) ترجع هذه القوة بعد الظلام إلى الفقيه.
(٦) اصدر سمو الأمير زيد الأوامر أيضاً إلى الشريف علي بن عريد والشريف مستور بالحركة نحو بئر صيدح مع جميع جرودهم.
(٧) ليتحرك السيد شريف الزعبي مع القوة النظامية المؤلفة من مدفع واحد

ورشاشتين وجنود الاستحكام الى بئر صيدح وينضم الى الشريف علي ابن عريد، ويكون تابعاً لأوامره.

(٨) ترسل جمال مفرزتكم مع الأرزاق والرمانات اليدوية والعتاد مع الاستحكامات».

(انتهى)

وكانت الغاية المتوخاة من اصدار هذا الأمر قطع خط الرجعة على قوات العدو المرابطة في معان والجردونة. ولكن ويا للأسف لم تتمكن هذه المفرزة من الحركة بالسرعة المطلوبة لايقاف الجيش المتراجع.

وفي ١٧ ذي الحجة ١٣٣٦ (أيلول (سبتمبر) ١٩١٨) دخلت مفرزاتنا الأمامية المرابطة في سمنة بلدة معان بلا مقاومة بعد أن حاربنا العدو طيلة هذه المدة، ولا سيما أهل معان الشامية بزعامة حامد الشراري .مع أن أهل معان الحجازية ورئيسها خليل التلهوني كانوا عاطفين على القضية العربية، فأن انحصارهم بين أهل معان الشامية والجيش العثماني جعلهم يخلدون الى السكون، فلم يبدو حركةً ما، فكابدت معان الحجازية أضراراً جسيمة، لأن قصف مدافعنا كان عليها دائماً، نظراً إلى قربها من مواقع العدو.

واستولت جنودنا على محطة معان بعد مناوشات طفيفة مع مؤخرة الجيش العثماني المنسحب، فأتخذنا محطة السكة الحديد مقراً للجيش.

ومن معان أصدرت الأمر التالي إلى ضابط الاستحكام السيد شريف الزعبي، في وادي الحسا، على طريق الكرك، حيث تصادمت قوات علي بن عريد مع العثمانيين فدحرهم، بعد أن أنزل بهم خسائر طفيفة.

معان المحطة

مقرّ القيادة

إلى السيد شريف الزعبي في مفرزة عريد

(١) وصلنا كتابك مع الأسرى الترك. أشكر اجتهادك وسعيك.

(٢) وصلتكم بطرية المدافع الجبلية مع أربعة وعشرين جندياً سدوا حاجاتهم .

(٣) لما كانت الأثقال لا تزال حتى الآن في أبي الأسل والنقل مستمراً بالتدريج ، سنرسل إليكم الشدادات المطلوبة اليوم»

وبعد أن جمعنا المفرزات كافة في معان تلقينا برقية من الأمير فيصل يبشرنا بدخوله الشام مع القوات العربية . وبأن الجيش البريطاني، دمر جبهة فلسطين ودخل الشام أيضاً بعد دخول الجيش العربي بيوم واحد، ويأمرنا بأن نتقدم شمالاً نحو عمان مع باقي الجيش بعد أن نبقي قوات كافية في معان والكرك .

وكانت الفرقة الثانية مجتمعة في معان مع بعض القطعات من الفرقة الأولى لأن معظم الفرقة الأولى كان تحرك شمالاً بمعية سمو الأمير فيصل حسبما سبق بيانه .

وحصل في معسكر معان أن بعض المتطوعين من الحجاز واليمن اخذوا يتذمرون لأبتعادهم عن بلادهم ولفراقهم أهلهم منذ مدة طويلة ، فوافق سمو الأمير زيد على الأيذان لمن يرغب منهم في الرجوع إلى الجنوب. وكان البرد الشديد أيضاً من العوامل التي حملت هؤلاء على الشكوى. وفي الحقيقة أن معظمهم كان يتأثر من البرد تأثراً مريعاً، وكان الجندي الذي يصاب بذات الجنب لا يتحمل المرض أكثر من بضعة أيام فيموت. وكان هذا يفزعهم ويخيفهم.

ومن الغريب أنني كنت أحاول أن اعودّهم على لبس الملابس الصوفية الشتوية ولكن مساعيّ ذهبت سدى. وكانوا يفضّلون أن يظلوا لابسين ثيابهم الرقيقة معرضين أنفسهم لقسوة الطبيعة بلا مبالاة، وبغير مراعاة الأوامر والنصائح الصحية. وكثيراً ما كانوا يعصون أوامر قادتهم من جراء هذه المضايقات. وكنا نضطر إلى السكوت خوفاً من تشتتهم وافلاتهم من أيدينا لأنه والحق يقال أن المتطوعين من اليمن ومن بني شهر كانوا مثالاً للشجاعة والصبر.

وكان معظم الربايا النائية والنقاط الأمامية الخطرة يتطوع لها من هؤلاء الرجال الذين كانوا عالمين بأساليب الحروب الجبلية، ولا يخشون بأس عدو سواء أكثر عدده أم قلّ.

وبعد ٢٥ أيلول ١٩١٨ انتهت المناوشات الحربية في منطقتنا وكان شغلنا الشاغل تقديم القوات إلى الشمال وتوزيعها على المناطق المحتلة، وتسريح الراغبين في الرجوع إلى أهلهم.

الفصل الخامس عشر

نوادر الحرب

فاتني أن أذكر بعض النوادر التي كانت تحدث لنا في أثناء الحركات الحربية، فهانذا أذكر بعضها.

في القتال الذي دار حول معان كانت مدفعيتنا ترمي على مواقع العدو من حين إلى آخر من جبل سمنة وتزعجهم. وكثيراً ما كنا نسبب لهم الخسائر بهذا الإزعاج، وبالطبع كان يصيبنا نحن أيضاً بعض الخسارة. وأتذكر جيداً أنني لما كنت يوماً ذاهباً لتفتيش المواقع الأمامية في سمنة رأيت الملازم حسين فوزي بشير ضابط مدفعيتنا الصغيرة المسماة «بم بم» (Bum Bum) يرمي على ربيئة عدو أمامه فلم تصل القنابر إلى تلك الربيئة. فأمرته بالتقدم إلى الأمام. وفعلاً بعد تقدم بضع مئات من الخطوات بدأت قنابره تؤثر في العدو. وبينما كنا نحن نشاهد هذا المنظر من محلنا غير محتاطين لأنفسنا فوجئنا بنار شديدة صبتها مدفعية العدو من جهة معان. وكان الضابط سعيد اللاذقاني واقفاً بجانبي وكان بيننا حمار صغير يحمل عتاداً، فسقطت قنبرة فأردته قتيلاً، ولولا الحمار، لكنت أنا ذلك القتيل. فالحمار ذهب فدية لي، لأنني في كل عيد أضحى أعني بتضحية كبش لذكرى سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

وكان أيضاً المقدم خالد سعيد، رفيقي في الصف أثناء الدراسة في المدرسة الحربية في استانبول. وقد تطوع للخدمة في جيش الشريف مع وحدته في سمنة، وهو من نجباء كرد السليمانية. فأتاه جندي من الترك وبيده كتاب موجه إلى سمو الأمير فيصل. فتسلم صاحبنا خالد الكتاب وفض الغلاف مع أنه كان عليه أن يرسله فوراً إلى القيادة لرفعه إلى سمو الأمير. ولما سألناه عن سبب فض الغلاف، أجاب «انني

خشيت أن يتضمن مواداً متفجرة فإذا تسلمه سموه انفجرت محتوياته ووقع ما لا نريده، لذلك فضضت الغلاف لدرء الخطر المحتمل عن سموه» ولما سمع سموه بهذا العذر تقبله بابتسامة.

وأتذكر أيضاً يوماً أنه لما ضجر الزعيم حسن وفقي، قائد الفرقة الأولى، من بقائه في نقطة الكويرة، وتفرق الوحدة في محلات نائية، كتب كتاباً يبين فيه عدم تحمله مشاق السفر، وطالباً أن ينقل هو وفرقته إلى الوراء ليحل محلهم «الجنود الآخرون البطالون لتسلم المواقع الخالية»، فلم يقبل سمو الأمير من اقتراحه سوى نقله هو نفسه إلى مديرية الإدارة والميرة العسكرية مبقياً الوحدات في محلاتها، فكانت فعالية حسن رفقي بك في الميرة لا بأس بها. ولكن الذي يعجبني منه طلبه الصور الشمسية من جميع المتطوعين البدو، وحفظ الصور في سجلاتهم، لمعاقبة الذين يتغيبون بلا عذر شرعي، مع أن البدو يمرحون ويسرحون في الصحراء أحراراً كما يشاؤون، وكانت مساعدتهم العسكرية على ما ذكرته سابقاً حسب أهوائهم هم.

وتعجبني أيضاً الخطبة التي ألقاها الرئيس حسين معروف على فوج القبلة، عند عدم امتثال رجال الفوج لأوامره في ميدان العرض، لا لتمرد بل لعدم فهم أوامره التي كان يلقيها باللهجة البغدادية وهي تختلف الاختلاف كله عن اللهجة الحجازية. وآخر ما سمعت من أقواله لما شاهدت الضوضاء قوله «شوفوا ترى كل ديج بمزبلته يعوعي، وآني ما خايف منكم»[1]. فجمعت آمري الفصائل وقلت لهم: «لم لا تمتثلوا أوامر آمركم» فقالوا «يا سيدي نحن لا نفهم الرطانة التركية، وهو دائماً يكلمنا بالتركي». فلم أتمالك نفسي عن الضحك فقلت لهم «إنه لم يكلمكم بالتركية بل باللهجة البغدادية العامية وسأوصيه ليكلمكم بالعربية الفصحى». فاحتج الضباط هذه المرة عليّ قائلين «نحن لسنا بفقهاء ولا نفهم العربية الفصحى». وأخيراً استعنّا ببضعة رجال من المطوفين المتطوعين في ذلك الفوج، فكانوا يترجمون اللهجة البغدادية من فم حسين معروف إلى اللهجة المكيّة لأفراد فوجه.. والغريب أنه لما أتى الفوج البغدادي المتطوع من الإسماعيلية حدثت ضجة عظيمة بين أفراد باقي الوحدات

---

(١) ومعناها: «انظروا.. فان كل ديك يصيح في مزبلته، وانا لست خائفاً منكم».

قائلين «لقد جاءكم قوم أكو ماكو» لأن معظم العرب يقولون «في، وما في» بدلاً من «أكو وماكو».

وكان القائمقام صبحي حليم يضحكني أيضاً كثيراً، فكان عنده جواد يسميه «البراقا»، فلما كان يسمع دوي الطيارات المعادية سواء أكان ذلك ليلاً أو نهاراً يمتطي براقاً بلا سرج ويبتعد عن المعسكر مسافة أميال. ففي ذات يوم طلبته ليأتيني من معسكر الفقيه إلى الوهيدة بسرعة. فلما رآه المعسكر ممتطياً جواده. سائراً به خبباً، تفرق الجنود والضباط بأسرهم في البراح تاركين المعسكر خالياً، خوفاً من الطيارات ظانين أن خروج صبحي حليم بهذه السرعة أيضاً كان هرباً من الطيارات.

وأتذكر أيضاً أننا لما ذهبنا مع الزعيم (الكولونيل) نيوكمب مرة لنسف السكة الحديد بجوار زمرد، وخربنا قسماً لا بأس به من السكة الحديد، فلما عزمنا على الرجوع إلى أماكننا طلب إليّ الزعيم بالحاح أن آذن له في البقاء هناك لاستئناف التخريب في اليوم التالي. فأذنت له في ذلك، ولكن نيوكمب ورجاله مفرزة التخريب فوجئوا بدورية معادية فاستولت الدورية على امتعته الشخصية فأتاني في صباح اليوم التالي معرباً لي عن ندمه. وكان أسفه العظيم على خرجه المحتوي معظم الخرائط التي رسمها في تجولاته في الحجاز، وتقاريره الرسمية في الوضع. فكنا دائماً نداعبه بإعادة قصة ضياع الخرج. والزعيم نيوكمب من خيرة ضباط الجيش البريطاني. وله خدمات جليلة في الجيش قبل التحاقه، ثم التحق بجيش اللورد اللنبي، وأسره الترك، ولكنه تمكن بمساعدة سيدة أوروبية من سكان شرقي البحر المتوسط (الليفانتيين) من الهروب من الأسر، فاقترن بتلك السيدة التي ساعدته على الخلاص من قيد الأسر.

وكانت أمثال هذه النوادر الفكهة تحدث لنا دائماً، فتسرّى عنا بعض ضرار الحرب.

الفصل السادس عشر

في حلب

دعا الأمير فيصل أخاه الأمير زيد إلى دمشق، فسافرنا معاً إلى عمان، بعد أن مررنا بالكرك ومادبا. فقابل سموه مشايخ الكرك ولا سيما المجالي، وهم رؤساء الكرك ووجوه مادبا ـ وهي بلدة مسيحية في قلب البلاد العربية وأهلها عرب أقحاح محافظون على معتقدهم دون أن يلحق بهم سوء، كما أن معاملاتهم مع قبائل بني صخر والقبائل الأخرى على صفاء تام، مع مراعاة الحقوق المتساوية، وذلك منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب حتى الآن. ويقال إن الخليفة أمر في مرسوم بدفع الدية مضاعفة إلى ذوي القتيل من أهل مادبا ولم يكن ذلك طبعاً إلاّ لمنع الاعتداء عليهم في أول عهد الإسلام، وجعل المتعصبين يسلكون منهج الاعتدال نحو أهل الكتاب وعدم مضايقتهم.

افترقنا عن الأمير زيد في المادبا إذ سافر سموه إلى الشام، وبقيت أنا في الجنوب لتسلم منطقة عمان المسماة الآن إمارة شرق الأردن من الجيش البريطاني: وكان في عمان الفريق (الجنرال) جيتر النيوزيلاندي، وهو قائد فرقة خيالة من الجيش البريطاني أكثر افرادها استراليون ونيوزيلانديون، فجرت مراسم تسليم المدينة باحتفال مناسب وذلك برفع العلم العربي بدلاً من العلم البريطاني فوق دار الحاكم، وفي اليوم الثاني جرت هذه المراسم عينها في السلط.

بقيت في عمان مدة من الزمن منتظراً تجمع القطعات القادمة من الجنوب، فسرّحنا الجنود المتطوعين من سكان فلسطين. وبقي متطوعو سورية والعراق. وقسم قليل من الحجازيين واليمانيين، وكان هؤلاء يرسلون تدريجاً إلى الشام، وأبقيت أمير

اللواء رشيد المدفعي في عمان آمراً لحاميتها. ولم يكن بقائي في عمان طويلاً لأنني طلبت أن أمنح إجازة للذهاب إلى مصر لجلب عائلتي إلى سورية. فوصلت إلى الشام في أواسط كانون الأول سنة ١٩١٨، وفي الشام رحّب بي الحاكم العام علي رضا باشا الركابي[١] وباقي أركان الدولة ورجال الجيش أحسن ترحيب. فذهبت توا إلى مقابلة سموّ الأمير زيد الذي كان نائباً عن سموّ أخيه الأمير فيصل الذي ذهب يومئذ إلى أوروبّة لحضور مؤتمر الصلح في باريس. وفي اليوم التالي كلفت بأن أتسلم مفتّشية الجيش العامة، فقبلت ذلك المنصب بلا تردّد. وبعد مدة قصيرة سافرت إلى مصر التي رجعت منها عائلتي بعد شهر واحد. ولما وصلت الشام طلب إليّ أن أسافر إلى حلب بمنصب حاكم عسكري على تلك الولاية. لأنه حدث شجار بين مهاجري الأرمن وأهل حلب، وكانت نتيجة ذلك خسارة في النفوس والأموال، إذ اضطرّت الحكومة إلى تبديل حاكم حلب العسكري شكري باشا[٢]. وكان شكري باشا ولا ريب من

---

(١) علي رضا (باشا) الركابي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٢) :كان أبرز شخصية سياسية في سورية في عهد فيصل، وأول رئيس للوزراء في حكومتها العربية، ولد في دمشق، وتخرج في المدرسة الحربية في استانبول وتدرّج في المناصب العسكرية حتى رقّي في سنة ١٩١٢ إلى رتبة لواء وعيّن قائداً في القدس ثم محافظاً وقائداً في المدينة المنورة، ثم نقل إلى العراق وقد أحيل على التقاعد سنة ١٩١٤ بعد أن أشار على الدولة العثمانية بالبقاء على الحياد في الحرب العالمية الأولى فعاد إلى دمشق قبيل الثورة. ولما دخل الجيش العربي، دمشق سنة ١٩١٨ عيّن حاكماً عسكرياً حيث قابله جعفر العسكري عند وصوله. وقد بقي الركابي في هذا المنصب حتى خلفه فيه الأمير زيد، فنقل مديراً للحربية (أي وزيراً للدفاع) حتى اعلان الاستقلال وتتويج فيصل. فكان أول رئيس للوزراء بعد الاستقلال. ولما احتلّ الفرنسيون سورية غادرها إلى شرق الأردن وتولى رئاسة الوزراء فيها مرتين. وعاد إلى سورية في سنة ١٩٢٦ معتزلاً السياسة وأقام في دمشق حتى وفاته.

(٢) أمير اللواء شكري (باشا) الأيوبي: من رجالات سورية الوطنيين، اعتقله جمال باشا (مع شكري القوتلي وفارس الخوري وآخرين) بعد تنفيذ أحكام الأعدام بالشهداء العرب في ٦ أيار وحلّ الديوان العرفي، واستصدر حكماً باعدامهم بتهمة التآمر لاشعال ثورة عربية للانتقام من جمال باشا، ولكن ديوان التمييز العسكري في العاصمة نقض تلك الأحكام فأصرّ جمال على بقائهم معتقلين. فبقي الأيوبي ـ وهو رجل مسنّ وقور ـ رهن الاعتقال والتعذيب حتى غادر جمال سورية.

ولما اقترب فيصل من دمشق طلب إلى أعوانه فيها تسلّم زمام الأمور حال انسحاب الأتراك، ورفع العلم العربي على أبنية الحكومة وقد تسلم الأيوبي إدارة دمشق من وكيل الوالي التركي قبيل مغادرته، فبقي على رأسها لمدة يومين حتى وصل فيصل وعين علي رضا باشا الركابي حاكماً عسكرياً على دمشق وشكري الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت، وطلب إليه التوجه إليها في الحال لاعلان قيام الحكومة العربية فيها ورفع العلم العربي =

المواطنين المجاهدين من أجل القضية العربيّة. ولكن تقدّمه في السن. والعذاب الجسماني الذي أصابه من الاتحاديين حين سجنه مدة طويلة في أيام الحرب، أنهكا قواه، فبات غير قادر على مواصلة الأعمال الحكوميّة.

فلما وصلت إلى حلب اتصلت بالجنرال هدسن قائد القوة البريطانية المرابطة في حلب وجوارها. فروى لي تفاصيل الحادثة التي جعلته يعتقل أشراف المدينة ووجوهها. وكانوا من أسر الجابري والنيّال والرفاعي، ومن أسر أخرى. وكان عددهم ثمانية عشر رجلاً تقريباً. فتقرر بيننا الأفراج عن أولئك المعتقلين مع الجنرال هدسن. وبعد إلقاء كلمة نصح على مسامع المعتقلين بعدم تهييج الناس، بل على العكس من ذلك، اعتبارهم مسؤولين عن كل حادث مثل ذلك يقع في المستقبل، وأخذ العهود منهم أطلق سراحهم، وقد خفف ذلك، كثيراً من التوتر الموجود في المدينة بين طبقات المسلمين، الأمر الذي جعل الأرمن وغيرهم من غير المسلمين مرتاحين إلى عودة المياه إلى مجاريها. وبدأت الولائم والزيارات بين مختلف الطبقات. وفعلاً كان أولئك المعتقلون ينصحون العامّة بعدم الاعتداء على أحد، وبمراجعة الحكومة متى شعروا بحركة تدل على الاخلال بالنظام وإقلاق راحة الأهلين. والحقيقة أن هذه الحادثة لم تنشأ من اعتداء المسلمين، بل أن أعصاب الأرمن المهاجرين من تركية كانت متأثرة تأثّراً شديداً من قوّة رجال الاتحاد والدرك (الجاندارمة)، لذلك باتوا في حالة نفسية غير طبيعية. ففي أقلّ مجادلة كلامية كان يصيبهم القلق فيشهرون أسلحتهم دفاعاً عن النفس وخوفاً من وقوع مذبحة عامة. وكانت حادثة حلب أيضاً من هذا القبيل، إذ وقع جدال بين بيّاع من الأهلين وأحد مهاجري الأرمن، ثم توسع الجدال إلى إشهار السلاح فالشجار بين الفريقين، الأمر الذي أدى إلى تلك الفاجعة.

إنني كنت أشعر بعطف في قلبي نحو أولئك الأرمن البؤساء، وأتذكّر أنني جمعت كثيرين منهم في منطقة وادي، وأرسلتهم بنقلية الجيش إلى العقبة، ومن هناك

= بناء على طلب أهلها، فذهب على رأس قوة صغيرة. وقد استاء الفرنسيون لهذه الخطوة فحملوا الجنرال اللنبي على اصدار أمر بانزال الأعلام العربية وانسحاب شكري الأيوبي، فرفض الأيوبي الاستجابة لهذا الأمر، ولكن آللنبي نفّذ ذلك بالقوة، فاضطر الأيوبي إلى العودة إلى دمشق وعيّن بعد ذلك حاكماً عسكرياً في حلب، ولكنه نقل منها بعد حوادث الأرمن، وعيّن جعفر العسكري خلفاً له.

نقلتهم السلطات البريطانية. وكانوا مجموعة أطفال وعجائز، ولا يخفى أن هؤلاء كان قد قضي عليهم بغدر الاتحاديين. واتصل بي أن في حلب وجوارها كثيرين من أولئك المهاجرين مشتتين بين العائلات المسلمة، وكانوا قد بدّلوا أسماءهم ليمحوا أثرهم، للاستفادة منهم بمنزلة خدم، أو لتبنّيهم، وتمكنت بمدة قصيرة، وبمساعدة أشراف مدينة حلب ورؤساء القبائل. من جمع ما يزيد على خمسمائة شخص منهم وتسليمهم إلى جمعية الصليب الأحمر الاميركية في حلب، وكان يرأسها المستر فانس، من ولاية أوهايو، والمستر ستيفان تروبرج، أحد أعضاء البعثة التبشيرية الأميركية في مصر. وكنا نحقق في قضاياهم في لجنة مختلطة مؤلفة من رجال الأمن، ووجوه العرب، وممثلي جمعية الصليب الأحمر. وبعد تحقق كون الشخص أرمنيّ الأصل، كان يسلّم إلى الميتم الأرمني برعاية جمعية الصليب الأحمر الأميركية. وتوثقت صداقتنا مع المستر فانس والمستر تروبرج فارتاحا كثيراً إلى المعاملة المنصفة التي لقوها من أعضاء اللجنة العرب.

ودعاني المستر فانس إلى أميركا لألقاء سلسلة محاضرات في القضية العربية وفي أحوال القبائل العربية، وفعلاً توسط فحصل على موافقة جمعية معروفة تعني بمثل هذه المشروعات وهي الجمعية المسماة «جمعية محاضرات شوتوكوا». كما أنه قال لي بأنني سألقي عدة محاضرات مدة سنتين في جامعة وستر، في التاريخ الإسلامي والقرآن. فلم أتردد في قبول هذين المنصبين بعد أن أفرغ من أعمالي العسكرية والسياسية، وبعد استقرار الأحوال في الأقطار العربية. وكنا نؤمل أن يتم ذلك قريباً بواسطة مؤتمر الصلح ووجود الأمير فيصل في أوروبة استناداً إلى الوعود الصريحة، التي لا تشوبها شائبة من ريب، ولا سيما وجود الرئيس ولسن ذي الأربعة عشر مبدأ[٣] ولويد

---

(٣) وودرو ويلسن (١٨٥٦ ـ ١٩٢٤) الرئيس السابق للولايات المتحدة، بدأ حياته استاذاً جامعياً ثم انتخب حاكماً لولاية نيوجرسي فرئيساً للولايات المتحدة في سنة ١٩١٢. أما البنود الأربعة عشر فقد أعلنها في ٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وطالب بأن تكون أساساً لتحقيق سلام عالمي عادل ودائم.

أما هذه البنود فهي: (١) نبذ الدبلوماسية السريّة (٢) ضمان حرّية البحار (٣) رفع الحواجز الاقتصادية حيثما أمكن ذلك (٤) خفض التسلح (٥) الحدّ من الاستعمار بدون تميّز (٦) جلاء المانيا وحلفائها عن الأراضي الروسية (٧) اعادة كيان بلجيكا (٨) تحرير فرنسة المحتلة وإعادة الالزاس واللورين إليها (٩) تحديد حدود =

جورج، كليمنصو اللذين كانا دائماً بجانب العرب، ومن مروجي الحركة العربية والمساعدين على نجاحها(٤).

لم أبق في حلب أكثر من سنة واحدة، ولكن تلك السنة كانت من أعز السنين عليّ، وأجملها في حياتي، لأنني كنت في موقف اعزاز ومحبة بين الأهلين، وكان الجميع ينظرون إليّ نظر أب شفيق أكثر من حاكم عسكري يسير بعنف وقسوة، بلا مراعاة القوانين والأنظمة، ومما لا شك فيه أن شعوري دائماً كان يتفق وشعور أكثرية السكان. وكانت الغاية المتوخاة تأسيس إدارة مدنية هي نشر العدل بين الناس، ومن أجل هذه الغاية كنت أستعين برجال من ذوي الخبرة على تسيير الأمور في مجراها السوي. وكنت أجتمع كثيراً بالفريق (الجنرال) مكندرو الذي لم يقصر عن مدّ يد المساعدة الأدبية والعسكرية لتهدئة خواطر المسيحيين، ولقطع دابر عصابات العابثين بالأرمن. وكان مكندرو رجلاً عسكرياً هماماً، ومن أسرة اسكتلندية عريقة في المجد، وكان له ميل خاص إلى العرب، ولا سيما حب عرب البادية، وكان يردد دائماً الكلام بقوله: «ما أشبه القبائل العربية بالقبائل والبطون الاسكتلندية قبل مائة عام. فكان الاسكتلنديون كالعرب البدو. يغزو بعضهم بعضاً، وينهبون ويسرقون أموال غيرهم، ومواشيهم» وكان يقدر الحماسة والرجولة في شبان العرب مع شجاعتهم البادية للعيان، واقتحامهم المصاعب والمشقات، وكنت أنا أقدره على مسيرة مع فرقته من الشام إلى حلب بسرعة فائقة هو يطارد فلول الجيش العثماني المنكسر. وكان يقول لي تواضعاً: «إن جماعة من غزاة القبائل يقطعون هذه المسافة بنصف الوقت الذي قطعتها أنا فيه أو أقل، لذلك لا أستطيع الافتخار بالفروسية أمامك». ولكن ويا للأسف انني فقدت ذلك الصديق في حادثة فجيعة مؤلمة للغاية وذلك أنه كان ذات

= ايطالية على أسس الخطوط القومية المعترف بها (١٠) جلاء قوات الاحتلال عن رومانيا والصرب والجبل الأسود على أن يحصل الصرب على منفذ إلى البحر (١١) منح القوميات في النمسا والمجر حقها في تنمية نفسها على أساس الحكم الذاتي (١٢) حق التنمية الذاتية للشعوب غير التركية في الامبراطورية العثمانية وحرية المرور في مضيق الدردنيل (١٣) إقامة دولة بولونية مستقلة ذات منفذ إلى البحر (١٤) تأسيس جمعية عامة للأمم لضمان الاستقلال السياسي لجميع الدول (عصبة الأمم).

(٤) كان صاحب المذكرات مصيباً في هذا التخمين قبل مؤتمر الصلح، ولكن ذلك المؤتمر اسفر عن نيات مبيتة لهم لعلّها لم تكن معروفة في وقت كتابة هذه السطور.

يوم ينظف ملابسه بالبنزين وهو يدخن سكارة، فالتهب البنزين، وكان مقداره كثيراً فسبب حروقاً بليغة في ذراعيه وصدره ووجهه، فمات متأثراً من الحروق بعد ثلاثة أيام. وقد دفن باحتفال عسكري بجوار حلب شمالاً في المقبرة المختصة بالجيش البريطاني. وبالقرب من تلك المقبرة أقيم نصب تذكاري للجيش البريطاني الذي قاتل فلول الجيش التركي بقيادة مصطفى كمال باشا. وكانت الوقعة الحربية الأخيرة بين الجيش البريطاني والتركي.

وكانت خسارة الفريقين ـ على ما بلغني ـ فادحة، وأتذكر انه حين تدشين النصب التذكاري دعانا الفريق (الجنرال) غريغوري إلى حضور عرض الجيش البريطاني الذي كان محتلاً منطقة حلب حينذاك.

وكانت أخطر معضلاتي في حلب حل الخلاف القائم بين القبائل الرحّل، وحملها على إحترام سلطة الحكومة. وأكثر العناء لقيته من الموالي، والحديديين والفدعان. وحسب الاحصاء الذي حصلت عليه كانت قوة الحديديين تقدر بخمسمائة خيال وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل. وكان الموالي قاطنين في جوار المعرة، والحديويون في جوار أدلب، والباب، ومنبج. وكانت العنزة تؤلف ثلاث فرق. وهي: السبعة، ورئيسها برجس بن هديب، وكانت قوته تخمن بألف خيال، وثمانية آلاف راجل، ولم تكن علاقاته بالحديديين حسنة، وكان يرأس الفدعان «محجم بن مهيد» وابن عمه «حاجم بن مهيد»، وكانت تقدر قوة الفدعان بخمسمائة خيال وأربعة آلاف راجل. ولا يسعني إلاّ التنويه العاطر بالخدمات الجليلة التي قام بها «حاجم بن مهيد» للحكومة العربية وايوائه الضباط العرب بعد الاحتلال الفرنسي، ومساعدته إياهم على الحركات الوطنية التي قاموا بها في دير الزور، سواء أكان ذلك في مقاتلة الفرنسيين، أو باقي المحتلين بلادهم من انكليز وترك. ولا شك عندي في أنه لو أتفق محجم بن مهيد مع ابن عمه حاجم لشاغلوا الاعداء مدة طويلة. ولكن الأقدار شاءت ان يغري الفرنسيون محجماً بالوعود الخلابة والمساعدة المالية. ولا انكر ان ذلك كان ناشئاً من سوء تصرف الشريف ناصر الذي تولى إدارة شؤون العشائر في حلب مدة قصيرة فأغاظ محجماً لأمور تافهة وجعله ينفر من الشريف ومن رجاله.

وأذكر انه لما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية برئاسة المستر كراين، المثري

الأميركي المشهور، حاول محجم الذهاب إلى بيروت مع ضابط الأرتباط الفرنسي في حلب، فأوقف في حمص، وأعيد إلى حلب ليلاً، وحجز عليه للتحقيق معه عن الأسباب التي دعته إلى موافقة الضابط الفرنسي، والذهاب إلى بيروت لمقابلة الجنرال غورو هناك. ولكن ويا للأسف لم يعامل محجم المعاملة اللائقة، بل أهانه الرعاع في المحطة. وأني أسفت جداً لهذه الحادثة لما سمعت بها في اليوم التالي. فأستدعيت محجماً إليّ وطيّبت خاطره ونصحته نصائح تحرك فيه الشعور القومي، واطلقت سراحه بعد أن قطع لي عهداً صريحاً بعدم الاشتغال بالسياسة في غير مصلحة الحكومة العربية.

هذه قصة الفدعان. وما عدا هؤلاء، هناك الفريق الثالث وهو «الخرصة» المؤلفة من خمسمائة خيال، وثلاثة آلاف راجل، وزعيمها «مزود بن عكيشيش». وكانت هذه القبيلة قاطنة في جوار دير الزور، وكثيراً ما كانت تصطدم بالقوة الانكليزية هناك. وكنت أصلح بين الفريقين وأتعاهد على حسن سلوك مزود، آخذاً التبعة كلها على عاتقي لحمايته من أذى الجيش البريطاني.

وما عدا هذه العشائر كانت هناك عشائر صغيرة متفرقة مثل اللهيب والبو خميس، والحص، والعيص وغيرها ممن لم يكن لهم قيمة حربية كبيرة إلى قلة عددهم.

وكان بعض رؤساء هذه القبائل الخطيرة «برجس بن هديب»، رئيس سبعة، ونواف الصالح، رئيس الحديديين، حاصلاً على قسط من التعليم والتهذيب، وقد درس في مدرسة العشائر الحربية التي احدثها السلطان عبد الحميد في استانبول لتثقيف أولاد رؤساء العشائر. والغاية المتوخاة من سياسة تعليم أولاد العشائر في الاستانة هو تقريبهم من السلطان لكي يكون رجال العشائر موالين للسلطان وحكومته دائماً، وثابتين على الولاء له. وكانت مدرسة العشائر تجمع من جميع انحاء الامبراطورية العثمانية أولاد رؤساء القبائل. وكان بعض رجال القبائل المتأخرة في مضمار الحضارة يمتنع عن ارسال اولاده للدراسة، وكان أولئك الرؤساء يختارون الطلبة من غير طبقة الشيوخ والرؤساء، وكانوا أحياناً يرسلون من أبناء المدن الفقراء باسم اولاد الشيوخ، وكان هؤلاء يتنعمون بكرم السلطان من رتب عسكرية عالية ومنح كثيرة.

ولا شك في أن بعض أولاد العشائر هؤلاء نبغ نبوغاً لا بأس فتسنم مناصب عالية في الدولة، أذكر منهم المرحوم عبدالمحسن بك السعدون، وأخاه عبد الكريم بك، فكلاهما درس في مدرسة العشائر وكان مدة طويلة مرافقاً للسلطان عبد الحميد، وبعد الحرب العظمى أتى هذان الأخوان إلى العراق، وتقلبا في المناصب العالية بين عضوية مجلس نواب واعيان. كما أن عبد المحسن بك السعدون تسنم كرسي رئاسة الوزراء خمس مرات، وأخيراً انتحر راميا نفسه بمسدس دفعه إلى ذلك يأسه من السياسة غير الناجحة.

***

وفي حلب كنت أقضي معظم أوقاتي محاولاً جعل النصارى مرتاحين إلى الادارة، خوفاً من الدعاية الاجنبية، ولا سيما الفرنسية، وكنت على الأكثر استعين بقسطاكي بك الحمصي [٥] وهو من أشراف نصارى حلب المتقدمين، وكان شاعراً وأديباً، ومتكلماً لبيباً، وصديقاً مخلصاً. وكان دائماً يفحم معارضيه بحجج دامغة ولا يخشى لومة لائم. وأخص بالذكر أيضاً المساعدات الثمينة التي أسداها إليّ الأستاذ فيلكس فارس[٦] سواء أكان ذلك بنشر الأناشيد الوطنية، أم بالقاء الخطب الحماسية، وبث الآراء الصائبة بين طبقات المجتمع. وكنت دائماً أخالط الرجال البارزين من المسيحيين مثل المسيو البير حمصي، ومثل اسر غزالة واسود بليط، والاخرس، والخوري، والانطاكي، والخياط، وعابديني، وسالم، وكثيراً ما كنت

---

(٥) قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ ـ ١٩٤١) أديب سوري من حلب وأصله من حمص، درس في كتاتيب الروم الكاثوليك ثم بمدرسة الرهبان الفرنسيسكان ومارس التجارة فجمع ثروة كبيرة ودرس علوم العربية على بعض المعلمين في أوقات فراغه وسافر إلى اوروبا ودرس فيها اللغة الفرنسية. انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. وله عدة مؤلفات أدبية قيمة.

(٦) فيليكس فارس (١٨٨٢ ـ ١٩٣٩) أديب سوري وخطيب مفوه ولد في إحدى قرى المتن بلبنان، وتعلم الفرنسية في «الشويفات» وأصدر في بيروت جريدة «لسان الحال» سنة ١٩٠٩، وسافر إلى الاستانة، وعاد منها إلى حلب وأصبح مدرساً في مدرستها السلطانية. وكان فيها حين دخول فيصل إلى الشام وتعيين جعفر العسكري حاكماً عسكرياً. وفي سنة ١٩٢٠ سافر إلى امريكا. ثم عاد واستقر في الاسكندرية وعين رئيساً للترجمة في المجلس البلدي سنة ١٩٣٠ ومارس الكتابة في الصحف الأمريكية، ونشر عدة كتب موضوعة ومترجمة حتى توفي فيها. ومن أشهر كتبه: «رسالة المنبر إلى الشرق العربي» وترجمته لكتاب جان جاك روسو «اعترافات فتى العصر».

أتردد الى الرؤساء الروحانيين السريان والكلدان، والكاثوليك، والارثوذكس، والارمن، والموارنة، وبالطبع كنت القي ميلاً شديداً إلى القضية العربية من مطران الروم الارثوذكس، وكان يليه في ذلك رؤساء السريان والكلدان. وكنت أرى أيضاً من بيت الخياط، وعابديني، والخوري، والانطاكي، ميلاً إلى الفكرة العربية يفوق ميل باقي الأسر التي ذكرتها. وكان صديقي فيليب انطاكي يأتيني دائماً متأثراً، ويروي لي متأسفاً تأثير الدعاية الفرنسية السيء بين الطبقات المسيحية وكان يلطم رأسه ويقول: «يا باشا القضية ملعونة» فكنت اهدىء روعه، وانصحه بالتأني والصبر وعدم اليأس والقنوط لأن كل من يتولى الحكم يضطر إلى بسط العدل، بين الناس، واننا باذلون قصارانا لمنع دخول الأجانب البلاد، فلا يتمكن الفرنسيون ولا غيرهم من افناء البلاد، لان العثمانيين ظلوا مئات السنين يحكمونها وها أننا نراهم قد خرجوا منها قهراً.

وفضلاً عن الدعاية الفرنسية كانت الدعاية التركية أيضاً متفشية بين المسلمين، وكان أكبر رجال هذه الدعاية من بيت آل عشلي، وبيت المدرس، فكنت دائماً استعين بفاخر بك الجابري، ومرعي باشا الملاح، ونديم طارق بك الرفاعي، الذي كان مرافقي العسكري في زمن الحرب، لاستمالة الذين كانوا عاطفين على السياسة التركية لدرء خطرهم عن القضية العربية. وكنت أيضاً القي المساعدة الثمينة من قاضي حلب بشير افندي الغزي، ومن الاستاذ الشيخ محمد زرقاء الذي كان معدوداً من أكبر العلماء واتقاهم، وكانت كلمته مسموعة لدى العامة والخاصة. ولولا مساعداته الثمينة وارشاداته المتوالية، لتحطمت ادارة الحكومة العربية بين الدعايتين التركية والفرنسية.

وكنت ألقي أموراً غريبة في حلب، حيث كانت الأمواج السياسية تتلاطم من الجهات الأربع المختلفة، فكنت دائماً أسعى سعياً عنيفاً لتخفيف وطأة هذه التيارات السياسية في منطقتي. وزرد على ذلك أن حلبا واقعة على الطريق بين تركية والعراق. فكانوا العراقيون الراجعون من تركية يأتوني بأخبار وأنباء مقلقة عن تركية، كما أن القادمين من العراق منهم كانوا يقصون عليّ أخبار المعاملة القاسية، وما يكابدونه من مضض الادارة العسكرية «الكيفية» المسماة في العراق بالادارة «القره قوشية»،

ويقولون انهم هاربون إلى تركية للنجاة، فكانوا كمن يهرب من الرمضاء إلى النـار. فكنت أنصح الكثيرين منهم ليذهبوا إلى الشام حيث يلقون ما هو أصلح مما في العراق وتركية. ولكن بعضهم كان يتردّد في قبول نصيحتي، فيفضل الذهاب الى تركية. ولا يخفى أني كنت أساعد الجميع بقدر استطاعتي لينالوا مبتغاهم. ولا شك في ان هذه العملية كانت تكلفني انفاق كل ما يمكنني أن أقتصده لنفسي من راتبي ومخصصاتي، واني لست آسفاً على ذلك لأن تلك المبالغ أنفقت على من كانوا يحتاجون لها أكثر من غيرهم. وكانوا يروون لي حوادث غريبة لان الحاكم العسكري في الاقضية والملحقات كان يحكم بين الناس بحذيـرات مثل هـذه: قال الحـاكم السياسي الانكليـزي وهو ضـابط شاب في مقتبـل العمر «اني سـأغني أغنية عـربية والـذي يضحك أولا من الفريقين هو المذنب»، فضحك الفريقان من لهجته ورطانته وحركاته، فكان كـلاهما مذنباً حسب قانون العقوبات «الأغاني».

وكان يزور حلب من حين إلى آخر الجنرال كلايتن، الذي كان رئيس المكتب العربي ورئيس الاستخبارات في القيادة العامـة للحملة المصريـة البريـطانية. وكنت أقص عليه هذه القصص واطلب منه بالحاح ان يتوسط لـدى حكومتـه لتغيير طـراز الادارة في العـراق. واشراك الاهلين في الحكم، لأن الجنـرال مود أعلن في منشـوره الذي اذاعه على السكان حين دخوله العراق ان الجيش البريطاني انما دخل محـرراً لا فاتحاً. وهذا مما جعل الأهلين يؤملون خيراً من السياسة البريطانية وعطفها على قضية العرب. وبعد مكـاتبات طـويلة مع بغـداد ولندن اجـابني بأن الحـاكم المدني العـام الكولونيل ولسن يقول بأنه ليس بين العراقيـين من هو اهـل للاشتـراك في الادارة. فدهشت لهذا الجـواب مبيناً للجنـرال كلايتن ان البـلاد العربيـة من الشمال ـ اعني حلب ـ إلى اليمن كان البارزون فيها في الادارة والسياسة أو العسكرية من العراقيين وفعلاً ذكرت اسماءهم للجنرال بادئاً بمولود مخلص باشا، قائد فـرقة حلب، ورؤوف بك الكبيسي، قائد الشرطة في ولاية حلب، وناجـي بك السويدي، المعـاون المدني للحاكم العسكري في حلب، وعلي جودة بـك الأيوبي، الحـاكم العسكري لـمدينة حلب، ورؤوف بـك الجيبه جي، قـائـد الـدرك في ولايـة حلب، ويـاسـين بـاشـا الهاشمي، رئيس ديوان الشورى العسكري في الشام، وعبدالله بك الدليمي، قائد الفرقة الثانية في الشام، وقاسم راجي بك، من القواد المعدودين أيضاً، ورشيـد بك

المدفعي، قائد القوة العسكرية في شرق الأردن، ومجيد بك حسون، وصبري باشا العزاوي، والسيد حلمي باشا، وحامد باشا الوادي، وجميل باشا الراوي في الحجاز، وطه بك الهاشمي في اليمن.

وهذا مما يثبت لنا إنه اذا سنحت الفرص للعراقيين ودعوا الى خدمة مسقط رأسهم - وهم يفضلون ذلك بلا ريب - يحسنون ادارة وطنهم ويكفون ضباط الانكليز عناء الحكم «بالطرة والكتبة»[٧]، و«الأغاني» وهلم جرا، واني بالذات قابلت الآنسة «غرترود بل» المشهورة بثقافتها العلمية، وأسفارها في الاقطار العربية، وبحبها لابناء العرب، يوماً في الشام عند الأمير فيصل، ورجوت منها أن تتوسط لدى «ولسن» لدخولي العراق، واشتغالي بالزراعة فوعدتني خيراً. وبعد مدة أتاني منها كتاب طويل تذكر فيه أن الحاكم المدني غير مستعد الآن لأجابة طلبي هذا. ولم استغرب ذلك الجواب، لأن الأساليب الادارية في العراق حينئذ، وأفكار موظفي حكومة الهند وآمالهم القوية بربط العراق بالهند، وجعله مستعمرة هندية، كانت غير خافية عليّ. ولكنني حاولت بذلك الطلب أن أقف على مبلغ تخوف رجال الادارة البريطانية من أبناء العراق المدربين، والذين يستطيعون القيام بتأدية قسطهم من الواجب نحو بلادهم.

---

(٧) الطرة والكتبة - في الاستعمال العامي في العراق - هي المراهنة المعروفة بالقاء قطعة نقدية ومراهنة الطرفين على الوجه الذي ستسقط عليه العملة، وتسمى بالانكليزية (Heads or tails)

النهضة العربية الحديثة والعوامل التي تقدمتها

بزغت شمس الدين الاسلامي في جزيرة العرب في اوائل القرن السابع للميلاد، وكان من فضله على الأمة العربية أن جمع شملها، ووحّد كلمتها، وقد عرف زعماؤها كيف يفيدون من هذا التطور، فساروا بها في الطريق الذي اتاح لها أن تسترد مكانتها تحت الشمس بعد أن رزح قسم كبير منها تحت نفوذ الأجانب عصوراً طويلة.

ولما قام الخلفاء الراشدون بفتوحاتهم العظيمة اعتمدوا في ذلك على العنصر العربي. فلم يلبثوا ان نشروا سلطاتهم من جزيرة العرب فأجلوا الفرس عن العراق، والرومان عن فلسطين وسورية، والقسم المهم من شمالي أفريقيا.

ولما نشأت الدولة الأموية في سورية بين سنة ٤٠ ـ ١٣٢ هجرية وجدت نفسها إزاء عدد كبير من الشعوب التي انضوت تحت لواء الاسلام. فاعتمدت على العنصر العربي، وتابعت الفتوحات التي قام بها الخلفاء الراشدون، فوسّعت حدودها توسيعاً سريعاً مدهشاً، ونشرت اعلامها ما بين الصين شرقاً، وجبال البرانس غرباً.

وكان اعتماد الدولة الأموية على العنصر العربي من الأسباب التي أدت إلى حقد بعض الشعوب التي ظللها لواء الامبراطورية الجديدة، فبدأت تعمل سرّاً لهدم كيان تلك الدولة.

وصادف ذلك هوى من العباسيين، أولاد عم النبي، الذين كانوا يعملون على استرداد الخلافة من الأمويين، فاستعانوا بتلك الشعوب، وأضافوا قوتها الى قوتهم،

فلم يلبثوا أن قضوا على الدولة الأموية، واقاموا دولتهم في العراق، متخذين بغداد عاصمة لها.

وقد ظل العنصر العربي ذا شأن في صدر الدولة العباسية، ولكن اهميته لم تلبث أن اخذت في الاضمحلال حتى اصبحت الخلافة العباسية خاضعة لنفوذ العناصر المختلفة التي دانت بالاسلام، وظل امر الخلافة يتضاءل تدريجياً حتى قضى عليها التتر بقيادة هولاكو في السنة ٦٥٦ هـ (الموافقة للسنة ١٢٥٨ م).

وبعد انقراض الدولة العباسية ازدادت الوحدة العربية وهناً، بالنظر إلى تغلب الشعوب المجاورة على بلاد العرب، وتشتت وحدة الأمة العربية وتفرق كلمتها. فغدت الامبراطورية العربية منقسمة الى دويلات صغيرة يتمتع بعضها بالاستقلال، ويرزح البعض الآخر تحت نفوذ الشعوب المستولية عليه. وعلى الرغم من ازدهار دولة العرب في الأندلس زمناً غير قليل فإنه ـ ويا للأسف ـ لم يكن لتلك الدولة كبير تأثير في جزيرة العرب. وسيطر الخمول على الأمة العربية عصوراً عديدة بعد زوال دولتها ومع ذلك فإنها لم تفقد مقوماتها كافة وذلك لسببين قويين: ـ

الأول ـ ان العناصر التي استولت على بلاد العرب لم تكن أرقى منهم مدنية وثقافة.

الثاني ـ ان الوحدة الدينية اضطرت المستولين على تراث الامبراطورية العربية الى ان يقتبسوا اعتقادات العرب ومدنيتهم، ويقلدوا فلسفتهم وآدابهم.

ولا حاجة إلى ذكر التفاصيل في هذا المضمار لأنها معلومة لدى المطلعين على التاريخ.

وبفضل الدين الاسلامي واللغة العربية لم ينس العرب تاريخهم. وكان المثقفون منهم يحلمون دائماً بالعصور الذهبية الخالية، وكانوا يزدادون فخراً بتلك العصور كلما رأوا أن الأمم العربية نفسها تشيد بذكرها، وتنوه بفضلها.

ولما استولت الامبراطورية العثمانية على معظم البلاد الناطقة بالضاد في العصور الأخيرة كان حكم العثمانيين في كثير من الأقطار العربية حكماً اسميا أكثر منه حقيقياً بالمعنى المعروف لدى الدول.

فقد كانت الفتن مستمرة في اليمن ونجد ومصر والعراق وحتى في سورية وقد بلغ ببعض الايالات أنها تغلبت بقوتها على الجيوش العثمانية ودخلت قلب الاناضول. ومع ذلك كانت الخلافة الاسلامية نوعاً ما جامعة لشتات العناصر والأقوام التي يظللها العلم العثماني.

ولما بدأت بعض الفئات المستنيرة من العنصر التركي تفكر في اواخر العصر التاسع عشر في تفضيل العنصر التركي وتمييزه على العناصر الأخرى، أيقظ ذلك افكار باقي العناصر، ومن ضمنهم العنصر العربي، ونبههم الى أن يحذوا حذو اولئك الترك الذين كانوا يسمون بـ (الجون تورك)[١]. وحتى قبل الانقلاب العثماني الأخير في سنة ١٩٠٨ كان بعض زعماء البلاد العربية يفكرون في جمع كلمة أبناء العرب استعداداً لتأليف دولة عربية قوية.

وبعد اعلان الدستور العثماني وخلع السلطان عبد الحميد على يد جمعية الاتحاد والترقي والجيش، بدأت هذه الجمعية تعزز الفكرة القومية التركية وتنعشها، وتضع الخطط لحصر السيطرة بيد ابناء الترك دون سواهم، وبتأليف منتديات وجمعيات لتأمين هذه الغاية، وغير مبالية بالمحاذير التي تتولد منها فيما لو قامت العناصر الأخرى لنهج الخطة عينها بالنظر إلى قومياتها.

وصمم الاتحاديون على قمع كل حركة يشتم منها مناوأتهم ومقاومتهم. فأدى ذلك الى ازدياد يقظة العنصر العربي، وتألفت فعلا بعض الجمعيات والأحزاب التي تعمل على ايجاد كيان قومي للعرب ضمن الامبراطورية العثمانية على اساس «اللامركزية» او على اساس دولتين تتحدان اتحادا يشبه اتحاد النمسا والمجر.

ولم يقصر المبعوثون العرب في مجلس المبعوثان العثماني عن تأييد بعض المطاليب التي من شأنها ايجاد كيان سياسي للبلاد العربية. ولكن الطريق السلمية والتشبثات الادبية لم تكن لتجدي نفعاً، بل كانت القوة تصدمها وتسكتها.

---

(١) جون تورك (Les Jeunes Turcs) : ـ الأسم الفرنسي لجماعة تركية الفتاة، ومعناها «الأتراك الشبان»، وقد أصبحت هذه التسمية منذ شيوعها تطلق مجازاً على كل حركة رائدة وان لم تكن لها علاقة بتركية.

واتذكر جيداً انه قبيل الحرب البلقانية دعا طلعت باشا، وزير الداخلية وقتئذ، رجالات العرب الذين كانوا قائمين بطلب الاصلاح على اساس اللامركزية الى ضيافة في احد الأيام وخطب فيهم مفتخراً قائلاً: ان الأقوال والمنتديات لن تفيد شيئاً، وانه لا يمكن للعرب ان يحصلوا على ما يريدونه ما لم يتعلموا كيف تلقى القنابل وكيف يؤخذ الحق بالقوة.

وكان لاقواله هذه رنة عظيمة بين المفكرين في القضية العربي، وقد شكروا طلعت باشا على تنبيهه اياهم على هذه الصورة ولو انه قال ما قاله متهكماً ومزدرياً بضعف العرب ومتصوراً عدم تمكنهم من اخذ مطالبهم بالقوة.

واني اتذكر ايضاً اضطهادات الضباط والقادة الترك لابناء العرب في الجيش العثماني، واهتمام وزارة الحربية العثمانية بتشتيت الضباط العرب الذين يشتم منهم انهم يحملون اقل فكرة قومية، وابعادهم الى اقاصي الاناضول والروملي.

وكنا انا والضابطين نوري السعيد وعلي جودة في بغداد نعمل في مدرسة ضباط الصف التي تأسست عند قدوم ناظم باشا الى بغداد في اوائل سنة ١٩١٠ فكنا دائماً نتداول في هذا الموضوع، ونفكر في البدء بحركة قومية سرية نؤلف بها كتلة قوية من الضباط العرب قادرة على المحافظة على حقوق ابناء العرب وعدم افساح المجال للاجحاف بحقوقهم. وقد الفّنا فعلاً جمعيتنا الثلاثية، وتبرع كل منا بمبلغ زهيد لهذه الغاية. وقد بدأنا عملنا بارسال كتل الى بعض رؤساء العرب وزعمائهم، وتشبثنا بالاتصال بالسيد طالب باشا النقيب لاننا كنا نتوسم فيه الغيرة على القضية العربية والعناية بالمحافظة على حقوق العرب.

وكان يتصل به بعض الضباط العرب، كالضابط الغيور عارف قفطان (عانه)، و . . . . جماعة آخرين نفوا جميعاً الى الاناضول بعد أن اتصلت بالقيادة بعض الأخبار عن تشبثاتهم القومية.

واتفق في ذلك الحين أن اوفدتني الحكومة الى المانيا لاكمال دراستي العسكرية، كما ان نوري السعيد دخل مدرسة الاركان الحربية في الاستانة، ومع ذلك فاننا لم نوقف تشبثاتنا. وكانت مساعينا مستمرة لتقوية هذه الفكرة بين الضباط العرب.

اتصلت في المانيا بالضباط رشدي الصفوي، وعلاء الدين الكلاسي، ويوسف العظمة، وخالد الحمصي، الذين كانوا معي في البعثة عينها[1]، فكنت أرى منهم تردداً، باستثناء علاء الدين الكلاسي الذي كان يتفق واياي في كافة الآراء التي كنا نتبادلها عن مقدرات العرب ومصيرهم.

وأخيراً لما تألف حزب العهد كنت أحد اعضاء الشعبة المركزية لذلك الحزب في حلب مع الضابطين يحيى كاظم ابو الشرق (دمشق) وجميل لطفي (بغداد).

وعند رجوعي من المانيا في اواخر سنة ١٩١٢ اتفق ان اجتمعنا في حرب (لوله برغاس) أنا ونوري السعيد في ساعة رهيبة للغاية، إذ كان الضباط الترك من الاتحاديين يغادرون مواقعهم ليخذلوا ناظم باشا بانكسار جيشهم. وكنت مشمئزاً من هذه الحالة كل الاشمئزاز، فقال لي نوري: لا تتحمس الى هذه الدرجة، ان لنا يوماً اعظم من هذا اليوم نخدم فيه بلادنا وعنصرنا، فادّخر نفسك لمثل ذلك اليوم.

فضحكت واياه، وقلت: لولا ان الشرف العسكري يضطرني الى البقاء في موقعي لما ترددت في الالتحاق بالضباط الترك المتراجعين. ولم تمض على محاورتنا ساعتان الا واصبت بجرح في رجلي عند تقدمنا على المواقع البلغارية، وكان نصيبي الرجوع من الجبهة على هذه الصورة.

ولم نلبث ان اجتمعنا في الاستانة بالقائد عزيز علي المصري الذي كان راجعاً من افريقية الشمالية بعد ان اختلف مع السنوسي وفارقه باعجوبة منقذاً نفسه من الاغتيال الذي دبر له.

وكانت مباحثاتنا تدور حول قضيتنا الكبرى. وكان سليم الجزائري وطه الهاشمي يشاركاننا في هذه المحاورات. وتم الرأي اخيراً على تأليف حزب خفي باسم «حزب العهد» مبدؤه جمع كلمة ابناء العرب وتقوية عناصر الرجولة والتفادي فيهم لايجاد كيان سياسي للبلاد العربية من غير ان تكون ثمة ضرورة للافتراق عن الخلافة العثمانية.

فاتخذنا دارنا التي كنا نسكنها في «بشكطاش»[2] مركزاً للحزب، وكنا نأتي بالضباط

---

(٢) أحد أحياء استانبول المشهورة.

من ابناء العرب لتحليفهم اليمين على صورة سرية تحت جنح الظلام من غير ان يعلم الشخص موقع الدار بالضبط لاننا كنا نأتي به مسدود العينين. وكان يؤدي اليمين واضعاً يديه على القرآن الكريم والمسدس، فيقسم انه يوقف نفسه على خدمة العرب وتأمين استقلالهم حسبما يتلقاه من الأوامر من حزب العهد ولو ادى ذلك الى هلاكه. وذلك امام ثلاثة اشخاص مقنعين بالبسة سوداء تسترهم من اعلى رؤوسهم الى اقدامهم.

وكان كل عضو لا يعرف احدا من الاعضاء الآخرين ما عدا العضو الذي اتى به امام هيئة التحليف.

وانضم الى حزب العهد كثير من الضباط الذين كانوا في الاستانة ولكن بمناسبة انتهاء حرب البلقان، ورجوع الضباط الى مراكز وظائفهم في انحاء المملكة المختلفة، ونظراً الى تعذر نشر افكار مثل هذه بين الضباط في بلاد مأهولة بالاتراك، عهد اليّ رئيس الحزب، البكباشي عزيز علي بك - وانا في طريقي الى حلب - بمقابلة الرجال المعروفين بميلهم الى القومية العربية ومذاكرتهم حول تأسيس فروع للحزب في بيروت ودمشق وحلب.

غادرت الاستانة في شهر تشرين الثاني ١٩١٣، وقابلت في بيروت أحمد مختار بك بيهم، وهو من الرجال المعروفين بنزعتهم العربية، وفاتحته في الأمر، ورجوته ان يرشدني الى بعض شبان الضباط لافاتحهم في القضية فلاحظت عليه بعض الخوف والارتياب.

والظاهر ان حزب «الاتحاد والترقي» كان يراقب اعماله. ولكن لحسن الحظ كان البكباشي اركان حرب صبيح بك بعد مقابلتي اياه بيوم واحد، مما جعله يطمئن اليّ بالنظر الى ما دار بيني وبين صبيح بك من الحديث الذي كان يسمعه خلسة، لأن صبيح بك كان يردعني عن هذه الحركات التي يعتبرها غير معقولة، وقد كان من رأيه ان انتهاج مثل هذه الطرق لا يمكن ان يؤدي الى النجاح وبلوغ الغاية المتوخاة.

ومع كل هذا لم اتمكن من التوصل الى تأليف فرع في بيروت لأنها لم تكن مركزاً

عسكرياً كبيراً، ولم يكن فيها عدد كبير من الضباط لبث هذه الدعاية بينهم، ولتأليف فرع لحزب العهد منهم.

فطلبت من بيهم بك ان لا يبوح بالأحاديث التي دارت بيننا لأنني لم اكن مأذوناً بمفاتحته في الأمر لأنه لم يكن منتسباً الى الجيش. غير ان اعتقادي بانه يغار على مصلحة العرب ويودّ نجاحهم هو الذي شجعني على مفاتحته، وقد وعدني بالكتمان.

ولما وصلت دمشق قابلت البكباشي المدفعيّ عارف بك التوام، والملازم اسعد المالكي، وفاتحتهما في الأمر فأعربا عن استعدادهما للبدء بالعمل فوراً. فذهبت انا وعارف بك الى اليوزباشي اركان حرب محمد اسماعيل وبعد مباحثة طويلة وجدته غير ميال الى الاشتراك في العمل فعلاً، وان كان يرحب بالفكرة ويحبذها.

ونظراً الى ضيق الوقت تركت لعارف وأسعد تدبير هذه المهمة بعد ان اعطيتهما صورة من المنهج والوصايا والطريقة التي يجب اتباعها لادخال الاعضاء في الحزب، ثم واصلت السفر الى مقر وظيفتي في حلب، وهي معلم في دار تدريب الضباط.

وكان المحيط في حلب ملائماً لبث فكرتنا والاستفادة من موقعنا الرسمي من التأثير على الضباط الذين كانوا يأتون للتدريب في هذا المعهد. فكنت انا وصديقي الممتاز اليوزباشي علاء الدين الكلاسي، والبكباشي يحيى كاظم ابو الشرق، والبكباشي اركان لطفي الأنطاكي، الذي كان مستخدماً في اركان حربية الفيلق السادس، نشتغل معاً بأسم المركز لفرع حلب. وكانت داري مقراً لاجتماع اعضاء الحزب الجديد الذي انتمى اليه كثير من الضباط العرب، اذكر منهم الملازم جميل لطفي، والملازم سعيد فهمي، والملازم سعيد العزاوي، وكثيرون غيرهم.

وقد فتحت بواسطة بعض الضباط فروعاً للحزب في بغداد، والبصرة، والموصل، وكان للحزب تأثيره العظيم في ايقاظ الروح القومية في نفوس العرب ولا سيما الضباط.

ومن الطبيعي ان القصد من هذه التشكيلات كان الاستعداد للانتفاضة بالسلاح، والاستعانة بالجنود من ابناء العرب عند سنوح الفرصة. وقد فاتني ان اذكر

انه في اثناء المذاكرات التمهيدية وتأسيس الحزب في الاستانة فاتحت الملازمين مصطفى وصفي ومحي الدين الجيان في المشروع الذي نسعى اليه.

والحقيقة انه لم يرفض اقتراحي من الضباط الذين فاتحتهم في الأمر إلّا العدد القليل. ولما اتسعت الحركة وبدأت الثورة في الحجاز رأيت ان هؤلاء ايضاً قد تطوعوا للخدمة في جيش الشريف.

ولا ننسى ان البعض من ابناء العرب كانت لهم مناصب لا بأس بها، سواء اكان ذلك في الجيش أم خارجه، وان القسم الأعظم منهم ضحّوا بتلك المناصب، ولم يبالوا بعواقب الأمور وانضموا الى القضية العربية بلا تردد.

ومع الأسف بقي قسم لا يستهان به من الضباط العرب مناوئاً للحركة العربية لأسباب متعددة، وذلك اما نظراً الى علاقاتهم العائلية، أو طمعاً في المحافظة على مناصبهم، واندفاعاً وراء الشعور الديني، من غير ان يقفوا على حقائق الأمور، أو حذراً من عواقب الأمور فيما اذا فشلت الثورة.

ولا حاجة الى ذكر الأحزاب الأخرى التي تألفت في مختلف الأقطار في ازمنة مختلفة قبل اعلان الحرب العامة وبعد اعلانها.

واني اود ان اشير الى بعض الأحزاب على سبيل المثال لأنني لا اقصد بكتابة هذه الأسطر تدوين تاريخ مسهب انقل فيه الحوادث من المؤلفات المختلفة والروايات الشائعة، بل قصدي ان ابين مشاهداتي وشعوري الشخصي، لتكون افادة شاهد عيان لبعض القضايا العربية.

واني أخشى ان تكون هذه الافادة عرضة للنقد بالنسبة الى اختلاف الرأي والنظر عند الاشخاص، ولكن جل قصدي هنا الخدمة الصادقة للحقيقة والتاريخ.

وإذا ذكرت ونوهت بفضل بعضهم واهملت البعض الآخر ناسياً خدماتهم، اؤمل ان لا يفهم من ذلك انني اغمط حقوق البعض منهم، او اتعمد اهمالهم، او الغضّ من قيمتهم الوطنية. بل الواقع ان مرور السنين والأعوام، وضياع الوثائق والمستندات المفصلة من ايدينا هما سبب ذلك. ومعاذ الله ان يكون هناك اي سوء نية.

ومن الأحزاب التي ايقظت روح الحرية والفكرة العربية بصورة علنية وسرية الاعضاء العرب من حزب «الحرية والائتلاف» وحزب الاصلاح، وحزب الاستقلال (جمعية العربية الفتاة السرية)، وحزب اللامركزية في مصر.

وكان معظم هذه الأحزاب يرمي الى جمع كلمة العرب وصيانة حقوقهم ولم تكن تفكر في الافتراق عن جسم الدولة العثمانية، بل في ايجاد كيان سياسي للعنصر العربي، ومساواته بالعنصر التركي في جميع الحقوق، وجعله يدير شؤونه الداخلية على يد موظفين من ابنائه.

ولا شك في ان هذا كان يخيف الأتراك لأسباب عديدة أهمها كثرة نفوس العرب بنسبة عظيمة، حتى انهم كانوا اكثر عدداً من الترك انفسهم، والى اتساع شقة بلادهم، واستعدادهم الحربي وضآلة نفوذ الحكومة العثمانية عليهم، والى تقاليدهم التاريخية، ومدنيتهم السابقة التي كان الترك انفسهم من مقلديها.

فاحياء فكرة سياسية مثل هذه بين العرب كان في نظر الترك خطراً عظيماً على امبراطوريتهم الآخذة في الاضمحلال.

ولا ننسى أن وضع اليمن والحجاز ونجد وحتى القصيم كان وضعاً مستقلاً نوعاً ما عن المملكة رغم مرابطة القوات العسكرية العثمانية في أمهات المدن في هذه البلاد، فقد كانت سيطرة تلك القوات لا تتجاوز حدود المدينة نفسها. وفي كثير من الأحيان كانت القوات العسكرية العثمانية تصير مساعدة لبعض زعماء العرب ومنتقديهم.

ومن الأمثلة المشهورة بين الترك أن اليمن كانت مفيدة لأبناء الأناضول. وكثيراً ما كان الترك يحاولون اخضاع العرب بأبناء العرب أنفسهم. فقد كانوا يجمعون في الأفواج التركية عدداً لا يستهان به من أبناء العراق وسورية، ويزحفون بهم إلى القصيم ونجد واليمن وجبل الدروز وإلى مقاتلة الإدريسي. وفي كل هذه الوقائع نرى أن معظم الضباط والجنود كانوا من أبناء العرب وحتى من زعمائهم.

فمثلاً في حركات الإدريسي قبيل الحرب العظمى عندما أرسل سليمان شفيق باشا لاخضاع الحركة، أردف بقوات شريف مكة مع زعمائه ورجاله. كما أن في

الخلاف الذي كان قائماً بين ابن الرشيد وابن سعود في سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ أرسلت من بغداد قوات نظامية من أبناء العراق بقيادة ضباط عراقيين لمساعدة ابن رشيد ضد بن سعود، وقتلوا العرب بالعرب.

وعند تجريدهم حملة إلى جبل الدروز عهد بقيادة تلك الحملة الى سامي باشا الفاروقي العمري، وكان معظم الحملة مؤلفاً من أبناء العرب. وما كانوا يدعون أية فرصة إلّا وينتهزونها للإيقاع بين العرب، ليضربوا بعضهم بالبعض الآخر.

وما كان هذا الحال بغريب حتى عن العراق وإدارته، لأن معظم قوات الجيش العثماني فيه كان مؤلفاً من أبناء العرب، وكانت مهمة هذا الجيش مقاتلة القبائل العربية طوال السنة. ولا أتذكر في حياتي العسكرية في العراق أنه مرت عليّ واحدة دون أن أشترك بحركات عسكرية ضد القبائل العربية.

ولما كانت معلماً في مدرسة تعليم الضباط في حلب قبيل الحرب العظمى صادفت القول آغاسي[٣] أركان حرب رشيد بك الخوجة. والملازم عبد اللطيف الفلاحي، قادمين من بغداد في طريقهما إلى الأستانة، وفهمت منهما أنهما نقلا من بغداد بلا مسوّغ ولأسباب لا يعلمانها. وقلت لعبد اللطيف: «إلى متى نساق بالإكراه ونحن مقيدون» فنظر إليّ وسالت دموعه على خديه، وقال: آن أن يبدأ مجموعنا بأن يشعر مثل هذا الشعور يا جعفر». ثم افترقنا ونحن نتميز غيضاً من الحالة التي صرنا إليها. فذهبت إلى صديقي يحيى كاظم وقصصت عليه القضية فقال: يا جعفر ما لنا إلّا أن نثور، هيا بنا إلى الثكنة لنبدأ بحبس من لا يتفق معنا ونعلن استقلالنا.

ولم يكن في إمكاني إلّا أن أقول له ما ينبغي لمثلي أن يقوله لصديق متأثر في مثل هذا الموقف: «حبذا يا أخي، ستصير الأمور إلى ما ترومه إنشاء الله».

ولا شك في أن الشعور والأفكار التي كانت تساورنا أيضاً عدداً كبيراً من رجال الأمة العربية من ضباط وغيرهم من مختلف الطبقات في سائر الأقطار العربية. لأنه لم تكن في نظرنا أية قيمة للتقسيمات الإدارية في البلاد العربية لا سيما وأن اللغة والدين

---

(٣) «قول آغاسي» رتبة عسكرية تركية تقابل رتبة «رائد» الحالية.

والعادات والتقاليد كانت تجمعنا في صعيد واحد. وكان كل منا يقدر معنى كلمة العرب ومضمونها. وكنا نعلم أيضاً أن التعصب لأيالة أو منطقة من البلاد العربية ليست سوى دعاية استعمارية يراد بها تفريق كلمتنا، تسهيلاً لنشر النفوذ الأجنبي على بلادنا العزيزة.

وكل فكرة من هذا القبيل هي بلا شك فكرة مسمومة خداعة لا يراد بها أي خير للبلاد العربية.

لم ينقض زمن طويل على تأليف هذه الجمعيات إلا ونشبت الحرب العظمى، فأغتنم رجال جمعية الأتحاد والترقي الذين كانوا على دست الحكم حينئذ تلك الفرصة وبذلوا كل ما في وسعهم للقضاء على هذه الجمعيات لاجئين إلى الشنق، والاغتيال، والابعاد، والحبس، والتجويع، وغير ذلك من وسائط الأرهاق التي لا تخطر ببال.

وكانوا يتوهمون أنهم يتمكنون بهذه الأساليب من قمع الحركة العربية وحمل العرب على الرضوخ إلى حكم ينافي طباعهم وأمانيهم المشروعة. ولكن برغم كل ما عمله الترك كانت المناشير السرية، والأناشيد والقصائد الحماسية، تنشر وتقلى على مقربة من مراكزهم وهم في مقرات أعمالهم.

وأذكر أن المرحوم الملك فيصل ذكر لي أنه قابل جمال باشا، قائد الفيلق الرابع ووزير البحرية العثمانية، في دمشق قبيل ثورة العرب، ورجاه عن لسان أبيه المرحوم الملك حسين أن يكف عن إيذاء العرب ورجالهم البارزين لأنهم جميعاً مخلصون للخلافة العثمانية، فأجابه جمال باشا على ذلك بسخرية وإزدراء قائلاً: (لينجو أبوك بنفسه أولاً ثم ليشفع لغيره).

وكانت هذه الكلمة وحدها كافية لأن يقطع الملك فيصل كل أمل في الحكومة العثمانية. ولم يلبث أن أنسحب خلسة من دمشق، برفقة أبناء البكري، وأعقب ذلك نشوب الثورة العربية في الحجاز.

وإني مورد فيما يلي بعض القصائد والمناشير والأناشيد كذكرى لما كان يحلم به العرب في تلك الأيام[٤]:

---

(٤) لم تدّون في الأصل.

وكان العرب قد فكروا حقيقة على أثر إعلان الحرب العامة في أن يؤآزروا الدولة العثمانية. ويؤجلوا النظر في قضيتهم إلى ما بعد الحرب. ولكن سلوك جمعية الاتحاد والترقي غيرّ كثيراً من أفكارهم، ولا سيما بعد ان شرع جمال باشا في شنق رجالهم بدون رأفة وإنصاف. وقد منيت سورية من هذه الناحية بخسارة معظم رجالها، لا سيما من المسلمين، فتضررت بذلك مع باقي الأقطار العربية، وهي لا تزال تعاني مع الأسف أضرار فقد أولئك المفكرين إلى يومنا هذا لأن جمال أباد الفئة المنورة بالشنق، والأبعاد، والسوق إلى الخطوط الأمامية، وأرهب البقية الباقية منهم خيفة الجوع أو التشتت في الأقطار النائية.

والواقع أن عدداً كبيراً من مفكري سورية لا يزال مبعداً عن وطنه نظراً إلى وضعها السياسي الراهن، وعدم إذعان سياسة فرنسة الاستعمارية إلى ما قررته هي نفسها في مؤتمر سان ريمو فيما يتعلق بالانتدابات، وترك الحرية لأهل البلاد في تقرير مصيرهم.

ويتضح مما تقدم أن حركة الشريف لم تقم بناء على طمع في مال، أو على إغراء الأنكليز، كما يدعيه بعض مريضي العقول والذين لا يعلمون شيئاً عن القضية العربية.

إن الفكرة العربية بين الشبان ـ ولا سيما المثقفين منهم ـ كانت ولم تزل ترمي إلى غاية واسعة وكبيرة وهي لا تنحصر في جمع شتات سكان جزيرة العرب بما فيها سورية والعراق، بل إنما تجتاز قنال السويس، وتسير حتى تصل المحيط الأطلسي، شاملة كافة الأقطار الناطقة بالضاد من مراكش وتونس والجزائر وطرابلس ومصر والقسم الجنوبي العربي لهذه المناطق.

إنهم يقدرون صعوبة تحقيق هذا الخيال في الوقت الحاضر، ولكنه لا يرضون بديلاً عن تأليف هذه الأمبراطورية في ساحة خيالاتهم وآمالهم.

ولا نعلم كيف تتكون الأحوال العالمية في السنين القادمة لتمكننا من تحقيق غاياتنا شيئاً فشيئاً.

ومن رأيي الآن أن يشتغل كل قطر من الأقطار العربية بقدر طاقته، ويبذل

جهده لتثقيف أبنائه ثقافة عصرية تنمّي فيها الروح العربية، وتجعله عضواً نافعاً قديراً على الأتيان بعمل مفيد في بناء الجامعة العربية المقبلة وهذا لا يعني إنماء المشاعر، والإنهماك في النظريات فقط، بل السعي لاكتساب العلم الصحيح النافع من الوجهة العملية، وأعني بذلك اكتساب العلوم والفنون والصنائع على اختلاف انواعها التي تمكننا من القيام بنهضتنا العربية كاملي العدّة، وأن تكون بلادنا من البلاد المنتجة، لنتمكن من القيام بتأليف المؤسسات المقتضية لتغذيتها وحفظ كيانها من الطوارىء الداخلية والخارجية. وأن نعتني كل الاعتناء بتسهيل التفاهم بين مختلف الطبقات في جميع أنحاء البلاد العربية، وذلك بالسياحات والتجولات، وبتبادل الآراء وجعل المسؤولين والقادة والأمراء والملوك يتقربون من بعضهم وإن تتفاهم الحكومات الوطنية المسيطرة على هذه البلاد وتعقد الاتفاقيات والمعاهدات تمهيداً لتأليف جبهة عربية قوية. ولا يمنع هذا من ان يتمتع كل قطر من الأقطار على حدة بجميع مميزاته وشؤونه الداخلية، على أن تشترك في بعض المصالح الهامة التي تمس الجميع، كرفع الحواجز الكمركية بقدر الإمكان وتوحيد مناهج التدريس في المدارس تسهيلاً لتوحيد الثقافة. وكذلك توحيد التدريب العسكري والأسلحة والتجهيزات العسكرية الأساسية وتوحيد المقاييس والمكاييل والعملة... الخ.

وبعد ذلك تأتي الخطوة الثانية، وهي وضع اتفاقيات مختلفة تؤمن توحيد السياسة الخارجية والعسكرية بين هذه الأقطار على صورة تجعلها متحدة اتحاداً يشبه أحد أنواع الاتحادات التي تربط الولايات المتحدة أو الاتحاد السويسري واتحاد الامبراطورية الألمانية. مع مراعاة الاعتبارات والعادات والعنعنات السائدة في هذه الأقطار، والتي لا يمكن التغلب عليها إلاّ مع الزمن.

مُختصر سيرة جعفر العسكري منذ توقف مُذكراته إلى وفاته

لو قدر لجعفر العسكري أن يواصل تدوين مذكراته عن السنوات التالية، أو لو وجد نوري السعيد متسعاً من وقته لإكمالها، لحفلت هذه المذكرات بمعلومات وافرة وغنية. ولألقت على تاريخ العراق أضواء على جانب كبير من الأهمية، لأن جعفر العسكري رافق منذ ذلك الوقت أحداثاً خطيرة وحاسمة في تاريخ العراق الحديث.

ولكن جعفر العسكري لم يكمل تدوين مذكراته، ويتوقف ما بين أيدينا منها في الفصل الذي تحدث فيه عن تعيينه حاكماً عسكرياً لحلب في سنة ١٩١٩، وعن أعماله فيها. ولم يبق جعفر العسكري في حلب أكثر من سنة واحدة. وفي ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ تقرر إلغاء منصب الحاكم العسكري في حلب، فعاد جعفر العسكري إلى دمشق وأصبح مستشاراً عسكرياً للملك فيصل. وفي هذه الأثناء كانت الأوضاع في العراق مضطربة، وعشائر الفرات الأوسط بدأت ثورتها ضد الاحتلال البريطاني، فلما حلّ الصيف انتشرت الثورة في جميع أنحاء البلاد. وكان جعفر العسكري، وهو في سورية، يتابع أحوال العراق وتطور الأمور فيه بكثير من الاهتمام بطبيعة الحال. وكان، مع بعض زملائه من الضباط العراقيين الموجودين في سورية، مثل مولود مخلص وعلي جودة، قد كتب إلى السلطات البريطانية يطالبها بالوفاء بالوعود التي قطعتها بريطانية للعرب، ومنها قيام حكومة وطنية في العراق.

وكان السر آرنولد ويلسن، نائب المفوض المدني في العراق. والحاكم بأمره في البلاد يتهم حكومة فيصل في سورية، والعراقيين المحيطين به في دمشق، بتحريض

الشعب العراقي على الثورة، وتعضيد عجيمي باشا السعدون الذي كان يتعاون مع الأتراك في مقاومة الانكليز.

ولكن الحكومة البريطانية أدركت أن السياسة التي يتبعها ويلسن كانت فاشلة، وأن تلك السياسة، وليس تحريضات العراقيين في سورية، هي التي أدت إلى تدهور الأوضاع في العراق، يضاف إلى ذلك أن الرأي العام البريطاني كان مستاء من النفقات الباهظة التي يتكبدها دافع الضريبة البريطاني من أجل إبقاء قوات كبيرة في العراق، فضلاً عن مقتل الكثيرين من أعضاء تلك القوات، لذلك وجدت الحكومة البريطانية من الضروري إعادة النظر في سياستها في العراق. وتمهيداً لذلك تقرر نقل السر آرنولد ويلسن وتعيين السر برسي كوكس مفوضاً مدنياً في العراق ليعالج الأمور بما أتصف به من حكمة وبعد نظر وليؤسس في العراق حكومة عربية موقتة، ريثما يبت في مستقبل العراق السياسي بصورة نهائية.

وكان السربرسي كوكس قد تولى هذا المنصب منذ الاحتلال البريطاني، ولكنه نقل إلى طهران في نيسان (ابريل) من عام ١٩١٨ وأصبح وزيراً مفوضاً لبريطانية في إيران. فلما تقررت إعادته إلى العراق قوبلت عودته، والتخلص من آرنولد ويلسن، بإرتياح نسبي وكان كوكس خلال خدمته السابقة في العراق معروفاً باعتداله مما جعل الشعب العراقي يكنّ له شيئاً من الحب والاحترام. واستبشر قادة الرأي في العراق بأنه سيعمل على انهاء الثورة التي كبّدت البلاد ضحايا كثيرة، وسيعيد إلى البلاد شيئاً من الهدوء والاستقرار. وقد غادر برسي كوكس طهران وذهب إلى لندن أولاً لمباحثة حكومته في السياسة التي سيتبعها في العراق.

وفي هذه الأثناء كانت الأزمة بين الملك فيصل في سورية والفرنسيين قد اشتدت وأرسل الملك فيصل جعفر العسكري إلى مصر لمقابلة الجنرال آللنبي وإطلاعه على حقيقة الأوضاع في سورية[1].

وفي أول تموز (يوليو) بعث الجنرال آللنبي البرقية الآتية إلى بغداد:

---

(١) ساطع الحصري، يوم ميسلون، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٩٥٦.

«من اللورد آللنبي (الاسكندرية) ١ تموز ١٩٢٠
الرقم ٦٣٨

«ان الجنرال جعفر العسكري الذي قدم خدمات عظيمة مع قواتي في الحملة على سورية، والذي أثق فيه ثقة تامّة، قد عرض أن يستقبل من منصبه كجنرال في جيش الأمير فيصل، ويتوجه إلى بغداد لإزالة سوء التفاهم بشأن موقف حكومة فيصل من الإدارة البريطانية في العراق. والمساعدة في تصفية الجوّ فيما يتعلق بعجيمي السعدون. وقد صرّح بأن عجيمي لم يتلقّ أية مساعدة أو تحريض من حكومة فيصل التي ليست لها سيطرة عليه. ولكنه جمع أعداداً من البغداديين في الجيش التركي ممن لم يجدوا عملاً في مكان آخر. ان جعفر باشا الذي هو بغدادي أيضاً، يتعهد بالإتصال بأمثال هؤلاء الضباط واستخدامهم في الإدارة العراقية.

«إنني أوصي بشدة أن يدعى جعفر باشا إلى بغداد بأسرع ما يمكن، ولا أشك في أنه سيكون عوناً كبيراً لنا، فهل تتفقون معي في هذا؟».

«معنونة إلى بغداد. مكررة إلى وزارة الخارجية ـ لندن[٢].

ولما وصلت هذه البرقية إلى لندن علقّ عليها «هيوبرت يونغ» في وزارة الخارجية بالعبارة الآتية:

«أخشى أن لا تعود زيارة جعفر باشا إلى بغداد بأية فائدة طالما كان السر آرنولد ويلسن موجوداً فيها»[٣].

ومن بغداد كتبت غرترود بل ـ السكرتيرة الشرقية في إدارة الاعتماد ـ في رسالتها المؤرخة في ٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠:

«هنالك نقطة مضيئة واحدة ـ برقية من آللنبي يحثّ فيها أن ندع جعفر يأتي ويشرح موقف حكومة فيصل. وقد أعطاني ويلسن إياها فقلت له أنني اعتبرها منزلة

---

(٢) Lord Allenby (Alexandria) to F. O., F. O. 371/5227 (E 7675), I July 1920.

(٣) المصدر نفسه.

من السماء. ان قضية سورية كانت أساس المشكلة، وإننا لن نحقق تقدماً ما لم نتوصل إلى اتفاق مع فيصل ونعامله معاملة الرجل للرجل. وان وجود جعفر باشا بيننا هنا متداخلاً معنا تداخلاً وثيقاً ـ وهو سيكون كذلك مع الكابتن كلايتن ومعي ـ سيقضي على الدعاية المناهضة لبريطانية التي كان فيصل معارضاً لها على الدوام.

«كان جعفر يكتب إليّ طيلة الشتاء الماضي مستفسراً فيما إذا كان بإمكانه المجيء ولكن ويلسن لم يسمح لي بتشجيعه. وعلى أي حال ماذا كانت فائدة تشجيعه على المجيء ثم تجاهله، وقد كنت واثقة من ذلك»[٤].

وعلى أثر إنهيار الحكم العربي في سورية أجبر الفرنسيون فيصلاً على مغادرة البلاد، وكان جعفر العسكري ضمن الحاشية الصغيرة التي رافقته في خروجه. واتجه فيصل إلى فلسطين قاصداً مصر ومنها إلى أوروبا حيث كان سيعرض قضيّته على دول الحلفاء.

ولما تقررت عودة السربرسي كوكس إلى العراق فكر في الاستفادة من بعض الشخصيات العراقية في معالجة الأمور وتحسين الأحوال بعد أن كان سلفه يتجاهلهم. ونظراً لمكانة جعفر العسكري وسمعته في الأوساط العراقية والبريطانية، وما عرف عنه من كياسة وعقلية عمليّة وحسن تقدير للأمور، وجد من المفيد أن يستدعيه للاشتراك في الحكومة الموقتة التي سيؤسسها في العراق. وبينما كان جعفر مع فيصل في حيفا وصلت برقية من السربرسي كوكس يطلب فيها إرساله إلى العراق، فوافق فيصل على سفره، وانفصل جعفر عن حاشية فيصل في بورت سعيد متجهاً إلى العراق. وكان الطريق الوحيد الذي يمكن سلوكه في ذلك الوقت هو طريق البحر، فركب جعفر العسكري الباخرة (موريا) التي كانت متجهة إلى البصرة عن طريق قناة السويس والبحر الأحمر وسواحل الجزيرة العربية فالخليج العربي.

وقد صادف أن كان على ظهر الباخرة (موريا) مع جعفر العسكري المستر غاربت، وهو أحد الرجال الذين عيّنوا للعمل مع السربرسي كوكس في العراق (وقد

---

(٤) Burgoyne, Elizabeth, **Gertrude Bell From Her Personal Papers, 1914 - 1926**, Ernest Benn ltd, London, 1961, P. 145.

أصبح فيها بعد مستشاراً لوزارة المالية). وقد أتاحت هذه السفرة البحرية الطويلة لجعفر العسكري وغاربت الفرصة لأحاديث كثيرة ولتبادل الآراء في مستقبل العراق السياسي. وكتب غاربت تقريراً إلى وزارة الهند عن آراء جعفر العسكري في أوضاع العراق ومستقبله السياسي، كما فهمها من محادثاته معه.

ويفهم من هذا التقرير أن جعفر العسكري أبدى لغاربت اعتقاده بأنه حالما يصل السربرسي كوكس إلى العراق ويعلن عن اعتزامه تأليف حكومة عربية، فان العراقيين سيبتعدون عن عجيمي باشا السعدون. وأن هذه الدولة العربية يمكن إدارتها بمساعدة بريطانية، وأن الاضطرابات ستنتهي حينها تعلن الحكومة البريطانية عن نياتها. وقد أعرب جعفر العسكري عن استعداده للمساعدة(٥).

ووصل جعفر العسكري إلى بغداد في ٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٠، فكان وصوله فاتحة عهد جديد في حياته ونضاله، حيث بدأت فترة مساهمته في تأسيس الحكومة الموقتة، وتتويج فيصل ملكاً على العراق تحت الانتداب البريطاني ثم الاعتراف بالعراق دولة مستقلة مرتبطة ببريطانية بمعاهدة تحالف.

وكان السربرسي كوكس قد وصل إلى بغداد قبل جعفر العسكري بأسبوعين تقريباً. وتمكن من إقناع السيد عبد الرحمن، نقيب أشراف بغداد، بقبول رئاسة الحكومة الجديدة التي تمّ تأليفها بعد وصول جعفر العسكري ببضعة أيام، وعينّ العسكري وزيراً للدفاع فيها، فقبل الاشتراك بعد شيء من التردد. وتذكر مس بل أن جعفر العسكري زارها وسألها عن رأيها فيما إذا كان سيحطم سمعته الوطنية بقبوله الوزارة التي سينظر إليها الشعب كألعوبة بيد بريطانية، وتقول: «أمسكت بخناقه ـ معنوياً ـ وهززته. ان ثقة أولئك الذين حاربوا مع فيصل في سورية قد تزعزعت إلى حدّ بعيد بسبب ما يعتبرونه (ولهم بعض الحق في ذلك) تخلياً منّا عن فيصل، وإننا الآن نبدأ في العراق من موقف ضعيف. ان جعفر هو أول عراقي يعود من سورية، وعلى موقفه سيتوقف الكثير»(٦).

---

(٥) C. C. Garbett, On S. S. Morea to Montague In India Office, F. O. 351/5231 (E 12841) 24 September 1920.

(٦) Burgoyne, OP. P. 175.

وفي أول وزارة للدفاع في الحكومة العراقية الموقتة بدأ جعفر العسكري مهمّته الكبيرة والدقيقة في تأسيس الجيش العراقي. وكان مقرّ وزارة الدفاع في بداية تأسيسها يتألف من عشرة ضباط فقط، وكانت وزارة دفاع بلا جيش.

وقد استعان جعفر العسكري في تأسيس الجيش الجديد بالضباط العرب الذين خدموا في الجيش العثماني والعربي والذين أخذوا يعودون إلى العراق. وعلى الرغم من أنه استعان ببعض الخبراء البريطانيين أيضاً فأنه كان شخصياً الموجّه الرئيسي لهذه العملية بما لديه من خبرة عسكرية عملية ونظرية ممتازة. وقد وضع للجيش العراقي أسساً راسخة وتقاليد قويمة ما تزال باقية حتى الآن وكانت جميع التوسعات التالية امتداداً لها، حتى أصبح جعفر العسكري يسمّى أبا الجيش العراقي، وقد أشار إلى ذلك السفير البريطاني في بغداد في أحد تقاريره[٧]. كما ذكره عنه ياسين الهاشمي بعد مقتله خلال مقابلة له مع دبلوماسي بريطاني في بيروت[٨].

وفي سنة ١٩٢١ قررت الحكومة البريطانية أن تعهد بإدارة الأقطار العربية تحت الانتداب البريطاني إلى وزارة المستعمرات، وبذلك انتقلت إدارة العراق من اختصاص وزارة الهند إلى هذه الوزارة. ونقل المستر ونستن تشرشل الذي كان وزيراً للحرب إلى منصب وزير المستعمرات فكان من أوائل أعماله في هذه الوزارة تأسيس إدارة تختص بشؤون الشرق الأوسط، كما قرر عقد مؤتمر في القاهرة لبحث مستقبل الأقطار المنسلخة عن الدولة العثمانية بعد الحرب والتي أصبحت تحت الانتداب

---

(٧) F. O. 371/17869 (E 08850) 26 July 1934.

(٨) على أثر انقلاب بكر صدقي الذي أطاح بوزارة ياسين الهاشمي وقتل فيه جعفر العسكري، غادر الهاشمي بغداد وأقام في بيروت وبعد الانقلاب بثلاثة أسابيع سافر المستر تشارلز بيتمان، مستشار السفارة البريطانية في بغداد، إلى لبنان بإجازة، وانتهز فرصة وجوده في بيروت فطلب مقابلة ياسين الهاشمي وأجرى معه حديثاً هاماً. ولدى عودته إلى بغداد قدم إلى السفير تقريراً عن هذه المقابلة وما دار خلالها من حديث مع ياسين عن الانقلاب، وجاء في إحدى فقراته ما يأتي:

«... وأعرب ياسين عن أشدّ أسفه للطريقة التي قتل بها جعفر، وقد أوضح لي أن جعفر كان دائماً يعدّ الجيش طفله الخاص، وقد شعر شعوراً شديداً بأن الانقلاب لطّخ سمعته الطيبة هو أيضاً، وأضاف أن جعفر لم يفتقر إلى الجرأة البدنية، وإنه كان يفعل الشيء نفسه حتى لو علم أنه بفعله هذا إنما يخاطر بحياته...»

F. O. 371/20015 (E 7917), 9 December 1936.

البريطاني. وقد حضر هذا المؤتمر مع تشرشل لورنس الذي كان قد أصبح مستشاراً لـه، والسر هيوبرت يونـغ، والسر آرنولـد ويلسن، بصفتـه الشخصيـة، لغـرض الاستفادة من خبرته السابقة في العراق، وجاء من فلسطين السر هربرت صموئيل، المندوب السامي البريطاني. أما الوفـد القادم من العـراق فكان بـرئاسـة السربـرسي كوكس، ومعه الجنرال إيلمر هالدين، قائد القوات البريطانية في العراق، ومس بل، السكرتيرة الشرقية لدار الاعتماد في بغداد. وألحق بالوفد وزيران عراقيان في الحكومة الموقتة هما جعفر العسكري وزير الدفاع، وساسون حسقيل، وزير المالية.

وكانت المواد الرئيسية المتعلقة بالعراق في برنامج المؤتمر تتضمن مسألـة خفض النفقات العسكرية البريطانية فيـه، وتعيين مستقبـل الحكم واختيار أحـد المرشحـين لعرش العراق، وطبيعة القوات التي ينبغي تأسيسها للدفاع عن الدولة الجديدة.

وتقرر في المؤتمر خفض النفقات البريطانية في العراق عن طريق الاستعانة بالقوة الجوية بدلاً من الجيش في حماية العراق والمصالح البريطانية فيه ـ وكان هذا اقتراحاً تقدم به لورنس ـ وتكوين جيش عراقي مؤلف من خمسة عشر ألف مقاتل، كما تدارس المؤتمر وضع المناطق الكردية وعلاقاتها بالحكومة العراقية(٩).

وفي مؤتمر القاهرة أيضاً تقرر ترشيح فيصل ملكاً للعراق. فلما عـاد الوفـد إلى بغداد بدأت الاستعدادات للدعوة إلى انتخابه وأسهم فيها جعفر العسكري مساهمـة فعالة، وعمل جاهـداً للحصول عـلى أوسع تـأييد لتـرشيح فيصـل. فلما تم تتويجـه استقالت وزارة السيد عبد الرحمن النقيب لإفساح المجال للملك باختيار الوزارة التي يريدها. فعهد إليه الملك فيصل بتأليفها مرة أخرى، ودخلها جعفر العسكري وزيراً للدفاع أيضاً (في ١٠ أيلول/سبتمبـر ١٩٢١) كما استبقى في هـذا المنصب في وزارة النقيب الثالثة التي تألفت في ٣٠ أيلول سنة ١٩٢٢.

ولما تقرر عقد مؤتمر لوزان للمذاكرة في موضوع الصلح مع تـركية تقـرر ندب جعفر العسكري إلى لندن لحضور جلسـاته. وفي ٦ تشـرين الثاني (نـوفمبر) ١٩٢٢

---

(٩) محاضر المؤتمر في وثائق وزارة الخارجية البريطانية F. O. 371/6350.

صدرت إرادة ملكية بتعيينه مندوباً بصورة موقتة من قبل الحكومة العراقية إلى لندن لمعاونة وزير المستعمرات على إحضار المواد المتعلقة بالعراق لمؤتمر الصلح مع تركية (الذي سيعقد في لوزان) وحضور المؤتمر مع ممثل الحكومة البريطانية عندما يدور البحث في الشؤون المتعلقة بالعراق.

وبعد تأجيل جلسات المؤتمر سافر جعفر العسكري إلى لندن بصفة ممثل للعراق ومنح لقب «وكيل دبلوماسي» (Diplomatic Agent) لأن العراق كان لا يزال غير معترف به دولياً ولم يكن له حق تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الدول الأخرى على مستوى الوزراء المفوضين أو السفراء. وبقي جعفر العسكري في لندن حتى أيلول ١٩٢٣، ثم عاد إلى العراق وعين متصرفاً للواء الموصل وقائداً للقوات العسكرية فيها.

واستقالت وزارة السيد عبد الرحمن النقيب (الثالثة) في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ فخلفتها وزارة عبد المحسن السعدون التي استمرت حتى تشرين الثاني ١٩٢٣، فلما قدم السعدون استقالته عهد الملك برئاستها إلى جعفر العسكري.

وبقيت وزارة العسكري الأولى في الحكم ما يقرب من تسعة أشهر عالجت خلالها أموراً خطيرة في المجالين السياسي والعسكري، وعلى رأسها انتخاب المجلس التأسيسي، وقضية المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٤. واستقال جعفر العسكري في ٣ آب سنة ١٩٢٤ فخلفه في رئاسة الوزراة ياسين الهاشمي وعين جعفر العسكري ممثلاً دبلوماسياً للعراق في لندن مرة أخرى.

ولما استقالت وزارة ياسين الهاشمي في حزيران (يونيه) ١٩٢٥، خلفتها وزارة السعدون الثانية. وفي أواخر عهد هذه الوزارة تأزم الموقف الداخلي بين الوزارة ومجلس النواب الذي كان يسوده التشتت الحزبي الموزع بين (حزب التقدم) و (حزب الشعب) و (حزب الوسط) واخفقت الوزارة في انتخاب مرشحها (حكمت سليمان) لرئاسة المجلس، فأصرّ السعدون على حل البرلمان الذي وجد إنه لا يتمتع بثقته. ولكن الملك فيصل لم يوافق على ذلك فاستقال عبد المحسن السعدون في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٦، فأبرق الملك فيصل إلى جعفر العسكري البرقية الآتية:

«بناء على استقالة الوزارة وتوصية رؤساء الأحزاب رشحتكم للرئاسة. تحركوا حالاً بأقصى طريق وأفيدونا».

ورحل جعفر العسكري إلى بغداد في ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٦ واسندت إليه رئاسة الوزارة وتمكن بلباقة وخفة روحه من التوفيق بين الكتل المتضاربة. فقصد بناية حزب (التقدم) الذي كان يتمتع بأغلبية كبيرة في المجلس وخطب في أعضائه طالباً الانضمام إلى حزبهم فقال:

«أنا منكم، فان أخرجتموني من الباب دخلت إليكم من الشباك».

فرحب به أعضاء الحزب، وهكذا تمكن من حل عقدة الموقف السياسي، وخرج بأول وزارة ائتلا فيه في تاريخ الوزارات العراقية[١٠].

وكانت السياسة التي تبناها جعفر العسكري في وزارته الثانية تقوية الجيش واستكمال سيادة العراق عن طريق التفاوض، والتمهيد للاتحاد العربي الذي كان يرى أنه يجب أن يقوم على أساس (فدرالي) بين الأقطار العربية المختلفة.

وكان جعفر العسكري منذ توليه وزارة الدفاع للمرة الأولى يرغب في تحقيق مبدأ (التجنيد الأجباري) وقد حاول خلال رئاسته للوزارة للمرة الأولى عام ١٩٢٤ وعند مناقشة الدستور ان يدخل فيه مادة يجعل الخدمة العسكرية الزامية. ولكن هذا الاقتراح قوبل باعتراضات من شيوخ العشائر، فضلاً عن عدم إرتياح الجهات البريطانية له. فلما ألف وزارته الثانية عام ١٩٢٧ قدم «لائحة قانون التجنيد الأجباري» إلى المجلس، فقوبل مرة أخرى بمعارضة داخلية وبريطانية.

وكانت المعارضة الداخلية قائمة على اعتبارات سياسية، وكانت تعكس الوضع الدقيق لكيان البلاد السياسي ـ الاجتماعي في تلك الفترة. أما بريطانية فلم تكن لها في البداية سياسة معينة تجاه القضية، ولكن حينما تألفت في وزارة الدفاع لجنة لصياغة مشروع التجنيد الأجباري علق أحد موظفي وزارة المستعمرات على الموضوع قائلاً: «أن فكرة التجنيد الأجباري تأتي مناقضة لجميع تقاليدنا...»

---

(١٠) خيري العمري، **شخصيات عراقية**، بغداد، ١٩٥٥، ص ٩٢.

ومن الجدير بالذكر أن بريطانية كانت معارضة للتنجيد الأجباري في حكومة فيصل في سورية أيضاً حينها حاول ياسين الهاشمي وجعفر العسكري ـ بتأييد من فيصل ـ إدخاله في سورية.

وقد اعترض المندوب السامي، السر هنري دوبز، على المشروع الذي تقدم به جعفر العسكري وأبدى في رسالة سرية إليه أن بريطانية مستعدة لاستخدام قواتها في دعم الحكومة العراقية في حالة ظهور معارضة أو اضطرابات بسببه. وقد أيد المفتش البريطاني للجيش العراقي الجنرال دايلي رئيس الوزراء في مشروعه واستقال من منصبه احتجاجاً على موقف حكومته، فاتسعت الهوة بين دار الاعتماد والوزارة، وكذلك بين الملك فيصل والمندوب السامي، فرفع جعفر العسكري، شكوى إلى الحكومة البريطانية بواسطة ممثل العراق في لندن، مزاحم الباجه جي، وهدد بالإستقالة.

ولما عرضت الوزارة مشروع (قانون الدفاع الوطني) على مجلس النواب إستقال بعض الوزراء المعارضين له لأسباب متنوعة، صريحة وخفيه، واشتدت معارضة المندوب السامي، فاستقال جعفر العسكري من رئاسة الوزارة، في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨، وأعيد تعيينه ممثلاً للعراق في لندن مرة أخرى.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ عين جعفر العسكري وزيراً مفوضاً في طهران، ولكنه قبل أن يباشر مهام هذا المنصب اشترك وزيراً للدفاع في وزارة نوري السعيد الأولى في آذار ١٩٣٠، كما عين عضواً في مجلس الأعيان، ولكنه استقال من مجلس الأعيان في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٠ على أثر انتخابه نائباً عن بغداد، وفي أول تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ انتخب رئيساً لمجلس النواب. ولم يلبث أن ترك رئاسة المجلس في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) فعاد وزيراً مفوضاً في لندن في كانون الثاني ١٩٣١، ثم شغل منصب وزير الخارجية والدفاع في وزارة نوري السعيد الثانية (تشرين الأول ١٩٣١) ثم أصبح رئيساً لمجلس النواب للمرة الثانية، ولكنه استقال من الرئاسة بعد بضعة أيام وتولى وزارتي الدفاع والخارجية وبقي يشغل هذين المنصبين إلى ان استقالت الوزارة في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٢.

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٢ عاد إلى لندن وزيراً مفوضاً وبقي فيها حتى ديسمبر سنة ١٩٣٤، ثم عاد إلى بغداد على أثر تعيينه عضواً في مجلس الأعيان.

وكان جعفر العسكري اثناء وجوده في بغداد يرغب في دراسة القانون وقد حضر بعض الدروس في كلية الحقوق العراقية فعلاً، فلما ذهب إلى لندن انتهز هذه الفرصة لمواصلة دراسة القانون، فانتمى إلى «غريز ان» (Gray's Inn) وحصل منها على إجازة المحاماة (باريستر). وكان ذلك بطبيعة الحال بدافع من رغبته في الاستزادة من العلم، وتطوير ثقافته، ولم تكن به حاجة إلى الشهادة بعد أن وصل إلى أعلى المناصب في الجيش والدولة وأصبح رئيساً للوزراء مرتين[١١]. وقد ألقى جعفر العسكري خلال إحدى زياراته إلى بغداد محاضرة عن (القضاء الانكليزي) طبعت فيما بعد في كراسة خاصة[١٢].

وفي ١٧ آذار ١٩٣٥ ألف ياسين الهاشمي وزارته الثانية فاشترك فيها جعفر العسكري وزيراً للدفاع، وكانت هذه المرة الخامسة والأخيرة التي يتولى فيها وزارة الدفاع التي أسسها وأحبها وتولاها أكبر عدد من المرات بين من تولوا هذه الوزارة.

وفي أواخر سنة ١٩٣٦ فاجأ بكر صدقي وزارة الهاشمي بانقلابه المعروف، فقرر جعفر الخروج لمقابلة القطعات الزاحفة على بغداد. وكان واثقاً من إنه سيستطيع بتأثيره الشخصي أن يثنيها عما تعتزمه، ويحبط محاولة بكر صدقي، معتمداً على ما يمكنه الضباط له من محبة واحترام. ولكن بكر صدقي كان يعرف ذلك

---

(١١) كتب المستر أ. م. لانغدن، مدير الدراسات القانونية في المحاكم البريطانية إلى جريدة التايمس على أثر مقتل جعفر العسكري ما يأتي:

«أصبح جعفر باشا، على أثر وصوله إلى لندن وزيراً مفوضاً للعراق، طالباً في كلية (Inner Temple)، وتخرج محامياً، كما ورد في نعيكم. وقد نجح على الرغم من صعوبات التقدم في السن، والدراسة بلغة أجنبية، تلك الصعوبات التي أدركها وتغلب عليها بما لديه من قدرة غير اعتيادية على التركيز.

وكان طموحه، كما أخبرني، أن يدخل إلى العراق ويؤسس فيه «مبادىء القانون العام والعدالة البريطانية» ولما ابديت في إحدى المرات ان خدماته تبرر منحه درجة علمية قانونية فخرية، كان جوابه أنه يرغب في الحصول على ذلك الشرف بجهوده، الشخصية وعمله. وقد أجريت معه مباحثات كثيرة، فكان رجل دولة بعيد النظر وصديقاً وفياً لبريطانية».

Mr. A. M. Langdon, K. C. Director of Legal Stjdies, Inns of Court, In a Letter to the editor of the Times, **The Times,** November 4, 1936.

(١٢) **معلومات مجملة عن القضاء الانكليزي**، محاضرة لجعفر باشا العسكري ألقيت في قاعة الثانوية المركزية في بغداد، مطبعة العهد، بغداد، ١٩٣٤ (كراسة في ٢٤ صفحة، ثمن النسخة ٢٠ فلساً).

أيضاً، فلما بلغه خروج جعفر أرسل إليه من يقتله قبل وصوله إلى مقر القوات خارج بغداد. وهكذا انتهت حياة الرجل بصورة روائية. كما بدأت، وكما كانت في معظم مراحلها. وكان جعفر العسكري يوم مقتله في الحادية والخمسين من عمره.

وقد أحدث مقتل جعفر العسكري صدى كبيراً في العراق وخارجه، وزعزع كيان وزارة حكمت سليمان التي جاءت بها الحركة الانقلابية من يومها الأول. وقد تم مقتل جعفر العسكري بدون علم حكمت سليمان، فلما سمع به نفض يده من تأليف الوزارة، ولكنه اضطر إلى قبولها فيما بعد نزولاً عند الحاح رستم حيدر الذي قال له: «كيف تتراجعون عن تأليف الوزارة بعد أن أوصلتم الأمور إلى هذا الحد؟ ومن الذي يستطيع تأليف الوزارة في هذه الظروف؟ وكيف تصبح حالة البلاد إذا بقيت بلا حكومة بعد هذه الحركات؟»[١٣].

ودون السفير البريطاني في بغداد في تقريره السنوي عن أحداث عام ١٩٣٦ ما بلغه من معلومات عن مقتل جعفر العسكري في الفقرات الآتية:

٤٩ ـ إن الحقائق المتعلقة بمقتل جعفر العسكري لم تعرف بصورة كاملة، ولعلها لن تعرف قط. ويبدو أنه في صباح ٢٩ تشرين الأول التحق جعفر برئيس الوزراء ونوري السعيد في القصر، وقد صرّح إنه يستطيع أن يذهب لمقابلة القوات ويحاول أن يثنيها عن الزحف على بغداد، وقد جرت محاولات لصدّه عن ذلك، ولكن جعفر الذي لم تكن تعوزه الشجاعة أصر على نيته، وأخيراً سمح له بالذهاب مزوّداً برسالة، خالية من أي التزام، من الملك غازي إلى الجنرال بكر صدقي، واستناداً إلى تقارير مقبولة بصورة عامة قابل جعفر طلائع الحرس الذي يسير نحو بغداد في منتصف الطريق بين بغداد وبعقوبة، واقنعه بترك سيارته ضابطان تعهدا بإيصاله إلى بكر صدقي. أما ما حدث بعد ذلك فليس معروفاً في الحقيقة ولكن أكثر الروايات تفصيلاً هي أن الضابطين قادا السيارة وحادا بها عن الطريق إلى الصحراء، حيث أطلق الرصاص على جعفر وتشير التقارير المتواترة إلى أن ذينك الضابطين هما إسماعيل توحله (الذي كان يقود القوات التي نفذت مذبحة الآثوريين في سمّيل في سنة

---

(١٣) ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، بيروت، ١٩٦٨، الجزء الثاني ص ٥٨٢.

١٩٣٣) وأكرم مشتاق، وهو ضابط شاب في القوة الجوية العراقية. أما هل أمر بكر صدقي بالقتل فعلاً، فذلك ما يستحيل معرفته، ومن المؤكد أنه كان يعلم أن جعفراً قادم لرؤيته حاملاً رسالة من الملك غازي ولذلك لا بد انه يتحمل على الأقل الجزء الأعظم من المسؤولية. ويبدو أنه قد وقعت بيده رسائل من جعفر إلى كبار الضباط يحثهم فيها على الخروج عليه، وأنه لأكثر من المحتمل أنه كان يخشى من نفوذ جعفر الشخصي على القوات. وعلى أي حال فإنه دافع عن القتلة بعد الجريمة، وأحاط إسماعيل توحله بحمايته الشخصية.

٥٠ ـ ولن يكون من الإنصاف لحكمت سليمان أن يقال إنه كان له أي دور في هذه الحادثة. وهو حين تواطأ للقيام بإنقلاب لم يتوقع زيارة جعفر للجيش، ولمّا وصلته أنباء مقتل جعفر رفض أن يواصل العمل على تأليف الوزارة، واحتاج الأمر إلى ممارسة ضغط كبير عليه لحمله على العدول عن نفض يديه. ومنذ ذلك الحين أجبرته الظروف على الأذعان لحماية القتلة.

٥١ ـ لم يصدر تصريح رسمي عن وفاة جعفر، والتزم صمت شديد فيما يتعلق بمكان قبره»[١٤].

* * *

ولا شك ان مقتل جعفر العسكري، إلى جانب ما فيه من قسوة واعتداء من الناحية الإنسانية، فإنه كان بلا شك خسارة كبيرة للعراق، فقد كان في جميع الظروف عنصر اعتدال في الشؤون السياسية، ومرجعاً يلوذ به الساسة العراقيون على اختلاف اتجاهاتهم في أوقات الشدة. وكان بشخصيته المرحة، وتجاربه الكثيرة في الحياة. والتي زودته بالحكمة وبعد النظر، يستطيع أن يقدم لبلاده خدمات كثيرة أخرى لو أمتد به الأجل، خاصة وإنه قتل في سن مبكرة نسبياً.

وقد قيل بعد مقتله إنه أخطأ في الذهاب لمواجهة الجيش الذي كان متحمساً لدخول بغداد، واحداث تغيير في البلاد، وإن غلطة العاقل تكون كبيرة. ولكن ثقة

---

(١٤) Sir A. Clark Kerr to Mr. Eden, Annual Report, 1936 E 1055/1055/93, January 30, 1937.

جعفر بنفسه، وبما يتمتع به من محبة وإحترام بين ضباط الجيش جعلته يقدم على هذه الخطوة الجريئة. على الرغم مما فيهـا من خطر، وان كـان ذلك الخـطر لا يقاس إلى المخاطر الجسيمة التي تعرض لها جعفر العسكري في ماضي حياته.

كان جعفر قادراً على الدوام على الخروج من أصعب المآزق، والتغلب على كثير من المشاكل بحلول عملية واقتراحـات حكيمة أو نكتـة ظريفـة تلطف الجو، وتبـدد التوتر.

جاءه مرة ساسون حسقيل، وزير المـالية اليهـودي يشكو إليـه بمرارة ان الملك فيصل الأول قال عنه: «هذا رجل صنيعة الانكليز»، فأجابه جعفر ضاحكـاً: «لماذا تغضب فهو نفسه صنيعة الانكليز أيضاً»[١٥]، وبهذا القول بدد ما في نفس ساسـون من انزعاج، وتفادي تطور الأمر إلى مشادة بين فيصل الأول وساسون، أو ربمـا قيام ساسون بابلاغ ذلك إلى الأنكليز.

كان جعفر العسكري شخصية طريفة حقاً، شخصية شعبية بغدادية أصيلة في لطفها ومـرحها، وكان لا يعرف التكلف، وتروى عنه نكات كثيرة و«مقالب» متنوعة يتناقلها الناس في بغداد حتى الآن. وكان بدينا مكتنز الجسم، ولكنه كان في الوقت نفسه سريع الحركة وذكيا. جاء عنه في التقرير السري الذي أعدته السفارة البريطانية عن الشخصيات العـراقية لسنـة ١٩٣٥ (والمحفوظ بدار الوثائق البريطانية في لندن) انه «يتكلم العربية والتركية والأرمنية والفارسية والألمانية والفرنسية والانكليزية»[١٦]. وكتبت غير ترود بيل في رسالة الى أبيها بعد لقائه للمرة الأولى في دمشق سنة ١٩٠٩ قائلة «يتكلم جعفر باشا سبع لغات بطلاقة، وقد امتحنني فيها جميعا، ولكنني لا أستطيع أن أجيبه بالكردية، كما أنني لا أستـطيع الآن التحـدث بالتركية، وقد حادثته بلغتي الانكليزية، وكذلك بالفرنسية والألمانية والعربية والفارسية. ويقال انه اداري لا يجارى في كفاءته في الحكومة العربية وهو شخص سمين ومرح»[١٧].

وكتبت مس بيل في رسالة أخرى الى أبيها من بغداد مؤرخة في ١٨/١٢/١٩٢٢ قائلة:

«.. أتمنى أن لو كان هنـالـك أشخاص آخرون في مثل كماله واستقامته

---

(١٥) **مذكرات الأمير عادل أرسلان**، بيروت، ١٩٨٣، الجزء الأول، ص ١٣.

(١٦) F.O. 371/2000 (E 172/172/93).

(١٧) Burgoyne, op. cit., p. 118

واعتـداله . . ان اخلاص جعفر للملك وتفانيه من أجله رائع حقا . انني أعرف الرجل من كل ناحية وهو بديع بنفس الدرجة في محبته وشهامته نحو أهله وأطفـاله، وفي إخلاصه وحماسته لفيصل الذي يعدّه الرجل الوحيد القادر على قيادة القضية العربية الى النجاح (والواقع أن هذا رأيي أيضا) . . . »[١٨]

وقد جاء في تقرير السفارة البريطانية عن الشخصيات العراقية لسنة ١٩٣٦ أيضا أن جعفر العسكري كان «بطبيعته متقلب المزاج، صادقا، حسن النية ولطيف المعشر، وانه كان خاملا بدرجة لا يواجه معها الحقيقة حينما تكون مزعجة، وميالا الى تبني موقف أقل مقاومة ممكنة. وليست له القابلية للدسائس، ويخدع بسهولة». وهذه بطبيعة الحال صفات ـ لو صح ما جاء في تقرير السفارة ـ تدل على ان جعفر العسكري لم يكن سياسيا جيدا وان كان عسكريا ممتازا، وقد ذهب الى مثل هذا الرأي آخرون ممن قالوا ان ميزة جعفر العسكري الرئيسية هي في كفاءته وعقليته العسكرية وليس السياسية.

وفي رأي كاتب هذه السـطور ان جعفـر العسكري كان يختلف عن أبناء جيله من الساسة العراقيين اختلافا كبيرا. فانه اضافة الى نشأته العسكرية الممتازة، وكونه ضابطا لامعا حقا، درس في أرقى المدارس العسكرية في زمانه في تركية وفي المانية، فقد كان في الوقت نفسه شخصا لم تقتصر اهتماماته على الشؤون العسكرية، بل كان على قدر كبير من الثقافة السياسية والعامة.

وبين التصاوير الشخصية المحفوظة لدى أسرته صورة التقطت له في داره في المعادي (القاهرة) يوم كان أسيرا أو محتجزا فيها، وقد كتب العسكري على ظهرها بقلمه عبارة «المعادي ـ في المكتبة الموجودة في بيتي» وتظهر في الصورة مكتبة لا نشاهد مثلها في البيوت عادة، اقتناها ضابط أسير لا يدري ماذا يخبىء المستقبل له، وان مجرد اقتنائه مثل هذه المكتبة خلال الفترة القصيرة التي قضاها أسيرا لا يدع مجالا للشك في انه كان رجلا يميل الى القراءة والتعلم ويجد فيهما متعة حقيقية. أما المكتبة التي كانت في داره في العراق فقد كانت قيمـة وكبـيرة ـ وقد أتيح لنا رؤيتها في دار أحد أولاده ـ تحتوي على أهم الكتب الصـادرة حتى ذلك الوقت في التاريخ والسياسة والشؤون الدولية والقانون، ومعظمها باللغة الانكليزية.

وقد سبقت الاشارة الى أن جعفر العسكري انتهز فرصة وجوده في لندن فواظب على دراسـة الحقـوق فيهـا، على الـرغم من صعـوبة الدراسة وجدّيتها في مدارس الحقوق

---

(١٨) **The letters Of Gertrude Bell** (Selected and Edited by Lady Bell) Ernest Benn Ltd., London 1927, Vol.II., p. 660.

البريطانية، وليس مما يشاهد كثيرا رجل قارب الخمسين من عمره يجلس في مقاعد الدراسة الى جانب طلاب دون العشرين من عمرهم، ومن هم في سن أولاده، فيستمع الى الدرس، ويتلقى العلوم. وقد نجح العسكري في الحصول على شهادة الحقوق بجده الشخصي مع أن تلك الشهادة لم تكن ستحقق له أية ميزة أضافية سوى زيادة المعرفة.

ان دراسة جعفر العسكري في الغرب في وقت مبكر من شبابه، واقامته الطويلة في انكلترة بعد ذلك، وسفراته الكثيرة الى الدول الأوربية الأخرى، واختلاطه برجالات الغرب وساسته، جعل أسلوب تعامله في السياسة يختلف اختلافا كليا عن غيره من السياسين العراقيين في ذلك الوقت، اذ لم يكد معظمهم - بما فيهم أقربهم اليه، وهو نوري السعيد - يقرأوا كتابا واحدا منذ انهائهم دراستهم، ودراسة معظمهم كانت في المدارس العسكرية التركية فقط. وربما كان توفيق السويدي الاستثناء الوحيد بينهم في هذا الشأن.

ولذلك كان جعفر العسكري، العصريّ في تفكيره، المطلع على أحوال العالم الخارجي، العارف بالمستوى الذي كانت تدار به شؤون الدول المتقدمة، يكاد يعتبر نشازاً في عقليته وتفكيره ونظرته الى الأمور على الرغم من أنه كان شعبياً أصيلاً في طريقة تعامله مع الناس، قادراً على الانسجام مع العامل والفلاح والجندي والجلوس معهم على الأرض، والأكل معهم بيده، ومجاراتهم في أحاديثهم وأمثالهم العامية، كما كان في الوقت نفسه يتصرف بنفس الدرجة من السهولة والثقة بالنفس وعدم التكلف في أرقى المجتمعات الأوربية.

ان عقلية جعفر العسكري لم تكن لتستوعب أساليب السياسة الداخلية الملتوية، ودسائسها التي تقتضيها طبيعة العمل السياسي، وكانت جزءا من واقع الحياة السياسية، بينما كان نوري السعيد بارعا فيها، بل ويستمد معظم قوته منها. ولذلك كانت هنالك ظروف تقتضي مجيء شخصية في مثل صفاته الى الحكم، لتأليف الوزارة وانقاذ الموقف. ولم تكن شخصية جعفر العسكري المرحة وتصرفاته العفوية في ظاهرها، دليلا على بساطة في التفكير، أو سذاجة، ولكنه كان كثيرا ما كان يتظاهر بالبساطة والسذاجة وكان ذلك - في رأينا - أحد مواهبه ومصادر قوته.

صحيح أن جعفر العسكري بدأ حياته عسكرياً ناجحاً وضابطاً لامعاً، نجح نجاحا باهرا كقائد ممتاز في المعارك التي خاضها مع القوات العثمانية ثم في الثورة العربية، ونجح في تأسيس الجيش العراقي على أسس قويمة راسخة جعلته في مدة قصيرة أرقى الجيوش العربية، ولكن الانسان يتطور مع أحداث الزمن وتجارب الحياة ويكتسب خبرات جديدة في كل محيط يعمل فيه. وقد مر جعفر العسكري بمراحل مختلفة تطورت معها نظرته الى الأمور واهتماماته، فأصبح سياسيا كانت البلاد بحاجة الى مثله في بعض مراحلها، ولذلك

كان الملك فيصل الأول ونوري السعيد وياسين الهاشمي يستدعونه من لندن مرة بعد أخرى، لتأليف وزارة أو الاشتراك فيها في ظروف لم يكن غيره ليستطيع أن ينجح في مواجهتها.

على أن جعفر العسكري لم يكن مرتاحا للأوضاع في العراق في أواخر أيام الملك فيصل الأول، ولما أقال الملك فيصل وزارة نوري السعيد الثانية ـ التي كان جعفر العسكري وزيرا للدفاع والخارجية فيها ـ في تشرين الأول (أكتوبر) **١٩٣٢** وحلت محلها وزارة ناجي شوكت، عاد جعفر العسكري وزيرا مفوضا في لندن للمرة الأخيرة، وكان يشكو من الملك فيصل وأساليبه، اذ جاء في احدى وثائق وزارة الخارجية تعليق للمستر هول الذي كان مسؤولا عن الشؤون العراقية في وزارة الخارجية مؤرخ في **١٩٣٣/١/٩** ما يأتي:

«. . كان نوري باشا وجعفر باشا يتناولان العشاء معي قبل بضعة أيام، وقد أكد لي في ذلك الوقت بقوة أن أيّا منهما لن يقبل منصباً وزارياً في العراق الا اذا كان هنالك تغيير كامل في موقف الملك فيصل الذي كانت دسائسه السياسية وتدخله المستمر في أعمال الحكومة اليومية ـ كما قالا ـ تجعل موقف أية وزارة لا يطاق. . . »

وجاء في التعليق نفسه أيضا:

«. . وأضاف نوري باشا في هذا الصدد انه لا يمكن انتظار أي تحسن في الوضع في حالة اعتلاء الملك غازي العرش. ومع ذلك فأنه أضاف أن تعديل قانون وراثة العرش بجعل الأمير زيد وريثا لدى وفاة الملك فيصل، سيلقي تأييداً كبيراً في العراق. . . »[١٩]

وقد توفي الملك فيصل في أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها، واعتلى الملك غازي العرش، وكان جعفر العسكري أقل ارتياحا لأوضاع البلاد في ذلك العهد، ولعله أصبح متشائما من مستقبل البلاد تحت حكم الملك غازي بنزواته المعروفة، وبطانته الفاسدة التي حاول ياسين الهاشمي أيضا ابعاده عنها. وكان يجد نفسه بين مجموعة من السياسيين الذين كان يختلف عنهم في عقليته وطراز تفكيره، وقد كان الهدف الرئيسي لمعظمهم تولي السلطة والبقاء في الحكم أطول مدة ممكنة وتأمين مصالحهم الشخصية. وكانوا في أفقهم الضيق، وثقافتهم الضحلة، وانهماكهم في المشاكل الآنية الصغيرة غير قادرين على رؤية مصالح البلاد في الأمد الطويل. وكانت فترة من الخمول السياسي في وقت يتطور فيه العالم بسرعة متزايدة ولذلك كان من المعروف ان جعفر العسكري أصبح يجد أقصى

---

(١٩) F.O. 371/16903 (E 1053105/93), 9 January 1933

الراحة والسعادة حين يكون وزيرا مفوضا في لندن، بعيدا عن ذلك الجو الذي لم يعد يلائم مزاجه، ويجد نفسه في دوامة لا يستطيع بمفرده الوقوف أمامها، أو القيام بشيء لاصلاحها، وليس لأنه لم يكن سياسيا جيدا.

ومع ذلك، فان تفضيل جعفر العسكري لمنصب وزير العراق المفوض على غيره لم يكن دليلا على تقاعسه عن الخدمة الفعالة أو رغبته في التهرب من العمل الجدّي والخلود الى الراحة وهو في الخمسين من عمره، بل هنالك ما يدل على أنه حقق في العمل الدبلوماسي نفس النجاح الذي حققه في العسكرية ثم في السياسة. وبين أوراق وزارة الخارجية البريطانية وثيقة فيها تعليق للسر جورج رندل، رئيس الدائرة الشرقية، جاء فيه: «.. انه لمن أبعد الاحتمالات ان سيكون في بلادنا مرة أخرى ممثل أجنبي قام بدور في أهمية الدور الذي قام به جعفر باشا في بناء دولة جديدة..»[٢٠]

وعلى الرغم من استحالة التكهن في الأمور التاريخية، فأغلب الظن أنه لو بقي جعفر العسكري على قيد الحياة - مثل صديقه ونسيبه نوري السعيد الذي عاش بعده اثنتين وعشرين سنة أخرى - فربما كانت الفرصة تتاح له للقيام بأدوار أخرى مهمة في توجيه الحياة السياسية في العراق، ولمارس نفوذا طيبا على سياسة نوري السعيد الذي كان يطمئن اليه ويكّن له مودة حقيقية واحتراما عظيما، ومن يدري، فربما كان تاريخ العراق السياسي بأجمعه سيختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف.

ولعل في نشر مذاكراته خير تخليد لذكراه..

ن. ف. ص.

---

(٢٠) وقد كتب هذا التعليق حينما كانت الاستعدادات تتخذ لزيارة الملك فيصل الأول الى انكلترة، وهي أول زيارة رسمية يقوم بها بعد اعتلائه عرش العراق، وكان جعفر العسكري قد اقترح ادخاله ضمن الحاشية الصغيرة التي كانت ستحل في قصر بكنغهام خلال أيام الزيارة الرسمية، فخشيت وزارة الخارجية ان الموافقة على هذا الطلب قد توجد سابقة يطالب ممثلو الدول الأخرى بمثلها عند زيارة رؤساء دولهم، واستمزجت رأي القصر الملكي، فأجاب «السر كلايف ويغرام» - سكرتير الملك - انه من غير المحتمل ان تتكرر هذه الحالة، واقترح الموافقة على الطلب، ورفع رئيس الدارة الشرقية في وزارة الخارجية، السر جورج رندل، جواب القصر الى وزير الخارجية مع هذا التعليق الذي يدل على ما يتمتع به من مكانة، وما حققه من نجاح في عمله الدبلوماسي.

والنص الكامل للتعليق هو:

«أعترف بأنني أشارك السر كلايف ويغرام بأن ليس من المحتمل جدا أن تظهر في المستقبل حالة مماثلة لحالة جعفر باشا. فأنه لمن أبعد الاحتمالات أنه سيكون في بلادنا مرة أخرى ممثل أجنبي قام بدور في أهمية الدور الذي قام به جعفر باشا في بناء دولة جديدة. وانه لأبعد احتمالا أن يصادف وجود مثل هذا الممثل أثناء زيارة رسمية يقوم بها رئيس دولته..»

F.O. 371/16915 (E 1985), 1933

الملاحق:

الملحق رقم (١)

مذكرة الملك فيصل الأول

كان الملك فيصل الأول قد كتب مذكرة مطولة تتضمن آراءه وأفكاره عن أحوال العراق ومستقبله بمناسبة عقد المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٣٠، وقرب انتهاء العراق إلى عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢، وأعطى نسخاً منها إلى جعفر العسكري، وياسين الهاشمي، ونوري السعيد، وناجي السويدي، وناجي شوكت، وعلي جودة، وجعفر أبو التمن وبعض الوزراء، طالباً إليهم أبداء ما لديهم من ملاحظات وآراء حول ما جاء فيها بصراحة تامة. وفيما يلي نص مذكرة الملك فيصل، مع الرد الذي كتبه المرحوم جعفر العسكري، وهو ينشر للمرة الأولى:

نص المذكرة

كنت منذ زمن طويل أحس بوجود أفكار وآراء حول كيفية إدارة شؤون الدولة عند بعض وزرائي ورجال ثقتي غير أفكاري وآرائي، وكثيراً ما فكرت في الأسباب الباعثة لذلك. وفي الأخير ظهر لي بأن ذلك كان ولم يزل ناشئاً من عدم وقوفهم تماماً على أفكاري وتصوراتي، ونظري في شؤون البلاد. وفي كيفية تشكيلها وتكوينها والسير بها، نظراً إلى ما أراه من العوامل والمؤثرات المحيطة بها، والمواد الإنشائية المتيسرة، وعوامل التخريب والهدم التي فيها، كالجهل واختلاف العناصر والأديان، والمذاهب والميول والبيئات. لذلك رأيت من الضروري أن أفضي بأفكاري وأشرح خطتي في مكافحة تلك الأمراض وتكوين المملكة على أساس ثابت وأطلع عليها أخصائي ممن اشتركوا وإياي في العمل. وأني ألخص خطتي مختصراً بجملته تحت هذا، وبعد ذلك أتقدم إلى تفصيل نظرياتي ومشاهداتي:

١ ـ إن البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية. فهي والحالة هذه مبعثرة القوى، منقسمة على بعضها، يحتاج ساستها إلى أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى غير مجلوبين لحسيات أو أغراض شخصية أو طائفية أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معاً، على جانب كبير من الأحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثيرات رجعية أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل.

٢ ـ في العراق أفكار ومنازع متباينة جداً وتنقسم إلى أقسام:

١ ـ الشبان المتجددون بما فيهم رجال الحكومة.
٢ ـ المتعصبون.
٣ ـ السنة.
٤ ـ الشيعة.
٥ ـ الأكراد.
٦ ـ الأقليات غير المسلمة.
٧ ـ العشائر.
٨ ـ الشيوخ.
٩ ـ السواد الأعظم الجاهل المستعد لقبول كل فكرة سيئة بدون مناقشة أو محاكمة.

إن شبان العراق القائمين بالحكومة، وعلى رأسهم قسم عظيم من المسؤولين يقولون بوجوب عدم الالتفات إلى أفكار وآراء المتعصبين وأرباب الأفكار القديمة لأنهم جبلوا على تفكير يرجع عهده إلى عصور خوت، ويقولون بوجوب سوق البلاد إلى الأمام، بدون التفات إلى أي رأي كان، والوصول بالأمة إلى مستواها اللائق، والأعراض عن القال والقيل طالما القانون والنظام والقوة بيد الحكومة ترغم الجميع على اتباع ما تمليه عليهم. إن عدم المبالاة بالرأي العام بتاتاً مهماً كان حقيراً خطيئة لا تغتفر. ولو أن بيد الحكومة القوة الظاهرة التي تمكنها من تسيير الشعب رغم إرادته لكنت وإياهم. وعليه فإننا لحين ما نحصل على هذه القوة علينا أن نسير بطريقة تجعل

الأمة مرتاحة نوعاً ما، بعدم مخالفة تقاليدها كي تعطف على حكومتنا في النوائب.

إن المثل الصغير الذي ضربه لنا الأضراب العام[١] يكفينا لتقدير حسّياتها ووضعها موضع الاعتبار. وكذلك يكفينا لتقدير مبلغ قوانا لاخماد هياج مسلح ما قاسيناه أبان ثورة الشيخ محمود والنقص العددي البارز الذي ظهر في قواتنا العسكرية آنئذ. كل ذلك يضطرني إلى أن أقول بأن الحكومة أضعف من الشعب بكثير. ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الأمر، لكنه يوجد في المملكة ما يزيد عن المائة الف بندقية يقابلها ١٥ ألف حكومية. ولا يوجد في بلد من بلاد الله حالة حكومة وشعب كهذه.

هذا النقص يجعلني أتبصر وأدقق وادعو أنظار رجال الدولة ومديري دفة البلاد للتعقل وعدم المغامرة. ألمحت فيما تقدم إلى أفكاري الخاصة، وأفكار رجال الحكومة والشبان، وحالة الشعب كل ذلك، توطئة لما سأقوله فيما يلي، وتصوير البلاد كما أرها في الوقت الراهن، وكما أشخّص أمراضها. وبعد ذلك أبيّن أيضاً ما أراه ضرورياً لمعالجتها.

٣ ـ العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثريته جاهلة، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية، يسوقونه للتخلص منها بدعوى أنها ليست من عنصرهم، وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة، إلّا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكّنهم من الاشتراك في الحكم، وعدم التمرّن عليه، والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين، كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع، الدينيون منهم

---

(١) «الاضراب العام» الذي يشير إليه الملك فيصل الأول هو الاضراب الذي حدث في تموز سنة ١٩٣١ على أثر صدور قانون رسوم البلديات الذي قوبل بسخط من جماهير الشعب والأحزاب السياسية والعمال، فأضربت العاصمة وشمل الأضراب جميع مرافق الحياة وتوقفت كلياً، ثم سرى إلى معظم المدن العراقية الكبرى وخاصة في الجنوب، ودام الاضراب حوالي اسبوعين، وكان الملك فيصل ورئيس الوزراء نوري السعيد غائبين عن العراق، فعادا على عجل وانتهى الأمر باستقالة وزير الداخلية وإعادة تشكيل الوزارة.

وطلاب الوظائف بدون استحقاق. والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد، يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة، ويشوّقون هذه الأكثرية للتخلص من الحكم الذي يقولون بأنه سيء بحت. ولا ننكر ما لهؤلاء الدساسين من التأثير على الرأي البسيط الجاهل.

أخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان. بقطع النظر عن الأقليات الأخرى، المسيحية التي يجب أن لا نهملها نظراً إلى السياسة الدولية التي لم تزل تشجعها للمطالبات بحقوق غير هذه وتلك. وهناك كتل كبيرة غيرها من العشائر كردية وشيعة وسنة لا يريدون إلّا التخلص من كل شكل حكومي، بالنظر لمنافعهم ومطامع شيوخهم التي تتدافع بوجود الحكومة. تجاه هذه الكتل البشرية المختلفة المطامع والمشارب، والمملوء بالدسائس، حكومة مشكلة من شبان مندفعين أكثرهم متهمون بأنهم سنيون أو غير متدينين، أو أنهم عرب، فهم مع ذلك يرغبون في التقدم ولا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به ولا بوجود تلك الفوارق وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها. يقودونها بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذا المجموع، غير مبالين أيضاً بنظرات السخرية التي يلقيها عليهم جيرانهم الذين على علم بمبلغ قواهم.

اخشى أن أتهم بالمبالغة، ولكنه من واجبي أن لا أدع شيئاً يخامرني، خاصة لعلمي بأن سوف لا يقرأ هذا الاّ نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسؤولياتهم. ولا أرغب أن أبرز موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة، وأنقل ما سمعته ألوف المرات، وسمعه غيري، عن الذين يلقون في أذهان أولئك المساكين البسطاء من الأقوال التي تهيجهم وتثير ضعفائهم. ان الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والمناصب للسني. ما الذي هو للشيعي حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها؟ ويضربون الأمثلة على ذلك مما لا لزوم لذكرها. أقول هذا على سبيل المثال وذلك للاختلافات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون. وهناك حسيات مشتركة بين أفراد الطوائف الإسلامية ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها. وهناك غير هذا دسائس آثورية وكلدانية ويزيدية، زد على ذلك الدعايات الشخصية والحزبية والأجنبية التي توقد نار الحقد والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء، وتوهن قوى الحكومة تجاه البسطاء كما أن العقول البدوية والنفوذ العشائري الذي للشيوخ، وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسيع

نفوذ الحكومة، كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع والاحتراصات تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم، وتعكر صفو البلاد وسكونها. فإذا لم تعالج هذه العوامل بأجمعها، وذلك بقوة مادية وحكيمة معاً، ردحاً من الزمن، حتى تستقر البلاد وتزول هذه الفوارق وتتكون الوطنية الصادقة، وتحل محل التعصب المذهبي والديني. هذه الوطنية التي سوف لا تكون إلا بجهود متمادية، وبسوق مستمر من جانب الحكومة بنزاهة كاملة. فالموقف خطر. وفي هذا الصدد وبالاختصار أقول، وقلبي ملآن أسى، إنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية مشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة. سماعون للسوء، ميالون للفوضى، مستعدون دائماً للانتفاض على أي حكومة كانت. فنحن نريد والحالة هذه، ان نشكل من هذه الكتل شعباً نهذّبه وندرّبه ونعلمّه ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب أن يعلم أيضاً عظم الجهود التي يجب صرفها لاتمام هذا التكوين وهذا التشكيل.

هذا هو الشعب الذي أخذت مهمة تكوينه، وهذا نظري فيه وان خطتي في تشكيله وتكوينه هي كما يلي:

في اعتقادي ،وإن كان العمل شاقاً ومتعباً، إلا إنه ليس مما يوجب اليأس والتخوف إذا عولج بحكمة وسداد رأي وأخلاص. إذا قامت الحكومة بتحديد خطة معينة وسارت عليها بجد وحزم، فإن في اعتقادي، وإن كان العمل شاقاً ومتعباً، إلا إنه ليس مما يوجب اليأس والخوف إذا عولج بحكمة وسداد رأي وإخلاص. إذا قامت الحكومة بتحديد خطة معينة وسارت عليها بجد وحزم، فإن الصعوبات تجابه، وبارقة الأمل في الرسوخ السياسي تزداد نوراً. وألا حظ أن منهاجاً يقرب مما سأذكره أدناه، يكون كافلاً لمعالجة المهمة والنجاح. وإليك بالاختصار أولاً ثم بالتفصيل.

١ ـ زيادة قوة الجيش عدداً وعدداً وبشكله الحاضر بحيث يصبح قادراً على إخماد أي قيام مسلح ينشب في آن واحد على الأقل في منطقتين متباعدتين.

٢ ـ عقب إتمام تشكيل الجيش على هذه الصورة، تعلن الخدمة الوطنية.

٣ ـ وضع التقاليد والشعائر الدينية بين طوائف المسلمين بميزان واحد مهما أمكن. واحترام الطوائف الأخرى.

٤ ـ الإسراع في تسوية مشكلة الأراضي.

٥ ـ توسيع المأذونية المجالس الألوية والبلديات بقدر الإمكان على نموذج القانون العثماني.

٦ ـ الإسراع في تشكيل مدرسة الموظفين.

٧ ـ الأعمال النافعة وحماية المنتوجات.

٨ ـ المعارف.

٩ ـ تفريق السلطة التشريعية والسلطة الإجرائية.

١٠ ـ تثبيت ملاك الدولة.

١١ ـ وضع حد للانتقادات غير المعقولة ضد إجراءات الحكومة في الصحف والأحزاب.

١٢ ـ العدل والنظام والإطاعة في الموظفين، والعدل عند قيامهم بوظائفهم.

بدأت بالجيش لأني أراه العامود الفقري لتكوين الأمة، ولأني أراه في الوقت الحاضر أضعف بكثير بالنسبة لعدده وعدده، من أن يقوم بالمهمّة الملقاة على عاتقه وهي حفظ الأمن والاطمئنان إلى إمكانية كفاءته، نظراً إلى ما تتطلبه المملكة، ونظراً إلى العوامل المختلفة الموجودة والتي يجب أن تجعلنا دائماً متيقظين بوقوع حوادث وعصيان مسلح في كل وقت. انني لا أطلب من الجيش أن يقوم بحفظ الأمن الخارجي في الوقت الحاضر، الذي سوف نتطلبه منه بعد إعلان الخدمة العامة. أما ما سأطلبه منه الآن فقط أن يكون مستعداً لاخماد ثورتين تقعان (ولا سمح الله) في آن واحد في منطقتين بعيدتين عن بعضهما. إنني غير مطمئن إلى إننا بعد ستة أشهر، وبعد أن تتخلى انكلترة عن مسؤوليتها في هذه البلاد، نتمكن من الوقوف لوحدنا ما دامت القوة الحامية هي غير كافية. ولا يمكنني أن أوافق على تطبيق الخدمة العامة أو القيام بأي إجراءات أخرى هامة أو محركة ومهيجة ما لم أكن واثقاً بأن الجيش يتمكن من حماية تنفيذ هذا القانون أو أي إجراءات أخرى. وعليه أرى من الضروري إبلاغه

لحد يتمكن من إجابة رغبتي المار ذكرها وذلك بشكله الحاضر. أرى أنه من الجنون القيام بإنشاءات وإصلاحات عظمى في البلاد، قبل أن يطمئن إلى كفاية القوة الحامية لهذه الأعمال. أمامنا حركات بارزان في الربيع القادم، ومن الضروري أن أرى بيدنا قوة احتياطية لمجابهة أي طاريء آخر يحدث في المملكة.

٢ ـ علينا أن نطمن معنويات إخواننا الشيعة بالكيفية الآتية: (١) إعطاء التعليمات إلى قاضي بغداد ـ كما عمل ـ بأن يسعى لتوحيد أيام الصيام والإفطار، وهذا ممكن وشرعي. (٢) تعمير العتبات المقدسّة حتى يشعروا بأن الحكومة غير مهملة لتلك المقامات، التي هي مقدسة لدى الجميع، والتي هي كذلك من الآثار التاريخية التي تزيّن البلاد. فعلى الحكومة من كل الوجوه محافظتها من الخراب. (٣) إن رجال الدين من الشيعة ليس لهم أي أرتباط مع الحكومة، وهم في الوقت الحاضر أجانب عنها، خاصة حيث يرون أن رجال الدين السنيين يتمتعون بأموال هم محرومون منها. والحسد (خاصة في الطبقة الدينية) معلوم. فعلينا ما دمنا غير قادرين على تقسيم الأوقاف فيما بينهم، أن نفتكر في إيجاد أوقاف خاصة. ومن رأيي أن ذلك ممكن بالطريقة التي كنت تشبثت بها غير أن الظروف حالت بيني وبين تحقيقها.

٣ ـ إن احترام الشعائر العامة غير عسير في أيام رمضان، والحيلولة دون تفشي الموبقات. وإذا تمكنت الحكومة من سد بيوت الخناء لقامت بأكبر عمل يربط العامة بها.

٤ ـ لم أتكلم عن الضرائب إذ أنّ قانون ضريبة الاستهلاك قطع قول كل مفسد، وإنه لأكبر عمل جرى، ولسوف نقتطف ثمراته انشاء الله.

٥ ـ إن مشكلة الأراضي وحلها سيربط الأهالي بالأراضي، وهو ذو مساس كبير بالشيوخ ونفوذهم، ولا لزوم للأسهاب بمنافعه. ويجب الإسراع بتطبيقه على قدر المستطاع، كما أنه يجب أن لا يحس الشيوخ والإغاوات بأن قصد الحكومة محوهم، بل بقدر ما تسمح لنا الظروف يجب أن نطمنهم على معيشتهم ورفاهيتهم، بدون أن نعطيهم سلطة على العشائر.

٦ ـ أرجو أن تكون قضية المدرسة مطمئنة لكل سكان العراق بأنهم سيشتركون

فعلاً في خدمات الدولة، والإشتراك في خيرها وشرها مع أهل بغداد والموصل بصورة متساوية، وتزول تهمة (الحكومة السنية أو العربية) كما يقول أصحاب الأغراض من أكراد وشيعة.

٧ ـ أقول بتحفظ إنه إذا أمكن إعطاء صلاحيات للألوية شبيهة بمجالس الولايات في العهد العثماني، فسيكون ذلك من جملة أسباب تشويق سكان الألوية للاشتراك بالحكم.

٨ ـ لقد تحدثنا كثيراً حول تفريق السلطة التشريعية عن السلطة الإجرائية ويجب عمل ذلك بتعديل القانون الأساسي.

٩ ـ علينا أن لا ندع مجالاً للأحزاب (المصطنعة) والصحف والأشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتشويه الحقائق وتضليل الشعب، وعلينا أن نعطيهم مجالاً للنقد النزيه المعقول وضمن الأدب. ومن يقوم بأمر غير معقول يجب أن يعاقب بصرامة.

١٠ ـ على موظفي الدولة أن يكونوا آلات مطيعة ونافعة حيث هم واسطة الإجراءات. ومن يحس منه أنه يتداخل مع الأحزاب المعارضة، أو يشوّق ضد الدولة، ينحّى عن عمله، وعليه أن يعلم بأنه موظف قبل كل شيء. خادم لأي حكومة كانت.

١١ ـ النافعة: أتيت بهذا الاسم الجديد ورجعت إلى التعبير التركي، حيث رأيت إنه (أشمل) للأعمال المختلفة في مرافق الأمة. حسناً عملنا في السنة الماضية بتخصيص مبالغ للأعمال الرئيسية. ولا ننكر أن ذلك القانون صدر بصورة مستعجلة على أن يكون قابلاً للتحوير والتبديل في بعض مواده عندما نرى ضرورة لذلك. وفي اعتقادي أنه من الضروري إعادة النظر في مواده، خاصة قسم الأبنية والطرقات.

أقول بكل أسف إن الزراعة أفلست في بلادنا، بالنظر لبعد مملكتنا عن الأسواق، لقد وضعنا الملايين لإنشاءات الري، ولكن ماذا نريد أن نعمل بالمحاصيل. إننا في الوقت الحاضر عاجزون عن تصريف ما بأيدينا من منتوجات أراضينا. فكيف بنا بعد إتمام هذه المشروعات العظيمة؟ هل القصد تشكيل إهرامات

من تلك المحاصيل الخام والتفرج عليها؟ ماذا تكون فائدتنا منها إذا لم نتمكن من إخراجها إلى الأسواق الأجنبية، أو إستهلاكها في الداخل على الأقل: ما الفائدة من صرف تلك الملايين قبل أن نهيء لها أسواقاً تستهلكها ونحن مضطرّون إلى جلب الكثير من حاجاتنا من الخارج؟

أعتقد أنه من الضروري إعادة النظر من جديد في موقفنا الإقتصادي. نرى جيراننا الأتراك والإيرانيين باذلين أقصى جهودهم للاستغناء عن المنتوجات الأجنبية. وكم هي العقبات التي وضعوها لمنع دخول الأموال الأجنبية بلادهم، وكيف لا يبالون بصرف الأموال الطائلة لإنشاء المعامل لسد حاجاتهم. علينا أن نقلع عن السياسة الخاطئة التي أتتنا عن سبيل تقليد الأمم المتشبثة، وعلينا أن نعاون المتشبثين من أبناء الوطن بصورة عملية فعالة، وعلينا أن نعطي الانحصارات إلى مدد معينة لأبناء البلد الذين فيهم روح التشبث، وإذا لم يظهر طالب أو راغب لإنشاء عمل صناعي ترى الحكومة أنه مربح فعليها أن تقوم هي به ومن مالها الخاص أو بالإشتراك مع رؤوس أموال وطنية إذا أمكن، وإلاّ فأجنبية أو كلاهما، معاً. على الحكومة أن تشكل دائرة خاصة لدرس جميع المشاريع الصناعية على اختلاف أنواعها، كبيرة كانت أو صغيرة، وتبدأ ببناء الأهم فالمهم، وترشد الأهلين إلى كيفية التشبث بالأعمال الصغرى، وتقوم هي بالأعمال الكبرى إذا تعذر القيام بها من قبل الأهالي. إنه لمن المحزن والمضحك المبكي معاً أن نقوم بتشييد أبنية ضخمة بمصاريف باهظة، وطرق معبدة بملايين الربيات، ولا ننسى الاختلاسات، ونصرف أموال هذه الأمة المسكينة التي لم تشاهد معملاً تصنع لها شيئاً من حاجاتها. وإني أحبّ أن أرى معملاً لنسيج القطن بدلاً من دار حكومة، وأود أن أرى معملاً للزجاج بدلاً من قصر ملكي.

ملحوظات جعفر العسكري تعليقاً على مذكرة الملك فيصل الأول

قرأت بدقة واعتناء المخطرة التي دونها المقام الأعلى حول شؤون البلاد وكيفية تشكيلها وتكوينها والسير بها حسب العوامل والمؤثرات الموجودة فيها وقد لاحظت فيها أثر القلق على مصير البلاد ومستقبلها الأمر الذي كان ولم يزل يساورني الهواجس وتستولي عليّ المخاوف من أجله وقد سبق لي أن أظهرت شكوكي واضطراب أفكاري

في عدة مواقف سواء كانت رسمية أو شخصية من النتائج غير الملائمة التي قد تنجم من الاستمرار على الحال الراهن.

وقد تفاءلت عندما رأيت أن هذا القلق قد أخذ منا مآخذه والجأنا إلى التفكير في الطرائق والوسائل الناجعة لازالته أو على الأقل لتهوينه الى درجة تخفف الشكوى المحسوبة بين الشعب وتقيم الرضى والطمأنينة مقامها لأن الشعور بالخوف والحذر هو السائق الأول لتشخيص الداء وتحري الدواء، وانه - وايم الله - ليحز عليّ كثيراً أن أرى أي خلل يعتور دولاب العمل في هذه الحكومة أو أي نقص قد يؤدي إلى تزلزل أسس هذه المملكة التي أعلم وأقدر مقادير المساعي والتضحيات التي بذلت في سبيل إخراجها الى حيز الوجود وقد علمتنا التجارب أن الدولة لا يمكن أن تدوم ما لم تكن مؤسسة على اعتماد الشعب ومطمئنة لرغباته. وانه لمن دواعي سروري واغتباطي أن أرى المقام الأعلى مؤيداً لكثير من الآراء والملاحظات التي عرضت لسدته أثناء المحادثات والمباحثات السالفة.

إن قرب انخراط العراق في سلك العصبة وتصديقه لأخذ المسؤولية التامة على عاتقه يقضيان على مراكزه العليا ورجاله - المسؤول منهم وغير المسؤول - أن يمعنوا النظر في عوامل الاستياء بين طبقات العراقيين على اختلاف نزعاتهم وأن يوجدوا الوسائل الملائمة لرفعه وازالته وأن يسرعوا بتطبيقها حتى يشعر الشعب ويعلم الملأ ان القصد من تبوء العراق مركزه في العصبة هو التخلص من الوضع الشاذ والقيام بما يتطلبه الواجب لأجل تشييد بناء المملكة وتأييد حقوق أهلها وسكانها من طبيعية ومدنية وسياسية. وان وزارة المرحوم عبد المحسن بك السعدون الأخيرة كانت قد تشكلت لأجل القيام بهذه المهمة ولكن الظروف حالت دون تحقيقها وجعلتنا نقف موقفنا الحاضر للتفكير بما يجب عمله وذلك بعد ضياع سنتين كاملتين. إن الوضع الشاذ الذي شكونا من سيئاته كثيراً باستطاعتنا أن نجعله مطيّة نحملها كافة الخطيئات والهفوات التي سببت الشكوى خلال السنوات العشر الماضية بشرط ان يظهر الفرق بارزاً بين الموقفين السابق واللاحق، وأن تبدو تباشير الاصلاح التدريجي عقيب الحصول على التبدل في الموقف السياسي المنشود. واذا لم تنتهز هذه الفرصة لتبديل المواقف السابقة واستمرت الحالة على ما هي عليه بعد الدخول الى العصبة أيضاً فيا ضيعة المتاعب ويا خيبة الأمل.

إن التجارب التي مرت علينا أثناء ممارستنا الأعمال داخل العراق وخارجه قد كونت لدينا فكرة واضحة عن النقائص الاجتماعية البارزة في المجتمع العراقي وعن عدم ملائمة الكثير من القوانين والأسس المنتقلة الينا من زمن الحكم العثماني أو من دور الاحتلال، وكذلك القسم المهم من التشكيلات أو التأسيسات التي اتخذت أو القوانين التي نشرت بعد تشكل الحكومة العراقية بتأثير من الاستشارة أو تحت عوامل وملاحظات سياسية أو اجتماعية أخرى، وقد حان الوقت لوضع الخطط اللازمة لتبديلها بما هو أكثر ملائمة لقابلية الشعب وأفكاره وأشد تأثيراً على تأمين رقيّه وتقدمه وعلى ابداء آرائهم وخلاصة أفكارهم حول هذه المواضيع حتى تنجلي الوضعية ويتمكن المقام الأعلى من تثبيت الخطط التي يجب السير عليها في المستقبل القريب وان القدوة الحسنة التي تجلت بوضع هذه المخطرة لما يوجب الشكر والامتنان، وعليه فإني أتقدم بابداء ملاحظاتي حول ما جاء فيها أو فيما له مساس بموضوعها:

١ ـ أنا أيضاً أرى أن البلاد المترامية الأطراف التي كانت منقسمة فيما مضى إلى ولايات ثلاث متباعدة والتي جُمعت أخيراً تحت عنوان (العراق) لتكون وحدة سياسية مستقلة ينقصها العامل الأساسي الأكبر من أجل السير باطمئنان الى تثبيت دعائم الحكم فيها وهو العنصر الغالب ذو الاحساس والثقافة والفكرة الموحدة. فكان العراق عدا انقسامهم إلى مختلف العناصر والطوائف فإن العنصر الغالب فيه نفسه يسبب الدعايات المذهبية أو الاجتماعية السابقة ينقسم على نفسه إلى سنة وشيعة، وإلى عشائر وحضر، وإلى شبان متعلمين متجددين وآخرين محافظين أو مرتجعين.. إلى آخر ذلك من الميول والنزعات المتنوعة. فهذه الحقيقة البارزة تحتم على القائمين بالأمر لزوم التفكير في الوسائل المؤدية إلى ايجاد شعب عراقي جديد يتقارب في الحس والشعور وفي الميل والرغبة في وقاية الفوائد والمصالح التي تؤمنها له الحكومة وفي الدفاع عن أسباب الرفاه والسعادة التي يقتطفها من نتائج مساعيها، تلك الحكومة التي يجب أن تظهر أمامه في جميع أعمالها بأنها منه وإليه. وانه شريك معها في الحكم.

إن الشعب العراقي على اختلاف نزعاته كالشعوب الأخرى لا بد وأنه يكره التعنت في الحكم والاستبداد من قبل الموظفين الذين لهم صلة مباشرة بشؤونه ومقدراته، وان الشيء الذي تصبو إليه النفوس والذي أظهر الناس رغبتهم فيه في مواقف عديدة هو تأسيس الحكومة على أسس تجعلهم يعتقدون بأنهم شركاء معها في

الحكم وانهم أصبحوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم وهذا لا يتم إلا إذا ظهرت الحكومة بالصفة العراقية المحضة وكانت أعمالها ومظاهرها الرسمية وتشكيلاتها الرسمية خالية من طابع قوم أو دين أو مذهب أو تأثير خارجي (مع الاعتراف بأن هذا سوف لا يمنع رجال الدولة من ممارسة مراسمهم الدينية أو القومية بحسب معتقداتهم أو قومياتهم الشخصية) ورجعت تشكيلاتها الادارية الى العدول عن أصول المركزية المفرطة التي تمسكت بها الاستشارة من أجل الوقوف على صغائر الامور وكبارها، وربط الناس جميعهم بها، الى سياسة توسيع الماذونية المعتدلة واناطة البعض من الأمور والقضايا الشخصية أو الأعمال والخدمات المحلية في مجالس القرى والنواحي والاقضية والألوية كل حسب درجته وفتح المجال أمام الهيئات العليا من هذه المجالس للاشراف على شؤونها المحلية والمداولة وابداء الرأي والملاحظة الى الحكومة المركزية بشأنها لكي تشعر المناطق الادارية باشتراكها في ممارسة الحكم ولكي تزول من الأفكار التأثيرات غير الملائمة المنبعثة من إماتة مجالس النواحي والقرى وشلل مجالس الادارة وتحديد حق ادارة البلديات فيبدء القوم حينئذ يشعرون بأن خطة الحكومة لا ترمي إلى اذلال الأمة واستعبادها وإنما يقصد بها التعاضد معها في سبيل تأييد حقوقها والوصول بها الى الدرجة التي تؤمن لها هناءها وسعادتها.

ان عدم قابلية أكثرية السكان واستعدادهم في الحاضر لممارسة هذه الشؤون لا يكون أبداً وسيلة لتنزع هذه الحقوق منهم واقامة موظفي الدولة مقامهم في ممارستها بل قد تكون سبباً لجعل الحكومة نفسها معلماً ومرشداً لهم أثناء مزاولتهم إياها ومراقباً شديداً عليهم لمنعهم من الاساءة في استعمالها وقد تكون أيضاً مداراً للتفكير في تعيين حدود هذه الوظائف التي ستناط بهم في بادىء الأمر على أن تزاد وتوسع لهم تدريجياً في المستقبل بنسبة التقدم الذي سوف يطرأ على حالتهم، ولكن على كل حال يجب البدء حالاً بفتح الباب لهم ثم السعي لاقناعهم بأن النية متجهة نحو التوسع التدريجي في منحهم هذه الوظائف التي يجب أن يزاولوها هم بأنفسهم، حتى لا يبقى مجال لدعاة السوء لأن يجعلوا الحكومة جميع المسؤوليات الصغيرة منها والكبيرة، أو أن يظهروها لأعين السواد الأعظم الجاهل الذي علاقته بالحكومة محصورة في الغالب بقضاياه واختلافاته البسيطة أو مكلفياته الجزئية بصورة الظالم الغاشم المتسلط على حريته وأمواله بل بعكس ذلك إن سواد الشعب سوف يرى أن وجهاءه وزعماءه وقادة افكاره

مشتركون مع الحكومة في حسم تلك القضايا وتنفيذ تلك الأحكام فيطمئن ولا يجد سبيلاً للتذمر والشكوى من الحكومة فقط، ومن جهة اخرى نكون قد خطونا خطوة رصينة في سبيل تكوين شعب عراقي يتمكن من القيام بواجباته مباشرة. أنا لا أنكر الصعوبات التي تعترض تنفيذ هذه الخطة في بادىء الأمر ولكن العزم المقرون بالعلم والمؤيد بالتجربة والاختبار كفيل بانجازها بصورة تدريجية اذا افسح المجال للعراق بعد دخوله حظيرة العصبة.

٢ ـ اعتقد بأن فكرة الشباب المتعلم هي التي يجب أن يعتنى بها تمام الاعتناء لأن أصحابها هم عماد المستقبل ورجاله ولكن من موجبات الأسف أن أكثر أفراد هذه الطبقة الشاغلون منهم لمناصب الحكومة وغير الشاغلين تنقصهم التجربة ويعوزهم الاختبار لحالة الطوائف والأقوام والبيئات المكونة للعراق وشعبه، فهم قليلو الاختلاط بالناس، ومحرومون من التنقل في أرجاء البلاد لأجل الوقوف على حالتها وحالة سكانها وعلى نزعاتهم المختلفة، فالأكثر منهم يستند على ما يقرؤه في الكتب والصحف أو على ما يسمعه من الأفواه، فيودّ أن ينسج على منوال ما نسجه رجال الأمم والأقوام المجاورة أو المتباعدة غير مفكرين بأن حالة تلك الشعوب تختلف عن حالة شعبنا، ووضع حكومتهم وما لديها من القوة لا يقاس بحكومتنا وبما لديها من السلاح والعدة بالنسبة للسلاح الموجود لدى الشعب، لذلك أرى أنه على جانب عظيم من الحكمة ما ورد في المخطرة الثمينة من لزوم التبصر واتخاذ الحيطة في الاجراءات التي ترمي إلى زعزعة التقاليد المألوفة وتبديل العنعنات المحترمة بنظر الشعب مرة واحدة، ما لم تحصل الحكومة على قوة كافية من الوسائط الاجرائية وعدد عظيم من العراقيين المتعلمين والمثقفين الذين يمكنهم تأييدها عند الحاجة للوقوف في وجه أصحاب المصالح الشخصية والأفكار الرجعية الذين لا يرغبون في تقدم الشعب في مضمار الحضارة المؤدي الى ازالة نفوذهم وسيطرتهم.

فإلى أن يتيسر ذلك والى أن تتغلب الفكرة العراقية على الفكرة القومية أو الدينية أو المذهبية يجب أن يشعر الشيعي والسني وغير المسلم وكذلك العربي وغير العربي أن حقوقه وتقاليده وأوقافه مضمونة ومحترمة وأن الحكومة ليست خاصة بفرقة دون سواها، وأما التوظف في الحكومة أو حق الانتخاب للمجالس التشريعية والمحلية فيجب ان يكون بعيداً عن فكرة الطائفية أو المذهبية، وأن يكون منوطاً بالكفاءة

والمقدرة الشخصية وبثقة جمهور الناخبين فقط، وان الحكومة أرفع من ان تمارس وظائفها من أجل منفعة شخص أو طائفة على حساب أو ضرر شخص آخر أو طائفة أخرى.

فبمثل هذه الأفكار يجب ان يتشبع رجال الدولة وموظفوها، وأن يسعوا لالقائها في أفكار الناس، وأن يبرهنوا على صحة الأقوال بالأعمال التي يقومون بها، إلى أن تزول النفرة القديمة المتأصلة في نفوس العراقيين ضد أي حكومة أو سلطة كانت، وإلى أن تثقف العقول، ويستأصل داء الميل إلى الرياء والكذب والفوضى من القلوب التي اعتاد أصحابها أن يتذرعوا بها تخلصاً من شر الحكومة التي لم تكن تظهر لهم إلّا بصفة جاب موكل باغتصاب أموالهم أو بصورة حاكم متجبر أو شرطي (جاندرامه) قاس يسومهم سوء العذاب ويذيقهم من التنكيل والارهاق الواناً.

هذا ما خالج ضميري عندما قرأت المقدمة المدبجة في صدر المخطرة المشار إليها وها اني أتقدم بعرض الملاحظات المتعلقة بالمسائل الهامة التي ارتؤي أنه قد حان الوقت للقيام بتنفيذها:

١ ـ الجيش: لقد اتفقت الكلمة على ان العراق في حاجة قصوى إلى جيش يستطيع حفظ النظام الداخلي ويتمكن من صد، أو على الأقل توقيف، اي تعرض خارجي يأتي من إحدى البلاد المجاورة للعراق إلى أن تلتحق القوى المحالفة من أجل القيام بالدفاع القطعي، ولأجل الحصول على هذه النتيجة كانت الآمال متجهةً نحو قبول الخدمة الاجبارية، وقد أدخلت هذه الامنية في جميع المناهج الوزارية ولكن مع الأسف أن الظروف السياسية المتولدة من الوضع الشاذ كما أنها لم تفسح المجال للعراق لأجل تنفيذ قانون الخدمة المذكور أظن أنها حالت دون اصلاح شكل الجيش الحاضر والاستفادة منه بدرجة تتناسب مع المبالغ العظيمة التي صرفت عليه من خزينة الدولة.

اني منذ بدء تشكل الحكومة العراقية لم أكن قط معارضاً في إيجاد جيش قوي يقوم بما تتطلبه منه حاجة البلاد ولكني كنت ولم أزل ادعى بأن المبالغ التي تخصص عادة في كل ميزانية سنوية للجيش في شكله الحالي هي أكثر بكثير مما يتطلبه عدد الوحدات وأفرادها، وأن الأسس التي وضعت عند تأسيسه قد سير فيها على نمط

الجيش البريطاني، والاسراف الكبير الذي اشتهر به ذلك الجيش، وان المبالغ المرصدة في الميزانية تساعد الرجال العراقيين على تزييد عدد الافراد في الجيش وتكثير معداته اذا التزموا الاقتصاد وصرفوا النظر عن الأمور الكمالية وجعلوا الجيش الحاضر ظهيراً للشرطة في استتاب الأمن، وأداةً بيد الحكومة لتطبيق قانون الخدمة العامة عند حلول الوقت.

٢ - إن هبوط مستوى المعيشة والضيق الاقتصادي يجعلان المتطوع يقبل براتب اقل بكثير مما هو مخصص الآن إلى الجندي فيجب انتهاز هذه الفرصة لتزييد وحدات الجيش وعدد أفراده قبل فواتها ولا نبقى مكتوفي الأيدي كما وقع سابقاً ثم نعود فنكرر الاسف على مرور الوقت وضياع الفرصة.

ان تزييد عدد الوحدات والافراد في الأيام الأخيرة بالرغم من تنزيل المخصصات في الميزانية من ١٥٠ لك الى ١١٠ الكاك الأكبر برهان على فساد النظرية التي تمسك بها أركان الجيش منذ بدء تشكل الحكومة العراقية والقائلة بعدم امكان تزيد القوة بدون تزييد المخصصات خلافاً للمدعيات التي سردت اليهم في إمكان ذلك قبل وقت طويل.

٣ - وضع التقاليد والشعائر الدينية في ميزان واحد: لقد عرضت فيما تقدم لزوم معاملة الحكومة لكافة الطوائف على السواء وعدم وضع طابع مذهبي أو ديني خاص على اجرائها، وترك ممارسة هذه الأعمال الى مجالس الطوائف نفسها كما هي متروكة اليوم الى الطوائف غير المسلمة.

وعليه أرى ان الأنسب جعل دائرة الأوقاف غير حكومية وتأسيس مجلس اسلامي سني وتفريق الشيعة وربطها بمجلس جعفري خاص، وأن تناط الأحوال الشخصية بقضاة أو مفتين أو نواب عن المجتهدين تابعين لهذه المجالس كل حسب طائفته كما هي الحال الآن لدى الطوائف غير المسلمة، وان تترك حماية الشعائر وتعمير المزارات والعتبات وترفيه أحوال العلماء وطلاب العلم إلى المجالي المذكورة وان تحتفظ الحكومة الاشراف عليها وتنفيذ مقرراتها الموافقة للأصول وتأييد اجراءاتها وتشبثاتها الملائمة للمصلحة العامة، حتى لا تبقى الحكومة مسؤولة بصورة مباشرة عن كافة النتائج المتعلقة بهذه الأمور أو عن المسائل التي يتطلبها البعض من هذه الطوائف

وليس بالامكان اسعافها بل تكون التبعة ملقاة حينئذ على عاتق المجالس المذكورة التي هي من الطائفة نفسها.

٤ ـ إني أتمنى انجاز تطبيق قانون الاستهلاك بنجاح وزيادة على ذلك أرغب بأن تتمكن الحكومة من ايجاد بعض المنابع لضريبة توضع على منتوجات الأغنام لتقوم مقام (الكوده) أيضاً، لأني اعتقد بامكان تنفيذ هذا المشروع بعد تذليل الصعوبات التي قد تظهر عند تطبيق اصول الاستهلاك الجديد.

وبهذه المناسبة أود أن ألفت الأنظار إلى وجوب اعادة النظر في عدد الألوية وملحقاتها وعدد الموظفين فيها، وفيما يمكن تخفيضه من عدد أنفار الشرطة والوسائط الاجرائية الأخرى، بعد تطبيق أصول الاستهلاك الذي سيخفف عن دوائر الدولة القسم الأعظم من الخدمات الملقاة على عاتقها، فتتخلص الخزينة من المصاريف الباهظة الموجودة الآن والتي أعتقد أن حالة العراق المالية في المستقبل سوف لا تتحمل الاستمرار في ادائها.

٥ ـ اتفقت الكلمة منذ زمن بعيد على تقسيم الأراضي وربط الزراع بها، وكان اصدار (قانون تمليك المغروسة) عربوناً لاتمام المشروع الواسع الآخر، والمؤثرات التي حالت دون تنفيذ ذلك القانون اؤمل بأنها سوف لا تتمكن من عرقلة المشروع المذكور الذي أظهرت السلطة الاستشارية ـ لغايات سياسية ـ عدم ميلها إليه في مواقف عديدة. وليس بالامكان إبداء ملاحظة في هذا الموضوع قبل الاطلاع على تقرير السير ارنست داوسن الذي سيتخذ أساساً لحل هذه المعضلة.

٦ ـ لا أعلم القصد من تأسيس مدرسة الموظفين، ولا أعلم لأيّ قسم من الموظفين المختلفي المسالك ستكون مخرجاً، فإذا أُريد بأن تكون محلاً لتدريب الموظفين الاداريين وتمرينهم فلا بأس بها، وقد تكون أداة صالحة جداً لتزييد مقدرة أولئك الموظفين وتثقيفهم، ولكن أتردد في القول (بأنها ستكون مطمّنة لكل سكان العراق وستجعلهم يشتركون في خدمات الدولة بصورة متساوية سواء كانوا سنة أو شيعة عرب أو اكراد) لأن الحكومة اذا أرادت القيام بهذا التقسيم بين المناطق والطوائف فليس باستطاعتها تأمين المساواة التامة لأن الطلاب يختلفون كل الاختلاف لدى الفحص بحسب سعة اطلاعهم وثقافتهم فالقسم الذي لا ينجح لا بدّ وأنه سينقص

من حصة البعض من تلك الطوائف أو المناطق فماذا تكون النتيجة؟ واذا عين هؤلاء المتخرجون من المدرسة الى الوظائف وكان سلوك بعض أفراد طائفة من الطوائف غير ملائم لمسلكه وأريد أن يستغنى عنهم الا تختل الموازنة وتتهم الحكومة بالتحيز والمحاباة. إني أرى ان الانسب ان تجعل الحكومة نفسها فوق القومية والطائفية وان تترك مسألة التوظيف الى الكفاءة الشخصية وان تجعل هذه المدرسة المتصورة محلاً لتدريب الاشخاص المقرر استخدامهم في الحكومة بعد اثبات مقدرتهم لدى الشخص من غير تفريق بين القوميات أو الطوائف التي ينتسبون اليها تطبق الحكومة هذه الفكرة باخلاص وصدق حتى لا تتهم بعد هذا بأنها تظهر أمثال هذه الحسيات الشريفة بالظاهر، وانها تخالفها بالباطن خدمة لشخص أو تأميناً لمنفعة أو التزاماً لطائفة، كما قيل عنها بحق أو غير حق الى الآن.

٧ ـ يجب البدء فوراً بتوسيع وتثبيت صلاحيات المجالس الادارية في الملحقات وتأسيس مجالس القرى في مراكز النواحي وملحقاتها واحداث مجالس في مراكز الالوية قد تكون مشابهة للمجالس العامة في الولايات العثمانية السابقة، ويمكنني أن أعرض بعض الأسس المتعلقة بهذه المجالس على سبيل المثال:

إن القضايا العامة التي لها علاقة مباشرة مع أهل اللواء أو القضاء يجب عرضها على مجالس الادارة واناطة تنفيذها بمقرراتها، وان لا تكون آراء المجالس في هذه الأمور ذات صيغة استشارية محضة كتقدير أقيام المحصولات واحالة المناقصات والمزايدات وتقسيم المياه بين الزراع وتعيين أوقاتها وتعيين المستخدمين ذوي الصلة المباشرة مع الناس كمأموري الجباية والتعداد والقونطرول وغيرهم وحسم الاختلافات التي تحدث بين الموظفين والمكلفين عند تطبيق القوانين التي تحمل الشعب بعض الخدمات كقانون مكافحة الجراد وقانون الري وقانون استخدام العملة بصورة اجبارية عند الكوارث. . الى غير ذلك من الوظائف في قانون ادارة الألوية او القوانين المالية وغير المالية الأخرى.

ب ـ يحدث (مجلس لواء) قوامه هيئة مجلس ادارة اللواء وأربعة أعضاء من كل من مجالس ادارة الأقضية واثنان منهم من المنتخبين وعضوان من كل مجلس بلدي ومن كل غرفة تجارية أو زراعية متشكلة في مركز أو في ملحقاته والنواب المنتخبين من قبل

أهالي ذلك اللواء إلى مجلس الأمة يجتمعون في السنة مرة تحت رئاسة المتصرف للمداولة في الشؤون العامة المتعلقة باللواء وعرض نتائج مباحثاته على الحكومة، وإذا ظهرت بوادر النجاح من وجود هذه المجالس، وأظهرت هيئاتها الكفاءة المطلوبة فيجوز أن تمنح صلاحيات أوسع تتعلق بأمور المعارف والصحة والاشغال والري ويمكن أن تكون لها ايرادات ومصارفات خاصة ميزاتها محلية خاصة لأجل القيام بالخدمات التي يتطلبها اللواء والتي لا حاجة إلى اناطتها بدوائر الحكومة المركزية التي يجب عليها أن تباشر الشؤون العامة فقط.

جـ - تحدث مجالس في مراكز النواحي والقرى تحت رئاسة المدراء والمختارين كما كانت سابقاً، يُناط بها حسم القضايا والمنازعات البسيطة صلحاً أو حكماً لدرجة محدودة والتوسط بين الزراع والفلاحين لحل مسائل الاسقاء والمساعدات وتقسيم الافدنة وبث الوصايا ونشر التعليمات التي توصي بها أو تصدرها الحكومة وتقسيم الخدمات الملقاة على عاتق السكان فيما بينهم بصورة عادلة كمسألة تحكيم السداد وصيانتها والمراشنة في الري ومكافحة الجراد والاشراف على مسائل التلقيح ضد الامراض السارية وغيرها من الأمور الطفيفة والمتعلقة بالأهالي حتى لا يضطر هؤلاء الى مراجعة الموظفين في الألوية والأقضية والنواحي عن امثال هذه الأمور الصغيرة وتحمل المشقة والتأخر عن العمل بسببها.

د - لدى الحكومة مفتشون اداريون عديدون يجب سوقهم باستمرار الى الملحقات لتفتيش ومراقبة أعمال هذه المجالس بدقة وامعان شديدين لكي يمنعوا ما يمكن درئه من الاساءة في استعمال هذه السلطات في بادىء الأمر ويصلحوا ما قد يتولد من الخطيئات في التطبيق بسبب الجهل فيكونوا معلمين ومرشدين لاعضاء هذه الهيئات ومعلنين لآراء الناس بأن الحكومة لم تسلمهم الى أيادي البعض منهم لكي يسيطروا عليهم ويعبثوا بمقدراتهم. وأظن أن تطبيق هذه الأصول في القرى وتوسيعها بين العشائر سوف يخفف في بادىء الأمر من شكوى الرؤساء من عدم اشراكهم في أمور عشائرهم وفي عين الوقت بسبب الانتخابات التي ستتكرر لانتخاب رؤساء واعضاء هذه المجالس سينجح من بينهم من هو أكثر لياقة شخصية، وازيد خدمة للمجتمع.

هـ ـ من الضروري الاسراع بتعديل قانون العشائر الحالي واناطة حسم القضايا الطفيفة بهذه المجالس، والهامة منها بهيئات خاصة تتألف في مراكز الألوية والأقضية بصورة قانونية كمحاكم خصوصية لحسم هذه المسائل قوامها الحاكم العدلي المحلي وأربعة أعضاء ينتخب كل عضوين منهم أحد الطرفين من بين العدول الذين ينتخبهم مجلس الادارة لمدة سنة ويبلغ اسماءهم الى الحكام، على أن تكون مقررات هذه الهيئات تابعة للتدقيق في الهيئات التي فوقها درجة، وأن يكون للموظفين الاداريين حق الاعتراض على هذه المقررات وطلب تعديلها أو تبديلها من قبل الهيئات التي هي أعلى درجة من الهيئة التي أصدرت الحكم. وبهذه الطريقة قد فرقنا بين القوتين القضائية والاجرائية التي هي من الأسس الهامة لتأمين العدل بين الناس.

٨ ـ ان الحكومة العراقية منذ تشكلها الى الآن قد مارست مهمتها تحت تأثير معاهدات وأحوال شاذة وقوانين وأنظمة مختلفة، وباستطاعتي أن أسمّي البرهة التي مرت علينا بـ (دورة التجارب) لأن العراق كما أنه أبدل المعاهدات مع الحكومة البريطانية مرات عديدة عدل وأبدل الكثير من القوانين والأنظمة بما في ذلك احكام القانون الاساسي الفرعية خلال السنة الأولى من نشره. ان قبول الهيئة التي أعدت لائحة الدستور والمجلس التأسيسي الذي أقره لمبدأ تعديل الأمور الفرعية خلال سنة واحدة وامكان اجراء التعديلات الأخرى بعد مرور خمس سنوات على الأقل كان يقصد به افساح المجال للحكومة والشعب وان يرافقا كيفية تطبيقه ويجربا الاشكال والأسس التي وضعت فيه وما قد يظهر خلال ممارستها من فوائد ومحاذير حتى يكون التعديل مفيداً ومستنداً على نتائج محسوسة وملموسة وان لا تكون التعديلات التي تدخل على الدستور وليدة الاستعجال أو التهيج الفكري قبل الممارسة والتجربة. فبالنظر للتجارب التي مرت وللأسباب التي لا تخفى على المجتمع أرى انه من الضروري أن يعدل الدستور وأن تبدل طريقة الانتخاب بتعديل قانونه ايضاً. لقد سبق لي أن أبديت ملاحظاتي حول النقاط التي يجب تعديلها في الدستور وقانون الانتخاب وباستطاعتي ان اذكر المهم منها فيما يلي باختصار:

أ ـ يجب اخراج دائرة الأوقاف من بين دوائر الدولة كما سبقت الاشارة اليه.

ب ـ جعل الوزراء ضمن موظفي الدولة ومنع اجتماع الوزارات مع النيابة

لكي تنقطع التحريكات والمجادلات بين النواب التي يقصد من ورائها الحصول على الكرسي وحتى لا يتهم من يريد الخدمة ويقوم بالمجادلة والمخالفة النزيهة بالسعي للحصول عليه. وليتمكن أرباب الاختصاص الذين سبقت لهم الخدمة في مرافق الدولة ان يأتوا إلى الوزارة حسب اختصاصهم وان يقوموا بتدوير شؤونها بصورة مرضية لكي لا يبقوا وجلين من أجل مناصبهم فيصبحوا ضعافاً ازاء النواب بشرط أن يكون الوزراء مسؤولين في كل وقت أمام مجلس النواب وان لا يمارس الوزير مهام وظيفته ما لم يحصل أولاً على ثقة المجلس فإذا لم يوليه اياها لا يباشر شؤونها بل يرجع إلى وظيفته.

د ـ يجب اعادة النظر في مدة اجتماع المجلس السنوي والأوفق أن تكون المدة تشمل السنة جميعها وان تقسم المخصصات السنوية على الشهر يتقاضاها أعضاء المجلس مشاهرة.

وأما مسألة حل المجلس فتقيد وتحدد بأحوال خاصة وصورية كحصول الاختلاف بين المجلس وبين وزارتين متعاقبتين على مسألة هامة وأصرار كل من الحكومة والمجلس على رأيه، وإذا قضت الضرورة بالرجوع الى رأي الأمة بطريقة تجديد الانتخاب أو اسقاط المجلس لوزارتين بالتعاقب خلال ستة أشهر وظهرت صعوبة في تشكيل وزارة اخرى تتمكن من السير مع المجلس.. الخ.

هـ ـ ان الانتخابات العديدة التي جرت خلال السنوات الماضية أثبتت ان رجال الدولة وموظفيها لم تتضح لديهم حتى الآن فكرة الخضوع للقانون وروح الحرمة لحقوق الشعب كما وانها أظهرت عدم قابلية الشعب وعدم اهتمامه في أمر الدفاع عن الحقوق التي منحه إياها الدستور ومن جراء ذلك أصبح مجلس النواب آلة بيد اي حكومة كانت، وأضحى الشعب لا يرى أي صيغة تمثيلية له في أمثال هذه المجالس، واعتقد ان طريقة الانتخاب الحالية واستمرار المجلس على حالته الراهنة لا ترجى منها أي فائدة للبلاد، هذا إذا لم نقل بالاضرار العظيمة التي تنجم عن ذلك. ان قولي هذا لا يعني بأن الطريقة التي اشتركت في وضعها وايجادها مع اللجنة الخاصة عديمة الفائدة من حيث هي، وانما ظهر لنا بعد التجربة انها لا تتناسب مع مستوى البلاد الاجتماعي، وثقافة الموظفين العقلية والمدنية، ولذلك يتحتم على من يهمه مستقبل المملكة ان يفكر ملياً في ايجاد طريقة انتخابية قد تكون أكثر ملائمة لحالة الشعب،

وتجعل تدخل الموظفين أقل تأثيراً على الناخبين، كترك انتخاب الطوائف الى منتسبيها (لأن الفكرة التي يرمي اليها قانون الانتخاب يجعل النائب ممثلاً لجميع الأمة لم تطبق حقيقة، ولم تأت بالفائدة، بل بقيت الطوائف متمسكة بطائفيتها في البلاد، وحتى لدى (جمعية الأمم) وتخصيص نائب واحد عن كل منطقة انتخابية وابطال الانتخاب الثانوي وجعل الانتخاب على درجة واحدة (وفي هذه الحالة يجب التفريق بين المناطق المدنية والمناطق التي تقطنها العشائر فقط وتعيين طريقة انتخاب خاصة بكل منهما) والاهتمام في الصفات المؤهلة للنيابة مع وجوب تمثيل المهن والمسالك المختلفة في المجلس. . الى غير ذلك من التفرعات.

٩ - إذا زادت أسباب الشكوى وموجبات التذمر وكانت أعمال الحكومة أقرب إلى تطمين رغبات الشعب وكان رجالها ذوي مكانة يستطيعون معها نيل ثقة القسم المهم من الجمهور فإن (الانتقادات المعقولة منها وغير المعقولة وتشويه الحقائق وتضليل الشعب) تخف تدريجياً الى ان تزول او لا تجد آذاناً صاغية إلى التلفيقات وتبقى مستعدة لتلقي الوساوس وحينئذ تكون اكثرية الناس أشد ميلاً الى النقد النزيه وأقوى نفرة من التضليل والتهويش.

ولكن اذا استمرت الحالة على ما هو ادعى إلى شكوى الجمهور وتذمره واريد بذلك تضييق السبل وسد المنافذ على المنتقدين بوسائل القوة والصرامة فقط نكون حينئذ قد وضعنا قوة التذمر والشكوى تحت الضغط التي يسوق ولا شك اصحابها الى السعي المستتر والتشكيلات الخفية لايجاد الثغرات التي تمكنهم من التنفيس عما تكنه الصدور وقد تتولد من ذلك انفلاقات هدامة ذات عواقب سيئة على المجتمع، وفي التأريخ عبر وأمثال كثيرة تؤيد ذلك.

١٠ - إذا تباعد رؤساء القوة الاجرائية عن الإجراءات وانفصلت هذه القوة عن القوة التشريعية وحصرت مساعيها في ما فيه خير البلاد واحترمت القوانين وطبقتها على موظفيها بالعدل والإنصاف فإن الموظفين سوف يتباعدون كل التباعد عن الحزبيات وسيكونون وسائط عاقلة مميزة ونافعة لتنفيذ الأوامر القانونية التي تصدر إليهم وللقيام بالواجبات الملقاة على عواتقهم بإرادتهم وإختيارهم، ولكن إذا كان سير الحكومة نفسها على ما يناقض ذلك فمن المستحيل أن نحصل على موظفين عديمي

الحس والشعور كالآلة الصماء ينقادون بلا قيد ولا شرط، وإذا فرضنا إمكان الحصول عليهم فسيكون وجودهم أشد ضرراً على الحكومة والبلاد، وستكون نتائج أعمالهم من اسواء العواقب. وباستطاعتي أن أدّعي بهذه المناسبة أن الاستشارة ومن ورائها الحكومة العراقية ثم أشخاص الوزراء الكبار وكبار الموظفين هم العامل الأكبر في إفساد سلوك الموظفين وانقسامهم وبلبلة أفكارهم وإخلال وحدتهم وذلك بسبب الصعوبات والإلتزامات غير المعقولة التي ظهرت في التعيين والترفيع، والأغراض والحزازات الشخصية التي تجلت في العزل والتحويل، وفي الأمثال السيئة التي أتى بها أركان الحكومة وكبار موظفيها خلافاً لأحكام الدستور والقوانين والأنظمة والتعليمات التي صدرت من قبلهم ورشحت بتوقيعهم.

وعند البحث عن الموظفين من الضروري أن نفكر بأنهم ليسوا بخدام لأي حكومة كانت بل هم خدام العدل والمصلحة العامة المتجلية بشخصية الحكومة المعنوية. وأعضاء عاملون في جسم الدولة. لكل منهم وظيفة يقوم بها ضمن الحدود التي تعين إليه في القوانين والأنظمة. فالحكومة التي تريد من موظفيها أن يؤدوا لها الخدمات السخيّة والنافعة يتحتم عليها قبل كل أحد مراعاة القوانين وملاحظة المصلحة العامة في الأوامر التي تصدرها اليوم وأن تكون لهم قدوة حسنة في التمسك بالفضيلة والاعتدال في السلوك وحسن السير مع الخلق.

وأما الملاحظات الواردة في المخطرة السامية حول الأمور الاقتصادية والزراعية فهي ذات قيمة عظيمة وأتمنى من كل قلبي أن أرى الحكومة العراقية ساعية بكل جد وإجتهاد لتحقيقها وبهذه الوسيلة يمكنني أن أشير إلى المنهج الاقتصادي الذي قبلته وزاراتنا في أوائل سنة ١٩٣٠ لكي يطبق في السنوات التالية والذي حالت الظروف دون تطبيقه بل حالت دون قراءته مرة أخرى من قبل رجال الدولة المسؤولين، وإلى لائحة قانون (حقوق ووجائب الزراع) التي تركت في زوايا الإهمال. وأدعو الله أن يقرن هذه الملاحظات بالنتائج الحسنة الفعلية وأن لا تكون كأمثالها من التعليمات والمباحثات السابقة التي بقيت بالأقوال من غير أن تظهر لها أي نتيجة محسوسة.

بغداد في آذار سنة ١٩٣٢.

الملحق رقم (٢)

كتاب الملك فيصل الأول

إلى جعفر العسكري

حول مفاوضات المعاهدة العراقية - البريطانية في سنة ١٩٢٧

لندن ٤ دسمبر ١٩٢٧

سمحنا للانقلاب الى كيانات اباها ولكن اتعب في معرفة الوضع لوثقت بانه راحة لديك وليست هذه

اول مرة ترجع من الطريق لعلة ومرض اذ لابد انك تتذكر رجوعك من بورسعيد في طريقك واياي

الى اوروبا قبل سبعة اعوام نرجو ان يكون في ذلك خير للجميع .

احب ان اخبرك مفصلاً عن ترتيبات سفري . يوم الاثنين اي ثاني يوم من رمضان لندن تعمم ان اسأل

معذرتي عن السير اوستن تشمبرلين على الفطار وقد حضرت على اعادة مائدة تشمبرلين وجرجي . في باريس وفي لندن

كانت المباحثات محصورة خارجة في صدرنا ومع رجال السياسة وفي آخر الفطار بدأنا نتكلم في جيش الامم وعن الملكية

وما يتوقع ان نعمله في المستقبل وعما استجد من الحوادث نقول : اني اذا نظرت الى المستقبل والى الماضي التي يجب ان نعمل

والتحولات التي بها لا من تأثيرات الماضي ولكن اذا نظرت الى الماضي والاعمال التي قضت بها وقطعت

بواسطة جيش الامم والتحولات التي حصلت وانتهت على يدها الغلبة على الياس واذا نحن الموفقية في مواقفنا

جيش الامم في سبيل منح الوفاق والتحولات وانتم في الامم وفي هذا

والى اي اثر وصلت جيش الامم كما انه وصفتم في المعاهدة . جيش الامم لا يناظر ست او سبع سنوات وانتم في

العمر . فاذا نظرتم الى المستقبل معظم الامور عندكم ولكن اذا نظرتم الى الماضي لا شك بانكم تعترفون والعالم معكم بانكم قطعتم

مراحل طويلة لا يستهان بها فواجب عليكم ان لا تتراخوا ولا يصيبكم الياس ونحو هذا احب ان اخبرك بانه تمكن

من انقطاع المذاكرات ومن رجوعك لهذه المدة . فشكرته على ملاحظته الحقيقة واجبته بانه اشعر بتأثر

يكون ذلك من تشعرات . حيث ان هذا الشعور لم تحرمه فيه شخصيا ولكن اظهرت له ما كنت اشعر به والم

على استعداد للدوام على المذاكرات الا انه رأى ان صحة صاحب الجلالة ستمنعه من ان يحضر ، وبقي رغبة في

في شغله باعمال المفاوضات . في اواخر سنة هذا في صحة جيدة ، ونحو رغبته وصراحته في الاي

الوقت الحاضر وعلى كل احب ان نظر في الاوضاع الثانية . فقلت له ان حاضر للمباحثة . اجابني انه يرغب في الا

وانه عاد الآن من الطعام ستكون مع زيد وكيل المستعمرات . ورأيت هذه الفرصة ثمينة حيث نعلم انه في باريس
لندن كما جئنا بالسيد لمشاهدة المذاكرة ولكن فهمنا من السر همفريز حينما ان لا امكان لذلك .
بعد الغداء اراد … ان يتكلم مع المستر بيفورد ولكن لم يجده لانه كان قد ذهب لشغل شخصي وعلى اثر ذلك … السيد
… و… ودوبس وتكلم معهم ثم رجع الى وقتي ان اعطاهم التعليمات اللازمة . في الساعة … كانت
… الى الحادثة … وقد طلب الى ان ازوره بعد … لتناول الشاي عنده فذهبت في الساعة ٥٫٤
من ذلك اليوم وجرت مباحثة بيننا في ديوانه رأيت منه رغبة شديدة … في كيفيات انه قال : انه عار
علي جيئنا ان نرجع بدون نتيجة انى ما … هو ان لا ضعف اعدائنا علينا . انى واثق بانك اذا رجعت في هذه الحالة
سيحصل الدمار . ارجو ان لا ترجع الا بعد عقد المعاهدة . ان العرب ينتظرون منك الصبر وطول البال . اجبته
ان هذا اصبح لدي . واني كنت عازما على عدم الرجوع ولكن … العراق اجبرني . هذا وانى ارجو ان لا تتركني
على حكمة انكم وان تتعهد باشغال المذاكرات . فقلت ان صداقتك الشخصية وما اراه فيك من الاخلاص يجعل ان
انزل عند رغبتك . انى ساترك حكومة انكم بشرط ان تتعهد حكومة صاحب الجلالة … في باقي الحوادث . اجاب
انه سيعمل على ذلك ويبذل مجهوده . وبعد ذلك ذهبت الى داره وتناولت الشاي مع امرأته وبنته وقد
… بعد خروجي من عنده انه يرغب في … ان يخبر … بالعود في اشغال المذاكرة . فقال جعفر باشا
تلغرافيا … حيث نحن عسكريا حكيما ان يرجع فورا … ان تقول الترتيب اللازم فلتتكلم
… شكرا ووصلت الى الاوتيل . وفي الساعة … من نفس اليوم اتاني السر همفريز واخبرني ان المستر
… بعد خروجي … بلزوم المباشرة في المذاكرة … انى صرفت النظر عن حكومة …
قلت نعم ولكن بشرط ان تتعهد … في باقي الحوادث فقال انه يرغب ان تجري المذاكرة غدا الا انه من الواجب
… اوريس بيفورد وقررنا البدء بالمذاكرة يوم الاربعاء وارسلت برقية مستعجلة الى الملك فيصل بما
في ما سبب ليرجعك فورا من الباخرة ولكن مع الاسف … ذلك من تفضيل … اخبرنا ان البرقية وصلت
بعد سفر الباخرة فتأسفنا . وفي يوم الثلاثاء ٦ اخبرت انهم ينتظرونني في وزارة المستعمرات ثاني صباحا

يوم المذاكرة وان امس بيغ سيحضر تعب . مع اني عالم بعطشكم لم ار اذا [illegible] موقفا

في الوقت ولذلك ذهبت تأخذيهم وعاد اورس بيغ و [illegible] وشكره وقبل . ونعم تعديلة حسب ما اتفقنا

مع انكم الذي تراه .

بوقتك يا صديق ان هذا الموقف ما كنا نقصده وان الله معيننا . نعم انك ترغب في ان [illegible]

اكثر من هذا ولكن ما الموقف هذا [illegible] ولم يبق امامنا الا ان نتفق . الحمد لله عدنا المعاهدة

جديدة ما كان اعد [illegible] منذ شهرين وذلك بجهودنا والوقت مع الاسف [illegible] بدون [illegible] هذا

كانت من حيث لا نعرف [illegible] وكانت [illegible] عونا علينا . فقد تمت هذه الاتفاقية وحصل وانه كنا

لم نأت بما لا يستطيعون انتم انجازه ولكن انتما [illegible] نقدر الوضع ولدى علي [illegible]

بدلا من ان نستطيع . وبعد انتظرنا ان نوقع على المعاهدة ونرجع فورا على بركة الله .

وتوفيقه . الى اعتقد ان تضمين هذه الصورة وعودتك حقق من [illegible] ولولا ذلك لما [illegible]

عن شيء . اني اشكرك شكرا زائدا باسمي وباسم الوطن لانك لم تقصر في القيام بواجبك وفي تحمل

المسؤولية وشدائدها والام وقد رجعت فقدانها توسطي وعاد الصلح الى بغداد . هذا [illegible]

رجالنا يتشفعون كذلك . اما الاتفاقيات فلا لزوم للتشاور . تقرر ان تترك المذاكرة في بغداد

رأيتهم جميعا مسرورين من هذه النتيجة ورأيتهم شاكرين لك كثيرا ومعظمهم متخوفين من ان لا نوقع عليها .

امس اتاني اورس بيغ الى الاوتيل وقال لي [illegible] ولكن اخشى ان [illegible] بالمقاطعة ولا يقبل

به . فقلت له لا [illegible] بها [illegible] وايام ولا [illegible] وبيدهم [illegible] تكتب اشارة في [illegible]

ولكنه يجب ومفاوضاتها لا يجعلني ان اكون على اطمئنان تام . نعم ان المعاهدة لم تأت حسبما

نطلبها ولكنا لا [illegible] كونوا واثقين .

لذلك [illegible] ولتوقيعه [illegible] ولكن لا [illegible] . لا تزيد من شكرا ولا اشواقا

اتحد بين [illegible] وسطنا والعارف لا يعرف والله ولي التوفيق .

الملحق رقم (٣)

مقابلة جعفر باشا الوداعية

مع وزير الخارجية البريطاني

ترجمة المذكرة التي أعدها المستر جورج رندل، رئيس الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية، لوزير الخارجية بمناسبة المقابلة الوداعية لجعفر العسكري معه:

«إن جعفر باشا الذي كان وزيراً مفوضاً للعراق في فترات متقطعة لمدة تبلغ عشر سنوات[١] تقريباً سيحضر في الساعة الثانية عشرة والنصف من يوم الاثنين ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٤ لتوديع وزير الخارجية قبل عودته إلى بغداد، ربما بصورة نهائية.

٢ ـ ولعل وزير الخارجية على علم بسجل جعفر باشا المدهش والرومانتيكي نوعاً ما، ولكنه يرغب في الإطلاع على الملاحظات التالية ليتذكر ما قد يكون نسيه منها. إن جعفر باشا من أصل كردي، ولكنه ولد في بغداد سنة ١٨٨٥. درس في المدرسة العسكرية التركية وكلية الأركان في استانبول، وواصل دراسته العسكرية في برلين. خدم في الجيشين التركي والألماني وأسرته كتيبة (دورستشاير يومانري) في سنة ١٩١٦. وفي محاولة للهرب من السجن كسرت ساقه، التي بقيت بعد ذلك وفيها شيء من العرج بصورة دائمية. وهنالك قصة مسلية، وقد تكون ملفقة، وهي ان وزارة الحرب طالبته بعد عدة سنوات بأثمان البطانيات التي أتلفها خلال محاولته للهرب.

٣ ـ إنضم إلى الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل (الملك فيما بعد) بالتعاون

---

(١) ان مجموع المدة التي قضاها جعفر العسكري ممثلاً للعراق في لندن تبلغ سبع سنوات وليس عشر سنوات.

الوثيق مع الكرنل لورنس، وقام بدور بارز وشجاع في تلك المغامرة، وهو يحمل عدة أوسمة عسكرية بضمنها وسام الصليب الحديدي الألماني من الدرجة الأولى، ووسام القديسين ميخائيل وجورج (CMG) ووسام الخدمة الممتازة (DSO) ووسام صليب الحرب الفرنسي (Croix de Cuerre) كما إنه يحمل وسام فارس الملكة فيكتوريا (KCVO).

٤ ـ كان على الدوام مستشاراً مقرباً للملك فيصل وتسنم عدة مناصب وزارية في العراق بضمنها منصب وزير الخارجية ووزير الدفاع.

٥ ـ بينما كانت شؤون العراق تدار من قبل وزارة المستعمرات وواجباته كممثل للعراق في لندن خفيفة جداً، قرر أن يدرس القانون في انكلترة، وقد أكمل دراسته بعد ذلك بخمس سنوات أو ست، مجتازاً الامتحانات اللازمة بنجاح. وله ابن يدرس في جامعة كمبردج وآخر يدرس ـ فيما أظن ـ في مدرسة مرجانت تيلرز (Merchant Taylors).

٦ ـ إن جعفر باشا شخص ذكي، وقد ترك في هذه البلاد انطباعاً جيداً للغاية. وهو فيما يبدو واحد من العراقيين القلائل المؤيدين لبريطانية بصدق، من حيث العطف والقناعة معاً. وهو رجل يتمتع بشجاعة جسمية عظيمة، ولكن المفروض إنه يفتقر إلى الشجاعة الأدبية، وأخذ مؤخراً يميل إلى أسلوب يدل على أقل ما يمكن من المقاومة. ومن المشكوك فيه جداً أن يكون لديه الآن التصميم الكافي، أو قوة السجية، لممارسة أي نفوذ مهم حقيقي في بغداد، إنه سيعين عضواً في مجلس الأعيان، ولا يزال يأمل أن يقوم بدور في السياسة العراقية. ولكن يبدو من المشكوك فيه أن يكون لديه النشاط أو الشجاعة الأدبية للقيام بذلك.

٧ ـ ومن جهة أخرى، هنالك أسباب تدعو إلى الاعتقاد أنه قام بدور مفيد جداً خلال اضطرابات الصيف في سنة ١٩٣٣، ورأيي الشخصي هو أننا مدينون له، في أكثر الساعات خطورة من تلك الأزمة، في تفادي مذبحة عامة للأقليات المسيحية في العراق.

٨ ـ إننا سنأسف لمغادرته.

جي. دبليو. رندل

وعلى أثر المقابلة كتب المستر جورج رندل الملحوظات التالية عن مقابلة جعفر العسكري مع وزير الخارجية معه:

«قام جعفر باشا بزيارة وزير الخارجية في الوقت المعين، كما أجرى مقابلة أخيرة مع السر ر. فانسيتارت الذي سبق أن أرسلت إليه نسخة من المذكرة أعلاه. وقد علمت أنه لم يبحث خلال المقابلتين أمر ذو أهمية سياسية، ولذلك لم يكن من الضروري تدوين محضر. ومع ذلك، فقد أخبرني جعفر باشا فيما بعد أنه أثار مع السر ر. فانسيتارت، ووزير الخارجية، موضوع شكوى العراق لمجلس عصبة الأمم استناداً إلى المادة (١١) من عهد العصبة ضد عدم اعتراف إيران بالحدود الإيرانية ـ العراقية، وأعرب عن الأمل بأن تمنح حكومة جلالته العراق كل مساعدة ممكنة.

وقد زارني جعفر باشا بعد ظهر يوم ١٠ كانون الأول (ديسمبر) مع عطا بك أمين، الذي عاد إلى لبنان بأعمال المفوضية العراقية، ريثما يتم تعيين وزير مفوض جديد، ومن ثم يعود إلى روما مرة أخرى، وقد كلمني جعفر باشا أيضاً عن شكوى العراق إلى العصبة بشأن قضية الحدود الإيرانية ـ العراقية. وقد كررت له ما سبق أن قلته لنوري باشا. وهو إننا نعتقد أن موقف العراق قوي جداً من الناحية القانونية. ولكن هنالك بعض المخاطر المتعلقة برفع شكوى بموجب المادة (١١) من العهد، لأن المجلس قد يقترح نوعاً من التنازلات. إضافة إلى ذلك، فإن الموقف من قناة الروكة ـ التي لم يشملها تقرير لجنة تحديد الحدود ـ لا يعد غير مشكوك فيه تماماً. ومع ذلك فإن حكومة جلالته ستقدم للحكومة العراقية بسرور كل ما في وسعها من مساعدة ممكنة حينما يبحث الموضوع في جنيف.

وقد أعرب جعفر باشا عن أسفه العظيم لمغادرته لندن، ولكنه أكد أنه ينوي القيام بدور مهم في السياسة العراقية لدى عودته إلى بغداد، وقد ترك لديَّ إنطباعاً ينم عن إرتيابه في أننا نظن أنه سيركن إلى نوع من التقاعد الخامل، وعن الحرص على تصحيح أية فكرة لدينا من هذا القبيل.

وقد سبق لي أن اقترحت إرسال مذكرة رسمية لتقديم عطا بك أمين بصفته قائم بالأعمال، ولا شك إنها وصلت الآن.

وربما يستحسن أن نبعث برسالة مختصرة إلى السر فرانسيس همفريز نسجل فيها مغادرة جعفر باشا وتعيين عطا بك أمين قائماً بالأعمال، إذ لم يسبق أن ثبتت هذه التنقلات والتعيينات، كما قد يستحسن إرسال نسخة إلى روما».

جي. دبليو. رندل
١١كانون الأول ١٩٣٤

(وثيقة محفوظة في سجلات وزارة الخارجية البريطانية، في مركز الوثائق العامة برقم E 7396/ 1038/ 93 وتاريخها ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٤ ورقم الأضبارة F. O. 371 / 17869).

الملحق رقم (٤)

نعي جريدة «التايمس» اللندنية

على أثر وصول أنباء مقتل جعفر العسكري إلى لندن نشرت جريدة «التايمس» الصادرة يوم الاثنين المصادف ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ نعياً مفصلاً له، وفيما يلي ترجمته:

جعفر باشا

الجندي والدبلوماسي العراقي

إن الجنرال جعفر باشا العسكري، وزير الدفاع العراقي، الذي قتل بإطلاق الرصاص عليه على أثر انقلاب وقع يوم الخميس الماضي، له سجل غير اعتيادي في الحرب ضد البريطانيين أولاً، ومعهم بعد ذلك، وقد شغل منصب وزير العراق المفوض في لندن مرتين، ووزير الدفاع خمس مرات، وكان جندياً حاذقاً وعطوفاً وقديراً، وإدارياً جيداً، ودبلوماسياً حذراً، وكان لطيف المعشر مرحاً، وله أصدقاء كثيرون في هذه البلاد.

وكان الباشا بغدادياً، ولد سنة ١٨٨٠[1]، وتعلم في الكلية العسكرية التركية في الاستانة. وخلال الحرب ـ التي فاز فيها بوسام الصليب الحديدي الألماني ـ اختاره الداماد أنور باشا لمهمة خطيرة، وهي استشارة السنوسي في ليبيا وبذلك تهديد مصر من الصحراء الغربية (ولم يكن السنوسي قد خضع بعد لسيطرة الإيطاليين الذين

---

(١) كذا جاءت في الأصل في حين ان ولادة جعفر العسكري كانت في سنة ١٨٨٥.

استحوذوا على ذلك الأقليم من الأتراك خلال حرب ١٩١٢). وقد تم إنزاله على الساحل الليبي بواسطة غواصة المانية وبطريقة فيها كثير من المجازفة، ونجح في إقناع السنوسي بالاذعان له وإطاعة أوامره. ولذلك تمكن لمدة ما من إثارة حرب صحراوية ناجحة على البريطانيين إلى أن دحر وقبض عليه من قبل كتيبة (دورست يومنري) خلال القتال في العقاقير يوم ٢٦ شباط (فبراير) سنة ١٩١٦.

واحتجز بصفة أسير حرب في قلعة القاهرة. وفي إحدى الليالي عقد عدة بطانيات ببعضها وصنع منها حبلاً وكان على وشك أن يهرب، ولكن إحدى البطانيات إنفرط عقدها بسبب ثقل وزن الباشا. فسقط وأصيبت إحدى ركبتيه برضوض شديدة لم يتمكن معها من الهرب، ولكنه مع ذلك وطد علاقات حسنة جداً مع آسريه، وألحّ على دفع قيمة البطانية الممزقة، وفور شفائه من إصابته أطلق سراحه بتعهد قدمه بأن لا يهرب. ولما علم بقيام الثورة العربية ضد الأتراك التحق بجيش الملك حسين في الحجاز، وإشترك مع الأمير فيصل ولورنس في قيادة القوات الحجازية النظامية في الحملة العسكرية حتى سقوط دمشق.

وقبل نهاية الحملة قُلد الباشا وساماً من قبل الجنرال اللنبي في مقر قيادته بفلسطين بين صفين من جنود كتيبة (دورست يومنري) .وقد كان اختيارهم كحرس شرف في تلك المناسبة مبعث سرور عظيم لجعفر الذي يتمتع بخفة الروح والميل إلى الدعابة، فأصرّ على أن يحمل وسام الصليب الحديدي في ذلك الأحتفال.

وبعد احتلال حلب عُيّن حاكماً لها، ولما أصبح الأمير فيصل ملكاً على العراق شغل جعفر منصب وزير الدفاع في الوزارتين اللتين ترأسهما نقيب أشراف بغداد من آب (اغسطس) ١٩٢١ إلى تشرين الثاني ١٩٢٢. وبعد ذلك عين الباشا أول وزير مفوض للعراق في بلاط سنت جيمس، وبصفته هذه حضر مؤتمر لوزان حيث تركت شخصيته المهيمنة ومرحه انطباعاً عظيماً لدى الدبلوماسيين وغيرهم من المجتمعين هناك.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢٣ استدعاه الملك فيصل إلى بغداد ليكون رئيساً للوزراء حتى آب (اغسطس) ١٩٢٤ ثم عاد إلى مفوضيته في لندن. وعاد

فأصبح رئيساً للوزراء مرة أخرى وكذلك وزيراً للخارجية من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٦ حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨، وبينما كان في آذار (مارس) من تلك السنة في طريقه إلى لندن لاستئناف عمله الدبلوماسي أوشك على الوقوع في أيدي الغزاة الوهابيين أثناء تأخر طائرته في الرمادي. ولدى عودته إلى لندن درس الباشا القانون وتخرج محامياً في كلية غريز إن (Gray's Inn) في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٣٠. وفي الشهر التالي كان ضيف الشرف، مع اللورد اللنبي في حفل عشاء يجمع منتسبي كتيبة دورست يومنري القدماء، الذين كان يضمر لهم تقديراً كبيراً. وفي آذار سنة ١٩٣٠ استدعي إلى العراق مرة أخرى ليصبح وزيراً للدفاع حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٢ في وزارتي نوري باشا السعيد الذي كان جعفر مقترناً بشقيقته. وأصبح جعفر مرة أخرى وزيراً مفوضاً في لندن التي كانت تلذ له المعيشة فيها كثيراً، وذلك من تشرين الثاني ١٩٣٢ إلى كانون الأول ١٩٣٤ حين عين عضواً في مجلس الأعيان فعاد إلى العراق. وفي آذار (مارس) ١٩٣٥ اشترك وزيراً للدفاع في الوزارة التي سقطت مؤخراً، وكانت المرة الخامسة التي يتسنم فيها هذا المنصب.

THE TIMES MONDAY NOVEMBER 2 1936

OBITUARY

JAFAR PASHA

IRAQI SOLDIER AND DIPLOMATIST

General Jafar Pasha el Askari, the Iraqi Minister of Defence, who was shot after the *coup d'Etat* last Thursday, had had an extraordinary career in the War, first against and then with the British. He was twice Iraqi Minister in London and five times Minister of Defence in the Iraqi Cabinet. He was a shrewd, kindly, and capable soldier, a good organizer, a careful diplomatist, and a most joyous and amusing companion, who had many friends in this country.

The Pasha was a Baghdadi. He was born in 1880 and was trained in the Turkish Military College in Constantinople. In the War, in which he won the German Iron Cross, he was selected by Damad Enver Pasha for the difficult task of organizing the Senussi of Libya (who were then not yet subjected to the dominion of the Italians, who had acquired that province from the Turks during the war of 1912) so as to threaten Egypt from the Western Desert. He was landed hazardously on the Libyan coast from a German submarine and succeeded in persuading the Senussi to accept his authority and obey his orders. He was therefore for some time able to wage successful desert warfare against the British until he was ridden down and captured by the Dorset Yeomanry during the fighting at Agagia on February 26, 1916.

As a prisoner of war he was lodged in the citadel of Cairo. One night he contrived a rope of knotted blankets and was on the point of escaping; but one of the blankets parted under the Pasha's great weight and the fall injured one of his ankles so severely that he was unable to get away. He had, however, established excellent relations with his captors, and insisted on paying for the torn blanket. As soon as he had recovered from his injury he was released on parole, and when he learned of the outbreak of the Arab Revolt against the Turks joined the Army of King Husain in the Hejaz and served with the Emir Feisal and Lawrence in command of the Hejazi regular troops in the campaign up to the fall of Damascus.

Before the end of that campaign the Pasha had been decorated by General Allenby at his Headquarters at Bir Salem in Palestine in the middle of a hollow square composed of his captors, the Dorset Yeomanry, whose selection as a guard of honour on that occasion delighted Jafar, who had a keen sense of humour and insisted on wearing his Iron Cross at the ceremony.

After the capture of Aleppo he was appointed its Governor, and when the Emir Feisal became King of Iraq he served as Minister of Defence in the two Cabinets headed by the Naqib of Baghdad from August, 1921, to November, 1922. The Pasha was then appointed first Iraqi Minister to the Court of St. James's, and in that capacity attended the Peace Conference at Lausanne, where his vast and jovial presence made a great impression on the diplomatists and others who were gathered there.

In November, 1923, King Feisal recalled him to Baghdad to be Prime Minister until August, 1924, when he returned to his Legation in London. He was again Prime Minister and also Minister for Foreign Affairs from November, 1926, to January, 1928, and on his way back to London in March of that year to resume his diplomatic career was very nearly captured by Wahabi raiders while his aeroplane was delayed at Ramadi. On his return to London the Pasha read for the English Bar, and was called by Gray's Inn on January 15, 1930. In the following month he was the guest, with Lord Allenby, at a reunion dinner of the Dorset Yeomanry, for whom he had the highest esteem, and in March, 1930, was again recalled to Iraq to become Minister of Defence until October, 1932, in the two Cabinets of General Nuri Pasha es Said, whose sister Jafar had married. Once again Jafar became Minister in London, where he greatly enjoyed being, from November, 1932, until December, 1934, when he was appointed a Senator and returned to Iraq. In March, 1935, he entered the Cabinet which has just fallen as Minister of Defence, his fifth tenure of that office.

الملحق رقم (٥)
خطاب
من سماحة السيد أمين الحسيني

حضرة صاحب الفخامة الصديق المعظم نوري باشا السعيد حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد دهشنا للمفاجئة المؤسفة التي انتابت العراق في مثل هذه الآونة وأودت بحياة ذلك البطل الكبير المرحوم جعفر باشا الذي كان له من الجهود في سبيل القضية العربية منذ البداية حتى النهاية ما يخلد ذكراه.

ان هذه الحادثة أحزنتنا وآلمتنا كثيرا ولم نكن نتوقعها، ولاتزال من الألغاز المبهمة علينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، واني أشاطر فخامتكم الأسى والأسف وأقدم أخلص التعزية لقد ذلك البطل الكبير الذي تشعر جميع الأقطار العربية بفداحة المصيبة في فقده. رحمه الله وطيب ثراه.

وثقوا يا فخامة الأخ الكريم أني وكل عربي مخلص في هذه البلاد يكاد يمضنا الأسف والألم لما وقع في العراق، وان الجميع يقدرون فضلكم العظيم في خدمة العراق خاصة والبلاد العربية عامة ويشكرون جهودكم المبرورة في ذلك السبيل بتلك الحصافة والنبوغ.

واني لكبير الرجاء بان هذه السحابة لا تلبث أن تنقشع من سماء العراق وتزول دهشة المفاجأة فتنجلي الأمور وتعود المياه الى مجاريها وتستقر الحالة، فيرجع الى البلاد أبطالها الذين أخلصوا في خدمتها ورفعوا شأنها وأعلوا اسمها، وفخامتكم في مقدمتهم.

وفي الختام فاني أدعو فخامتكم والعائلة الكريمة لأن تشرفوا فلسطين وبذلك نتمكن من القيام بخدمتكم والحظوة بلقائكم وأطال الله بقائكم.

محمد أمين الحسيني

Extract from speech in the House of Commons by the Rt. Hon. Winston Churchill,M.P. on the 14th June,1921.

The Arab army is already partly formed under the administration of Ja'far Pasha, the present Mesopotamian Secretary of State for War. I do not know whether the Committee have in their minds the romantic career of this man. I have no doubt my Hon. and Gallant Friend the Member for the Wrekin Division (Sir C. Townshend) is well acquainted with it. He began the War fighting against us at the Dardanelles, and he achieved a German Iron Cross. He then came round to the Western Desert where he commanded the army of the Senoussi against us. He fought, I believe, three battles, in two of which he was victorious, but the third went amiss from his point of view, and he was wounded and pursued by the Dorsetshire Yeomanry and finally caught in the open field, taken to Cairo as prisoner of war and confined in the citadel. He endeavoured to escape, but, being a somewhat ample personage, the rope by which he was descending from the wall of the citadel broke and precipitated him into a ditch, where his leg was broken. While he was in hospital recovering from these injuries he read in the papers that King Hussein, the Sherif of Mecca, had declared war upon the Turks and he immediately saw that he was on the other side to what he had hitherto thought. He therefore made representations to the Arab leaders at Mecca, and after some hesitation he was given a command in their army. He very speedily rose to a position of high confidence and distinguished himself greatly in the fighting which took place in the next two years. He was finally given the Companionship of St. Michael and St. George by Lord Allenby in a hollow square of British troops composed almost entirely of the same Dorsetshire Yeomanry which had ridden him down. Such is the personality of the Mesopotamian Minister of War, and he is of course a devoted adherent of the Sherif of Mecca.

الملحق رقم (٦)
من خطاب للمستر وينستن تشرتشل
في مجلس العموم البريطاني
بتاريخ ١٤ حزيران ١٩٢١

لقد تم تأسيس الجيش العربي بادارة جعفر باشا العسكري، وزير الدفاع الحالي في العراق. ولا أعلم فيها اذا كانت اللجنة تتذكر السيرة «الرومانتيكية» لهذا الرجل. ولا شك عندي ان زميلي الشهم عضو مجلس العموم (السرسي. تاونسند) على معرفة جيدة بها. لقد بدأ الحرب يقاتل ضدنا في الدردنيل، وحصل على الصليب الحديدي الألماني، ثم جاء الى الصحراء الغربية حيث تولى قيادة جيش السنوسي ضدنا. وقد خاض، فيما أعتقد، ثلاث معارك انتصر في اثنتين منها، ولكن الثالثة لم تكن موفقة من وجهة نظره، فجرح فيها ولاحقته كتيبة دوستشاير يومانري وأخيرا قبض عليه في ساحة المعركة، ونقل الى القاهرة أسيرا وأحتجز في القلعة. وقد حاول أن يهرب، ولكن نظرا لضخامة جسمه نوعا ما أنقطع به الحبل الذي كان يتدلى به من جدار القلعة فوقع في حفرة وكسرت رجله. وبينما كانت جروحه تلتئم في المستشفى قرأ في الصحف أن الملك حسين، شريف مكة قد أعلن الحرب على الأتراك، ووجد نفسه فورا في الجانب المعاكس للجانب الذي كان يحارب معه حتى الآن. ولذلك أجرى اتصالات بزعماء العرب في مكة، وبعد شيء من التردد أنيطت به قيادة الجيش. وسرعان ما حصل على ثقة عالية، وبرّز كثيرا في القتال الذي دار خلال السنتين التاليتين. وأخيرا منح وسام القديسين مايكل وجورج من قبل اللورد اللنبي محاطا بدائرة من القوات البريطانية التي كان معظمها ينتمي الى كتيبة دوستشاير يومانري التي أسرته.

هذه هي شخصية وزير الحرب العراقي، وهو بطبيعة الحال من رجال شريف مكة المخلصين.

فهرس عام

أ

ت

ث

ج

ح

خ

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ك

ل

م

ن

هـ

و

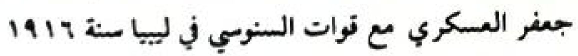
ي

جعفر العسكري (في أقصى اليمين) مع مجموعة من قادة الجيش التركي خلال الحرب البلقانية (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٣) ويليه صبيح نشأة فالفريق خورشيد باشا قائد الفيلق العاشر فالقائمقام أنور بك (أنور باشا فيما بعد) رئيس أركان الفليق



جعفر العسكري

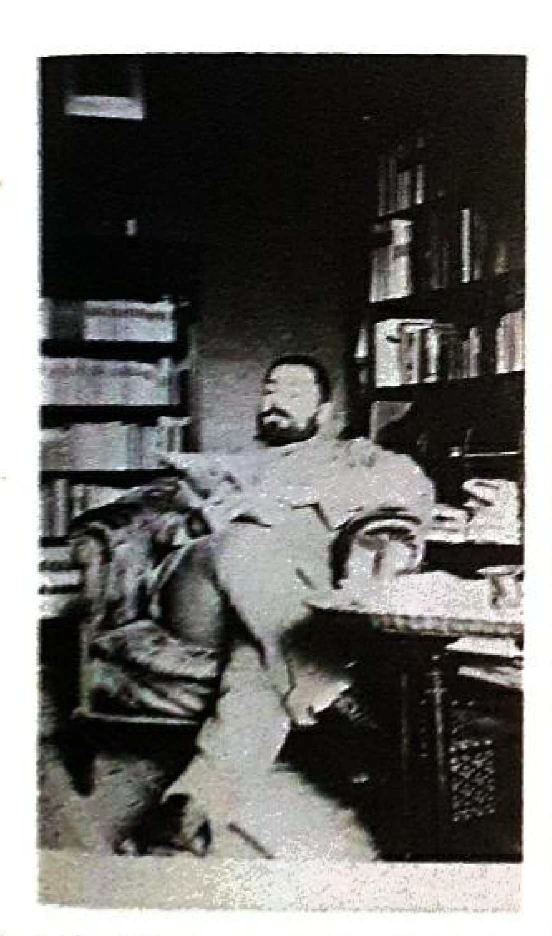




جعفر العسكري مع قوات السنوسي في ليبيا سنة ١٩١٦



جعفر العسكري ينقل الى الأسر بحراسة الجنود البريطانيين سنة [illegible]



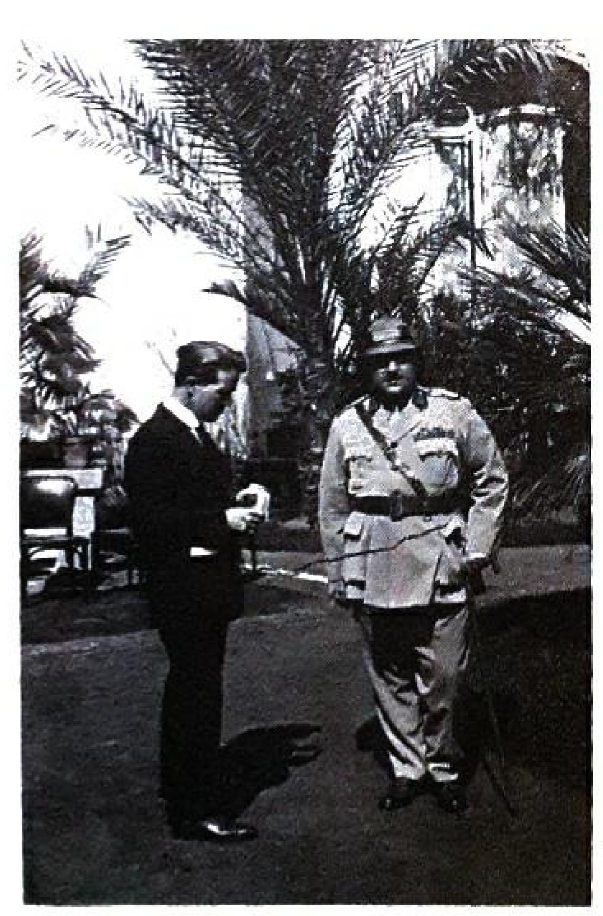
جعفر العسكري في مكتبه في داره بالمعادي بالقاهرة

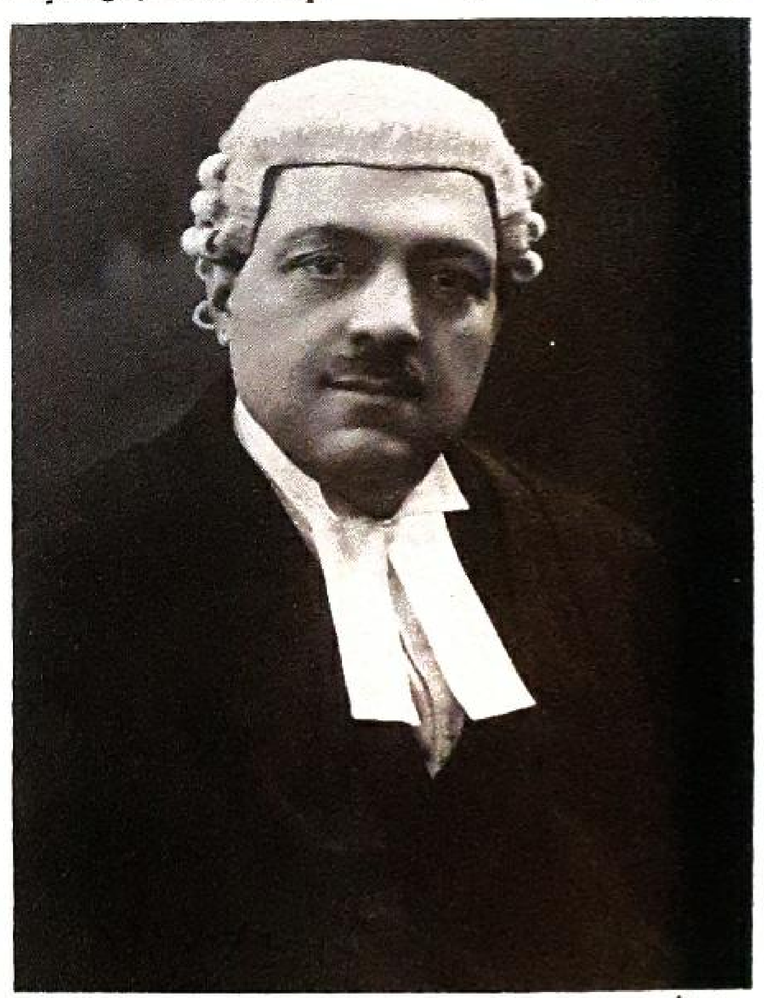


جعفر العسكري مع زوجته وابنه البكر

مؤتمر القاهرة عام ١٩٢٠ ـ في الصف الأمامي: وينستون تشرشل، وفي خلفه في الصف الثاني جعفر العسكري والى يساره لورنس

جعفر العسكري مع لورنس في حديقة فندق شبرد
في القاهرة خلال مؤتمر القاهرة ١٩٢٠





جعفر العسكري عند تسلمه شهادة الحقوق من معهد غريز إن (Gray's Inn)
في لندن في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠



جعفر العسكري في دمشق عام ١٩١٩ مع الأمير زيد: (من اليمين)

الصف الأمامي: يوسف خشيرم، مرزوق التخيمي، علي الحارثي، عبد الله الدليمي، تحسين العسكري (شقيق جعفر)

الصف الثاني: أحد الأشراف، جعفر العسكري، الأمير زيد، علي رضا الركابي، الشريف ناصر، فوزي البكري، عبد الله الجزائري

الصف الثالث: فرحان معجل، نسيب الأطرش، نسيب البكري، حسين الأطرش، علي رضا العسكري (شقيق جعفر)، سامي البكري

شريف الفاروقي مندوب الحجاز في مصر - صورة التقطها له جعفر العسكري في داره بالمعادي سنة ١٩١٦





الملك فيصل، جعفر العسكري، ياسين الهاشمي، رستم حيدر - لندن ١٩٢٩

مذكرات جعفر العسكري

صدر من دار اللام

الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة

علي الشوك

٣٢٠ صفحة

٧,٩٠ جنيه استرليني

العراق : شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠

حسين جميل

٣٢٠ صفحة

٨,٩٠ جنيه استرليني

العراق : نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١

غسان العطية

٥١٢ صفحة

١٢,٩٠ جنيه استرليني غلاف عادي

١٦,٩٠ جنيه استرليني تجليد فني

الاعشاب والتوابل في حياتنا

بحرية الجنابي

١٢٨ صفحة ملونة

٧,٧٠ جنيه استرليني غلاف عادي

٩,٩٠ جنيه استرليني تجليد فني

لآلىء المتنبي

مختارات من شعر أبي الطيب المتنبي

نبيل الفضل

١٦٠ صفحة

٧,٠٠ جنيه استرليني غلاف عادي

٨,٩٠ جنيه استرليني تجليد فني

الحسابات القومية

دراسة في الاساليب الاحصائية

جواد هاشم

قيد الاصدار

تاريخ القضية العراقية

طبعة ثانية

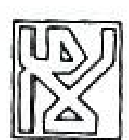
محمد المهدي البصير

Jafar El Askari: Memoirs

Edited by Najdat F. Safwat

Cover Design: Ramzi

ISBN 1 870326 11 3



Published in the United Kingdom
by **LAAM Ltd.**
10 Ash Tree Close
Surbition,
Surrey KT6 5BQ

Printed by:
UNWIN BROTHERS LIMITED
The Gresham Press, Old Woking, Surrey
A Member of the Martins Printing Group



مُذكّرات
جَعفَر العَسْكري